قلعة صانور
وتاريخ آل جرار

الطبعة الثانية

طبعة مزيدة ومنقحة

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٦٧٢/٣/2010)

٩٢٩.٢٥٦
جرار، صلاح محمد محمود
قلعة صانور وتاريخ آل جرار/ صلاح محمد محمود جرار. _ عمان:
المؤلف: ٢٠١٠.
(٢٤٠) ص
ر.أ: (٦٧٢/ ٣/ 2010).
الواصفات: / الأنساب/ / الرحلات / / التاريخ القديم/

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ردمك ISBN

المأمون
دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

قلعة صانور
وتاريخ آل جرار

صور من مشاهدات الرحّالة في القرنين
الثامن عشر والتاسع عشر

أعده وترجم نصوصه

الدكتور صلاح جرّار

[الطبعة الثانية]

طبعة مزيدة ومنقحة




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الثانية

عندما صدرت الطبعة الأولى من كتاب "قلعة صانور وتاريخ آل جرّار: صور من مشاهدات الرحّالة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر" عام ٢٠١٠، ذكرتُ في مقدّمة تلك الطبعة أنني في حال العثور على نصوص أخرى فسوف أقوم بإصدار طبعةٍ مزيدة جديدة تشتمل على هذه النصوص.

وقد تهيّأ لي بتوفيق من الله سبحانه وتعالى أن أقف على أربعين رحلة إضافية ممّن مرّ أصحابها بقلعة صانور ووصفوها وتحدّثوا عن أخبارها وأخبار زعمائها من آل جرّار، وكانت الطبعة الأولى قد اشتملت على نصوص وقفتُ عليها في اثنتين وأربعين رحلة، وبذلك يبلغ عددُ ما تشتمل عليه هذه الطبعة المزيدة من الرحلات اثنتين وثمانين رحلة تحدّث أصحابها في بعض صفحاتها عن قلعة صانور وآل جرّار. وهذه الرحلات منشورة باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وواحدة منها منشورة باللغة القطالانية. وقد استعنت ببعض الأساتذة المختصّين في ترجمة النصوص المأخوذة من رحلاتٍ منشورةٍ بغير اللغة الإنجليزية.

وقمتُ بضمّ هذه النصوص الجديدة إلى النصوص السابقة في هذه الطبعة الجديدة المزيدة والمنقحة، حيث اغتنمت فرصة إعداد هذه الطبعة لإجراء بعض التصحيحات على ما ورد في الطبعة الأولى مستفيداً من بعض الملاحظات التي أبداها الأخوة والأصدقاء الذين قرأوا الكتاب في طبعته الأولى. وقد رتّبتُ مادّة هذا الكتاب ترتيباً زمنياً حسب تاريخ القيام بالرحلة.

إنّ الرحلات الإضافية التي اشتملت هذه الطبعة على نصوص منها تحفل بالكثير من الأخبار المهمّة عن قلعة صانور وتاريخها، وتدور حول حدثين رئيسيين، أوّلهما: الحصارات المتكررة التي قام بها أحمد باشا الجزّار والي عكّا للقلعة في أواخر القرن الثامن عشر وانكسار جيوشه وجيوش الأمراء الشهابيين من لبنان أمام أسوارها غير مرّة، وثانيهما: هجوم عبد الله باشا والي عكّا بمساندة الأمير بشير الشهابي أمير لبنان على صانور سنة ١٨٣٠ وشنّ الحرب عليها على مدى عدة شهور حتى تمكّنا من اقتحامها وهدم أسوارها.

كما تضمنت هذه النصوص أوصافاً كثيرة لرجال صانور ونسائها وعاداتهم وأخلاقهم، ووصفاً لأراضيها وبيوتها وبوّاباتها وأنفاقها وآثارها وموقعها وأهميّتها وأشجارها، ووصفاً لسهلها المشهور بمرج الغرق. ممّا يجعل من هذه الرحلات وثائق مهمّة ذات مصداقية حسنة لدراسة تاريخ صانور وخصائصها الاجتماعية والطبيعية.

إنّ بلوغ عدد الرحلات التي عرض أصحابها لوصف قلعة صانور والحديث عن أهلها وزعمائها إلى اثنتين وثمانين رحلة، هو دليلٌ واضح على الأهمية التي كانت تمثّلها هذه القلعة في تاريخ فلسطين في العهد العثماني، وعلى المكانة السياسية التي تمتّع بها زعماء هذه القلعة من آل جرّار، وقد ذكر غير واحدٍ من هؤلاء الرحّالة أن صانور كانت معقل آل جرّار والقاعدة التي كانوا يحكمون منها مناطق واسعة امتدت في بعض الأزمنة ما بين الجليل ونابلس، حتّى وصف شيوخ بني الجرّار في بعض المصادر تارة بالشيوخ وتارة بالزعماء وتارة بالأمراء، ممّا حدا بكثير من كبار السياسيين وبعض الملوك والأمراء

والـوزراء والسـفراء والقناصـل بالإضـافة إلـى العلمـاء والبـاحثين والمـؤرّخين والكتّـاب إلـى زيارتها منذ منتصف القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر، وتسجيل مشاهداتهم وحواراتهم فيها.

ولئن كنت قد نجحت خلال سنوات طويلة من البحث في التوصّل إلى نصوص اثنتين وثمانين رحلة من الرحلات التي تضمنت أخباراً عن صانور وأهلها، إلاّ أنني أشعر بشيء من المرارة والأسى على عدم معرفة مصير كثير من الوثائق والتقارير والرسومات التي كانت بحوزة بعض هؤلاء الرحّالة والسياسيين وسواهم، ومع ذلك فإنني على ثقة بأنّ مزيداً من البحث عن هذه الوثائق وأعمال الرحّالة سوف يكشف لنا – بمشيئة الله – عن مزيد من الحقائق المهمّة ويوفّر لنا كثيراً من المعلومات. ولذلك فإنني سوف أتابع بعون الله البحث والتنقيب عن تلك الرحلات والوثائق، ومتى توافر لي شيء جديدٌ ذو أهميّة فإنني سأقوم بإضافته إلى هذا الكتاب في طبعة لاحقة جديدة بإذن الله تعالى.

إنّ الحصول على اثنتين وثمانين رحلة كتب أصحابها عن صانور وآل جرّار لم يكن – في أيّة حال- بالأمر اليسير، إذ كان لا بدّ من قراءة مئات الرحلات وتفحّصها لتحديد أيّ من أصحابها مرّ بصانور وكتب عنها، وقد نشرت الغالبية العظمى من هذه الرحلات ما بين سنتي ١٨٠٠ و ١٩٠٠ ولم يكن الحصول على أيّ من هذه الطبعات سهْلاً لأنها طبعات نافدة منذ زمن بعيد، وقد حصلت عليها بصعوبة بالغة من دول أوروبية عدّة، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ هذه الرحلات منشورة بلغات عالمية مختلفة، وفوق ذلك فإنّ معظمها بلغة قديمة صعبة قد لا يكون لبعض مفرداتها معانٍ في القواميس الحديثة، وبعضها مطبوع بحروف لاتينية مرخرفة وقديمة تحتاج إلى مهاراتٍ خاصّة لقراءتها. وفوق هذا وذاك فإنّ بعض هذه الرحلات ليس لها فهارس للأعلام والأماكن ممّا يزيد الأمور صعوبة ويضطر القارئ إلى استعراض الكتاب كاملاً قبل تحديد ما يمكن الاستفادة منه.

ولم يكن لي أن أتغلب على هذه المصاعب لولا مساعدة بعض الأصدقاء الذين أدين لهم بالامتنان والشكر الجزيل والثناء العطر على جهودهم في ظهور هذا الكتاب، وأخصّ بالشكر السيّدة نورس أبو الهيجاء والسيّدة ميساء الخطيب والأستاذ الدكتور غالب جرّار. ولا يفوتني أن أزجي جزيل الشكر للسيّد مأمون لطفي جرّار صاحب شركة الشرق الأوسط للطباعة على تكفّله بنفقات نشر هذا الكتاب في طبعته الأولى وهذه الطبعة الجديدة. وأزجي الشكر كذلك مضاعفاً إلى الدكتور مأمون جرّار صاحب دار المأمون للنشر والتوزيع على جهوده في نشر هذا الكتاب.

والله تعالى وليّ التوفيق

أ.د. صلاح جرّار

عمّان في الأوّل من شعبان ١٤٣٤هـ/

العاشر من حزيران ٢٠١٣ م

مقدّمة الطبعة الأولى

بدأت قصّة هذا الكتاب قبل بضعة عشر عاماً عندما كنت مديراً لمكتبة الجامعة الأردنيّة، فقد اتصلت بي الدكتورة سلمى طوقان من كليّة الزراعة في الجامعة تسألني إنْ كنت اطلعت على كتابٍ بالإنجليزية يتحدّث في بعض فصوله عن قلعة صانور وآل جرّار، ثمّ قامت مشكورةً بإرسال صفحاتٍ من الكتاب لي، فقرأتُ هذه الصفحات بعناية.

وبعد عدة سنوات دعتني دواعٍ للرجوع إلى هذه الفصلة من الكتاب، و هو كتاب: الحياة الداخليّة في فلسطين (Domestic Life in Palestine) لمؤلفته ماري إليزا روجرز (Mary Eliza Rogers) و هي شقيقة القنصل الإنجليزي في دمشق في منتصف القرن التاسع عشر، وقد زارت قريتي عرّابة وصانور مع شقيقها سنة ١٨٥٦، وذلك لدراسة الأوضاع السياسية السائدة في تلك المنطقة.

ولدى عودتي إلى هذا الكتاب وجدتُ نفسي مشدوداً إلى قراءته من بدايته إلى نهايته، فوجدت الحديث عن صانور وآل جرّار يرد في صفحات كثيرة متفرقة ، كما وجدتُ إحالاتٍ إلى رحّالة سابقين زاروا قلعة صانور والتقوا مع شيوخها ووصفوا مشاهداتهم فيها. فرجعت إلى كتب هؤلاء الرّحالة السابقين، حتى أصبح البحث عن هذه الكتب في شبكة المعلومات العالمية وفي المكتبات القديمة والحديثة هواية استحوذت على كثير من أوقاتي واهتمامي. وقد وجدت صعوبات بالغة في الحصول عليها، لأنّ أكثرها مطبوعٌ بين سنتي ١٨٠٠ و١٨٩٩، وبعضها منشور قبل ذلك، وقرأت نتيجة ذلك ما لا يقلّ عن ثلاثمائة كتاب بالإنجليزية، وقمت بترجمة ما وجدته فيها عن قلعة صانور وآل جرّار.

أمّا رحلات الفرنسيين والألمان فوجدت بعضها مترجماً إلى اللغة الإنجليزية، فقمت بترجمة ما وجدته فيها من الإنجليزية إلى العربيّة. أمّا ما لم أجد له ترجمة إلى الإنجليزية فاستعنت على ترجمته ببعض الأصدقاء ممّن يجيدون تلك اللغات.

وقد اجتمع لديّ من مشاهدات الرّحالة ما يكفي لأن أعدّ كتاباً فيها، يشتمل على مشاهدات الرّحالة في بلدة صانور وما دار بينهم وبين شيوخها وأهاليها من حوارات وأحاديث.

وقد اقتصرت مهمتي - بعد ترجمة النصوص- على إيراد هذه النصوص مرتّبة ترتيباً زمنيّاً حسب تاريخ كلّ رحلة منها. وتركت دراسة محتويات هذه النصوص وربطها بالأحداث التاريخية التي مرّت بها قلعة صانور، منذ مطلع القرن الثامن عشر وحتى نهاية الحكم العثماني، للمؤرّخين، حيث تمثل هذه النصوص للدارسين والمؤرّخين مصادر تاريخية مهمّة وفريدة، ولاسيّما أنّ أصحابها يُعَدُّون شهود عيان على درجة حسنةٍ من المصداقية والموثوقية.

وقد بلغ عدد الرّحلات التي اشتملت على وصف لقلعة صانور وقاطنيها من آل جرّار اثنتين وأربعين رحلة، منها رحلة واحدة لرحّالةٍ عربيّ، هي رحلة ابن عثمان المكناسي سنة ١٧٨٥م، ومع أنها الرّحلة العربيّة الوحيدة إلاّ أنها الأقدم في هذه الرّحلات جميعاً، ممّا يجعل لها أهمية خاصّة. وقد أسهبت بعض هذه الرّحلات في الوصف بينما اقتصر بعضها على فقرة أو فقرتين موجزتين.

ولئن كانت هذه النصوص التي وقفتُ عليها ونقلتُها إلى العربيّة هي خلاصة قراءاتي في عددٍ كبير من الرحلات إلاّ أنّ من غير المستبعد أن تكون ثمّة نصوصٌ أخرى في الرّحلات التي لم أتمكن من الحصول عليها بعد، وفي حال عثوري على نصوصٍ أخرى إضافيّة فسوف أعملُ بمشيئة الله على إصدار طبعة مزيدة جديدة تشتمل على ما قد يكون فاتني من مشاهدات هؤلاء الرّحالة.

وقد يتساءل القارئ عن سرّ عناية الرحّالة الغربيّين بصانور وحرص بعضهم على النزول بها، أو المبيت فيها، أو تناولِ الطعام تحت زيتونها، أو الاكتفاء بوصفها وو صف سهلها المعروف بمرج الغرق، فأقول إنّ صانور تقع على الطريق الرئيسي للحجّ المسيحي الذي يربط الناصرة و الجليل بالقدس الشريف مروراً بمرج ابن عامر وجنين وقباطية وصانور وجبع وبيت إمرين وبرقة وسبسطية ونابلس، وأن وقوعها على رأس تلةٍ تطلّ على مسافة طويلة من الطريق الواصلة بين جنين ونابلس يلفت أنظار المارّة، وتستوقفهم قلعتها التي شهدت أحداثاً تاريخية كثيرة وذات أهميّة كبيرة.

ولعلّ المكانة السياسية التي كانت تتمتع بها هذه القلعة، عندما كان شيوخها زعماء لسنجقيْ جنين و نابلس، جعلها قبلة لبعض الدبلوماسيين من قناصل بريطانيا وفرنسا في القدس الشريف ودمشق، مثلما جذبت بعض الرحالة الذين كانوا يحرصون على أخذ قسط من الراحة في أثناء ارتحالهم، ولاسيّما أن شيوخ آل جرّار كانوا يحتفون بهؤلاء الرحالة ويقومون لهم بواجب الضيافة ثمّ يرسلون معهم من عساكرهم من يرافقهم في طريقهم إلى نابلس ضماناً لسلامتهم. وكان كثير من هؤلاء الرحالة يعرّجون على صانور في ذهابهم إلى القدس الشريف وفي أثناء عودتهم منها إلى الناصرة والجليل، ولذلك فإننا نجد بعض الرحالة يصفون صانور في أثناء توجههم من الناصرة إلى القدس، وبعضهم يصفها في أثناء عودتهم من القدس باتجاه الناصرة والجليل، وفريق آخر يصفها في أثناء ذهابهم إلى القدس وعودتهم منها.

ولولا المشقة التي كان يشكو منها بعض الرحّالة من صعوبة صعود التلّة المؤدّية إلى صانور لكون الطريق إليها وعرة وصخرية وشديدة الانحدار من جميع جهاتها، لربّما وجدنا عدداً أكبر من الرحالة الذين دخلوا القلعة والتقوا بزعمائها ووصفوها، كما أنّ وجود طرق ثانوية أخرى تربط بين الناصرة والقدس حال دون مرور عدد من الرحالة بصانور، فمنهم من كان يصل إلى القدس عن طريق سيناء فالعقبة فالبحر الميت، أو مروراً من الجليل والناصرة إلى مرج ابن عامر إلى جبل طابور ثمّ بيسان والغور إلى البحر الميت فالقدس، أو مروراً من الجليل إلى عكا ويافا والرملة ثمّ عسقلان ثمّ إلى الخليل والقدس، لكنّ الطريق الرئيسي التي كان يمرّ منها معظّم الرحالة هي طريق الناصرة ثمّ مرج ابن عامر ثمّ جنين ثمّ قباطية ثمّ صانور ثمّ جبع ثمّ بيت إمرين ثمّ برقة ثمّ سبسطية ثمّ نابلس ثمّ القدس.

ويفهم من بعض نصوص هذه الرحلات وبعض الأخبار التي أوردها الرحّالة أنّه كان لا بدّ لأيّ مسافر خلال بعض الفترات الزمنية عبر حدود منطقة نابلس وجنين من رسائل موجهة إلى حكامها للسماح له بالمرور أو المبيت أو التزوّد ببعض الخدمات في القرى التي يمرّون بها.

أمّا دوافع الرحلة إلى صانور أو وصفها، كما تظهر من خلال كتب الرحالة، فكانت إمّا دبلوماسية لاستطلاع الأحوال السياسية التي كانت سائدة في المنطقة، حيث كانت صانور

معقل آل جرّار حكام جنين ونابلس في عدة حقب زمنية، وكانت في عين الأحداث السياسية خلال تلك الحقب، أو للتوسّط بين الأطراف المتنازعة التي كانت صانور أحدها، ولذلك لا نجد غرابة في أنّ قلعة صانور قد استضافت عدداً من رجال السياسة الكبار والسفراء والقناصل العرب والأجانب مثل ابن عثمان المكناسي والقنصل البريطاني في دمشق المستر روجرز والقنصل البريطاني في القدس السيّد جيمس فنّ وبعض القناصل الفرنسيّين، إضافة إلى الزيارة التي قامت بها ملكة بريطانيا الملكة كارولاين سنة ١٨١٤، وحاكم مقاطعة بلمور سنة ١٨١٦. كما كان من دوافع زيارة الرحالة لقلعة صانور الدراسات الاستكشافية والآثارية والعلميّة (علماء النبات والحيوان والآثار والجيولوجيا).

ويضاف إلى هذه الدوافع حبّ الرحلة، ولاسيّما أن عدداً من هؤلاء الرحالة قد وصفوا صانور بأنها ذات موقع بديع يثير شهيّة الرحالة لزيارتها والاستمتاع بجمالها، وكذلك أفرط الرحالة في وصف سهل صانور والماء الذي كان يتجمع في مرج الغرق في فصل الشتاء وما يعيش فيه من نباتات وزهور وطيور وغير ذلك.

كما استهدفت الرحّلات إلى صانور خصوصاً وإلى فلسطين وبلاد الشام عموماً، البحث عن الآثار اليهودية والمسيحية، والاطّلاع على أحوال اليهود والمسيحيين في هذه البلاد، والقيام بنشاطات تبشيرية، ولذلك كان كثير من هؤلاء الرحّالة من كبار رجال الدين اليهودي والمسيحي.

كما لا يخفى على القارئ الفطن –لدى تأمّله السير الذاتية لهؤلاء الرحّالة واهتماماتهم - ما قد كان يخفيه هؤلاء الرحّالة من أهداف سياسية واستخبارية ونوايا استعمارية غير معلنة، ولاسيّما أنّ بعضهم كانوا ممّن يحملون رتباً عسكرية عالية.

ونتيجة لتنوّع أهداف هؤلاء الرحّالة فقد كان من الطبيعي أن نجد تفاوتاً في مستوى الموضوعيّة لديهم، ولا سيّما إذا قصدوا هذه البلاد وهم معبّأون بمواقف مسبقة وصور راسخة في أذهانهم عن المجتمعات التي يزورونها. وقد أسهم هؤلاء الرحّالة كثيراً في تشكيل صورة الإنسان العربي في أذهان الأوروبيين. ولذلك فإنّ هذه الرحلات تعدّ مصدراً أساسيّاً لدراسة هذه الصورة، وممّا يؤكّد ذلك أن هؤلاء الرحّالة لم يتردّدوا في تناقل آراء الرحّالة الذين سبقوهم وإيرادها في كتبهم كما لو كانت مسلّمات، وفي أحيان كثيرة كانوا يقتبسون هذه الآراء بصورة شبه حرفية من غير أن يذكروا مصادرهم.

ولم تقتصر الرحّلات التي وصفت صانور على رحلات الرجال بل هناك رحلات قامت بها نساء أوروبيات مثل ماري إليزا روجرز والملكة كارولاين وغيرهما.

وإذا ما استثنيا الأماكن ذات الأهمية الدينية الكبيرة كالناصرة والقدس والعيزرية وبيت لحم وسبسطية لوجدنا أن صانور قد حظيت بنصيب وافر من اهتمامات الرحالة الذين زاروا فلسطين، وذلك للأسباب التي ذكرناها، يضاف إلى ذلك أن كثيراً من الرحّالة يعتقدون أن القلعة يعود بناؤها إلى عهد الحروب الصليبية، ويرى كثير منهم كذلك أن صانور هي بيثوليا القديمة موطن جوديث التي نصبت مكيدة للقائد الأشوري هوليفيرنس الذي خيّم بجيشه في مرج صانور، وتمكنت من قتله وقطع رأسه. ونظراً لذلك فإنّ المؤلفين الأجانب الذين وضعوا أدلّة كثيرة للسوّاح والرحالة إلى فلسطين لم يغفلوا ذكر قلعة صانور، ونبّهوا كلّهم إلى أهميتها وجمالها ومنعتها وبعض الأحداث التاريخية الرئيسية التي شهدتها.

بقيت ملحوظة أخيرة كشفت عنها الرحلات الأجنبية، و هي أنّ قلعة صانور لم تحظ من عناية كتب الرحالة العرب إلاّ برحلة واحدة، هي رحلة ابن عثمان المكناسي المغربي، و هذا أمرٌ طبيعي في ضوء قلّة ما دُوِّنَ من رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ممّا يطرح تساؤلاً مهمّاً جديداً هو: ما سرّ حرص الرحالة الغربيّين القادمين من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا وألمانيا وأمريكا على تدوين رحلاتهم إلى فلسطين حتى تجاوزت في عددها ألف رحلة، بينما لم يُعْنَ الرحالة العرب والمسلمون الذين زاروا فلسطين والقدس الشريف، على كثرة هذه الزيارات وأهميتها الدينية والعلمية، بتدوين رحلاتهم، إلاّ قليلاً، ولم يصل إلينا من هذه الرحلات العربيّة والإسلامية إلاّ عدد قليل لا يكاد يتعدّى بضع عشرة رحلة.

وثمّة ملحوظة أخرى على هذه الرحّلات الأجنبية، و هي أنها على الرغم من تعدادها الجمّ وأهميتها التاريخية والاجتماعية الكبيرة، لم يترجم منها إلى العربيّة إلاّ عددٌ محدودٌ جداً.

وقد تبيّن لي أنّ كتب الرّحلات الأجنبية تمثّل مصدراً مهمّاً وأساسياً من مصادر الدراسة التاريخية والسياسية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والآثارية وغيرها لقلعة صانور، بالإضافة إلى المصادر التاريخية العربيّة التي ألّفت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وتحتوي على معلومات تاريخية مهمّة عن الأحداث التي مرّت بها القلعة والهجمات التي تعرّضت لها والحروب التي خاضتها. وذلك فضلاً عن الوثائق التاريخية المحفوظة في الأرشيف العثماني وسجلات المحاكم الشرعية في نابلس والوثائق المصرية المحفوظة في متحف قصر عابدين في مصر، فإنّها ذات أهمية تاريخية واجتماعية لتاريخ قلعة صانور وآل جرّار، يضاف إلى ذلك تقارير القناصل الأجانب الذين عملوا في فلسطين إبّان العهد العثماني، وبعض الدراسات الأجنبية الاستكشافية والتاريخية والدينية والآثارية والاجتماعية.

إنّ الرجوع إلى كتب الرحلات يتطلب جهوداً مضنية للوصول إليها أو الحصول عليها ثمّ قراءتها وترجمتها، و هي مصادر مهمّة لأنّ ما تحمله من المعلومات والأوصاف طازجة وبنت ساعتها لكونها وصفاً لمشاهدات شهود عيان يصفون ما شاهدوه بأعينهم وما سجّلوه من حوارات وأحداث كانوا طرفاً فيها في بعض الأحيان، وبعض هذه المعلومات التي يوردونها في كتبهم لا نعثر عليه في مصدر تاريخيّ آخر.

ولا يفوتني، بين يديْ هذا الكتاب، أن أتوجه بجزيل الشكر إلى كلّ من ساعدني، سواءً في ترجمة بعض النصوص الفرنسية إلى العربيّة، أم في تقديم أي جهد أو مساعدة لي في أثناء إعداد هذا الكتاب، سائلاً الله تعالى أن يجزيهم عنّي خير الجزاء.

والله تعالى ولي التوفيق

المؤلّف

عمّان في ٢ صفر ١٤٣١هـ/
١٨كانون الثاني ٢٠١٠

تمهيد

ورد أوّل ذكر لصانور –في ما اطّلعتُ عليه من المصادر- في كتاب "أعيان العصر وأعوان النصر" لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ)(١)، وذلك في ترجمته للأمير المملوكي سيف الدين المنصوري المعروف باسم بهادر آص، المتوفى سنة ٧٣٠ هـ (حوالي ١٣٣٠م)، وكان القائم بأمر الملك الناصر لمّا كان بالكرك ثمّ نائباً للسلطان في صفد، فقد ذكر صلاح الدين الصفدي أنّه كانت لهذا الأمير المملوكي إقطاعات كثيرة في دمشق وحمص والجولان والبقاع وبيروت والبلقاء وصفد وعكا ونابلس وغيرها، وكان من إقطاعاته بنابلس "صانور بكمالها" والكفر بكمالها، وكفركوس بكمالها. ومعنى ذلك أنّ صانور كانت معروفة قبل القرن الرابع عشر الميلادي. ويرجّح كثير من الرحّالة الغربيّين أن قلعة صانور كانت قلعة صليبية وأن الصليبيين قد بنوها أيام الحروب الصليبية وإبّان وجودهم في نابلس. ولعلّ الموقع المهمّ لصانور الذي يتحكم في مدخل نابلس الشمالي وارتفاعها وإشرافها على جزء كبير من الطريق الواصل بين جنين ونابلس، كان مغرياً على الدوام لإقامة قلاع حربية وأبراج مراقبة عليها.

وكانت نابلس في أيام الحكم الصليبي (١٠٩٩- ١١٨٧م) واحدة من المقرّات الملكية للصليبيين التابعة لمملكة القدس، وقد سكنت بها الملكة ميليسيند (Melisende) ملكة القدس من ١١٥٠م حتى ١١٦١م، واستقرّ بها عددٌ كبير من الصليبيين للاستفادة من مواردها الاقتصادية الغنية. وقد أنشأوا فيها الكثير من المؤسسات والكنائس ونُـزُلاً للحجاج المسيحيين.

وبعد الأيوبيين حكم المماليك نابلس من سنة ١٢٦٠م حتى هزيمتهم على يد العثمانيين في معركة مرج دابق في ٢٣ آب ١٥١٦م.

وفي عام ١٥١٧م أصبحت فلسطين ونابلس تحت الحكم العثماني، حيث قسّم العثمانيون فلسطين إلى ستة سناجق هي صفد وجنين والقدس وغزة وعجلون ونابلس، وكانت تتبع للوالي العثماني في دمشق، وكان سنجق نابلس مقسماً إلى خمس نواحٍ.

أمّا آل جرّار أو بيت الجرّار –حسب بعض المصادر- فهم من الشقران الذين ينتمون إلى قبيلة الأزد الغسّانية(*)، وكانوا يقيمون في القسطل من أرض البلقاء، وكان شيخهم يدعى الشيخ زبن، وكان لهم فيها نفوذ كبير وكثرة عدد إلى سنة ١٦٦٩ عندما وقعت ثورة في الكرك ضدّ العثمانيين، فامتدت الثورة إلى القسطل والبلقاء، وآزر آل جرّار أهل الكرك في ثورتهم، وفي هذه الأثناء كانت بعض الثورات قد نشبت في نابلس – منذ سنة ١٦٥٧م ضدّ العثمانيين، فقام العثمانيون بنقل مجموعة من الأسر العربيّة من شرق الأردن ومن سوريا

---

(١) حققه الدكتور علي أبو زيد وآخرون، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، ط١، ١٩٩٨، الجزء الثاني، ص ٥٨.

(*) مصطفى مراد الدباغ، القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٦٦، إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، الجزء الأول- حوادث عهد الإقطاع، مطبعة ابن زيدون، دمشق، ١٩٣٨، ص ١٣٠- ١٣١.

إلى نابلس لدعم السلطة العثمانية هناك، فانتقل آل جرّار مع شيخهم زبن إلى مرج ابن عامر. ومقابل هذه الخدمات منحت هذه العائلات أراضي زراعية حول القرى في جبل نابلس. وحتى لا تشكّل هذه العائلات قوّة جديدة موحّدة في نابلس، فقد قامت السلطات العثمانية بتوزيعها في أماكن متباعدة، وكان من بين هذه العائلات عائلة النمر التي جاءت من حمص أو حماة وعائلتا عبد الهادي وجرّار اللتان جاءتا من البلقاء، وعائلة طوقان التي جاءت من شمال سوريا، ووفقاً لترتيبات اتخذت سنة ١٧٢٣ فقد أسند إلى آل طوقان وآل النمر الإشراف على التجارة في نابلس، بينما أسند إلى آل جرّار زعامة ناحية جبل نابلس[١]. وكان جبل نابلس في ذلك الوقت يمتد شمالاً من طبرية إلى سواحل البحر المتوسط، وشرقاً إلى الغور ونهر الأردن من طبرية حتى أريحا، وغرباً من حيفا إلى يافا، وجنوباً إلى حدود سنجق القدس عند قرى سلواد واللبن ورنتيس[**] لكنّ هذه الحدود ظلّت عرضة للتغيير حسب المتغيّرات الإدارية والسياسية والحربيّة.

وكان انتقال عائلة جرّار من منطقة البلقاء إلى مرج ابن عامر في منطقة اللجّون بحدود ١٦٦٩- ١٦٧٠، وقد ارتكزت قوتهم الاقتصادية على مدّ نفوذهم إلى سنجق جنين مع نهاية القرن الثامن عشر، أمّا قوتهم السياسية فاعتمدت على وجود ميليشيا مسلحة لهم من الفلاحين وامتلاكهم للحصن المنيع في صانور ممّا جعلهم يسيطرون على المدخل الشمالي لمدينة نابلس، وتولوا الزعامة في جنين ونابلس لفترة طويلة[٢].

ولستُ أستبعد أن يكون لآل جرّار وجودٌ سابق على عام ١٦٧٠م في فلسطين، فقد ورد اسم علاء الدين بك جرّار في الوثيقة رقم ١٠٣٤/٢٥٦ من وثائق محكمة القدس الشرعية، والوثيقة مؤرخة في ١٦ رمضان ٩٣٧هـ (٤/٥/١٥٣١م)[٣]. فقد كانت حركة الأفراد بين الولايات والسناجق العثمانية حرّة، وكانت القدس قبلة لمن يشاء، وربما يكون بعض أفراد آل جرّار قد سكنوا القدس في وقت مبكر. وكان في القدس أيضاً أشخاص ينتمون إلى عائلة جرّار ولكنهم من المغاربة كما ورد في بعض الوثائق.

ويذكر الأمير حيدر الشهابي في كتابه "الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان" بأنّ آل جرّار عائلة وافرة أصلها من البلقاء وأنهم نزلوا عرّابة وانتقلوا إلى صانور"[٤].

---

(١) بشارة دوماني، إعادة اكتشاف فلسطين: أهالي جبل نابلس ١٧٠٠- ١٩٠٠، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ١٩٩٨ (ترجمة حسني زينة(ص ٤٦- ٤٩)، الكزاندر شولش، تحوّلات جذرية في فلسطين، ترجمة د. كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمّان، ١٩٩٣، ص ٢٤٧، محمد عزة دروزة، العرب والعروبة في حقبة التقلب التركي، المطبعة العصرية، صيدا، ١٩٨١، ج ٥، ص ١٠٨، إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، الجزء الأول: حوادث عهد الإقطاع، مطبعة ابن زيدون، دمشق، ١٩٣٨، ص ٨٤- ٨٦.

(**) انظر مصطفى العبّاسي، تاريخ آل طوقان في جبل نابلس، مطبعة دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر، شفا عمرو، ١٩٩٠، ص ١٩.

(٢) بشارة دوماني، ص ٥٠، إحسان النمر، ١: ٢٠٢- ٢٠٥، محمد عزة دروزة، العرب والعروبة، ج٥، ص ١٠٨- ١٠٩.

(٣) سجل محكمة القدس الشرعية، فهرسة تحليلية، قيود الوثائق والحُجج الشرعية الصادرة من محكمة القدس الشرعية، إعداد عبلة سعيد المهتدي، إشراف أ.د. محمد عدنان البخيت،ج١، ٢٠٠٩، ص ٤٨٣.

(٤) حيدر الشهابي، الغرر الحسان، ٣: ٨٠٠- ٨٠١، ٨١١.

مصطفى مراد الدباغ، بلاد فلسطين، الجزء الثالث- القسم الثاني، في الديار النابلسية، مطبوعات رابطة الجامعيين بمحافظة الخليل، ط٢، ١٩٨٥/ ج٢، ص١١٧.

ويقول عيسى إسكندر معلوف "إن بني الجرّار من أنسباء بني عبد الهادي ينتسبون إلى عرب الشقران"[١].

وقد أطلق على القرى التي بسط آل جرّار سيادتهم عليها اسم "مشاريق الجرّار" لوقوعها بشكل عام في الشمال الشرقي من الديار النابلسية، وتبلغ نحو عشرين قرية هي صانور وجبع والزاوية وجربا وميثلون وسيريس والجديدة والفندقومية وعنزة وصير والكفير وتلفيت ومسلية وقباطية وعين نينة والجنزور والزبابدة والمغيّر وأمّ التوت وراب[٢]، ويضيف كوندر وكيتشنر في كتابهما The Survey of Western Palestine (ج٢ ص ١٥٥- ١٥٨) عصيرة الحطب ومركة وياصيد إلى مشاريق الجرّار. بينما تنتشر عائلة جرّار في برقين والبارد (الهاشمية) وكفرقود وصانور وجبع والفندقومية وميثلون وعرّابة والجديدة وعكا وحيفا ومدينة جنين[٣]، وقرى أخرى.

وكانت صانور كرسيّ آل جرّار، وكذلك أصبحت جبع، في بعض الفترات، وقد شهدت صانور أحداثاً تاريخية كثيرة، وتعرّضت لعشرات الهجمات والحصارات من اللبنانيين والمصريين والعثمانيين والفرنسيّين والمتاولة والدروز وولاة عكا ودمشق وغيرهم، وذلك لأنها كانت -بحكم موقعها ومنعتها- تقف حائلاً دون مرور الغزوات التي تأتي من الشمال باتجاه نابلس والقدس، وكان لآل جرّار مكانة سياسية من خلال اتخاذ هذه القلعة معقلاً لهم، ومن خلال المناصب التي أسندت إليهم، ومن خلال تحالفاتهم المختلفة مع القوى المعروفة في لبنان ودمشق وعكا ونابلس والقبائل المختلفة في فلسطين وشرق الأردنّ.

ويقول محمد عزّة دروزة في كتابه "العرب والعروبة في حقبة التغلّب التركي" في حديثه عن آل جرّار وانتشارهم في مرج ابن عامر وجنين ونابلس: "وفي ذلك دلالة على ما كانوا عليه من قوة

بأس منذ الأصل برزوا بفضلها في مجال الزعامة والإمـــارة بعد حلولهم في مرج ابن عامر، ثمّ استمروا متّصفين بذلك في سيرتهم" ويقول في خاتمة حديثه عنهم:"فالواضح أنّ بني جرّار كانوا من الأسر البارزة القويّة في جبل نابلس، وكانت لهم عصبيّة قبليّة، فكان سندهم في بروزهم في مجال الحكم الزعامة المحليّة. وأنهم شغلوا حيّزاً كبيراً من أحداث هذا الجبل الإقطاعية منذ أواخر القرن الحادي عشر إلى أواخر القرن الثالث عشر"[٤].

وفي أصل بيت الجرّار يقول الأمير حيدر أحمد الشهابي في كتابه "الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان" في الحديث عن صانور وأصل بيت الجرّار:

"وهم المشايخ بيت الجرّار القاطنين في قلعة سانور وبعض قرايا، وهم عيلة وافرة، وأصلهم من بلاد البلقة قبل حضورهم إلى جبل نابلوس، والجدّ الأوّل ابتداء حضورهم سكن في قرية عرّابة، ثمّ تفرّقوا في القرايا، ثمّ انتقلوا إلى سانور. وجدّ الموجودين الآن يقال له الشيخ محمّد، وعمَّر الداثر من قرية سانور وجعلها كهيئة قلعة، وحصّنها، وهو الذي حاصره

---

(١) مجلة الآثار لمؤسسها عيسى إسكندر المعلوف، السنة الرابعة، كانون الثاني ١٩٢٧، زحلة – لبنان، ج١ ص ٤٧، مصطفى مراد الدباغ، مصدر سابق ص ١١٧.

(٢) الدباغ ٢: ١١٧- ١٤٧ (الجزء الثالث- القسم الثاني- في الديار النابلسية).

(٣) نفسه ص ١٢٦.

(٤) محمد عزة دروزة، العرب والعروبة في حقبة التغّلب التركي، ج٥، ص ١٠٩، ص ١٢٩.

عثمان باشا الكرجي والي الشام في سنة ١١٧٨، وحضر الأمير يوسف الشهابي صحبة عثمان باشا المذكور. وبعد حصار تلك القلعة مدّةً ولم يقدر عثمان باشا على تملّكها، فارتحل عنها ورجع إلى الشام، وكان قد زاد عمارها الشيخ يوسف الجرّار وبنى بها سرايا وكتب تاريخاً على البوّابة وهو هذا التاريخ: أي أنّه في سنة ١٢٠٩هـ"[١].

كـن رزينـاً إذا أتتْـك الرزايـا وصـبوراً إذا أتتْـك مصـيبة

فالليـالي مـن الزمـان حبـالى مـثقلاتٌ يلـدن كـلَّ عجيبـة

ويُفهم من قوله إنّ الشيخ محمد الجرّار عمّر الداثر من قرية صانور، أن صانور كانت موجودة قبل أن ينزل بها بيت الجرّار وكانت بها آثار داثرة، وأنها كانت غير مأهولة.

وفي حديثه عن عشائر نابلس يقول صاحب المرآة الوضيّة "وأكثر أهل تلك البلاد من المسلمين، وفيها من كبراء العشائر بنو الجرّار وبنو طوقان، وهم مشايخ تلك البلاد وولاة أمورها"[٢].

وفي دليل ماكملان لفلسطين ومصر الصادر سنة ١٩٠١ يتحدث عن قلعة صانور ويقول إنها معقل قومٍ من نبلاء بلاد الشام العظام في أوائل القرن التاسع عشر[٣].

وكانت الدولة العثمانية وولاتُها في دمشق وصيدا وبيروت يرسلون إلى شيوخ آل جرّار في أثناء عملهم متسلّمين لنابلس وجنين من أجل تزويدهم بالإمدادات العسكرية للسير في الحملات العسكرية التي تقوم بها الدولة في أماكن شتى من البلاد(*).

وبسبب الدور السياسيّ الذي لعبته قلعة صانور منذ أن نزل بها آل جرّار في أواخر القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر، فقد تعرّضت هذه القلعة لعددٍ كبير من الهجمات والحصارات، ممّا جعل منها ميدان معارك وحروب لعقود طويلة من الزمن.

هجوم ظاهر العمر سنة ١٧٣٥:

كان ظاهر العمر حاكماً لطبريّا والجليل وعكا وقد تمرّد على الحكم العثماني، وحاول مدّ نفوذه إلى الناصرة ومرج ابن عامر وحيفا ومدن الساحل الفلسطيني التي كانت تحت نفوذ إبراهيم الجرّار، وقام بطرد ولاة النوابلسيّة من الطيرة والطنطورة ورتّب فيها ولاةً من عنده، ويقول ميخائيل الصباغ في كتابه "تاريخ ظاهر العمر" وكان معاصراً لتلك الحقبة "وكانت

---

(١) الأمير حيدر أحمد الشهابي، كتاب الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان، عني بضبطه ونشره الدكتور أسد رستم والدكتور فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٩، ٣: ٨٠٠- ٨٠١، ٨١١، وانظر أيضاً: ميخائيل الدمشقي، تاريخ حوادث جرت بالشام وسواحل برّ الشام والجبل (١٧٨٢- ١٨٤١)، دراسة وتحقيق محمد عبد الكريم محافظة، دار ورد للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٤، ص ٢٠٥- ٢٠٦.

(٢) كرنيليوس فنديك الأميركاني، كتاب المرآة الوضيّة في الكرة الأرضيّة (ألفه سنة ١٨٥٢) ط٢، بيروت، ١٨٧٠، ص ٢١١.

(٣) McMillan, Guide to Palestine and Egypt, London, 1901, P. 75

(*) انظر مثالاً على ذلك في كتاب تاريخ حوادث جرت بالشام، ميخائيل الدمشقي، ص ٢٢٦، وصفحات عديدة في كتاب غرائب البدائع لحسن بن الصدّيق، أعلام فلسطين لعادل منّاع ص ٧٧.

مشايخ جبل نابلس يرجع أمرهم إلى أميرهم المتولّي قلعة سانور وهم من بيت الجرّار، وبيت الجرّار يرجع أمرهم إلى بيت قديم""[1]. ويتابع قائلاً:" فلمّا بلغ أمير النوابلسيّة إبراهيم الجرّار ذلك، وكذلك الشيخ ابن ماضي غضبوا جدّاً لذلك، وقصدوا يجرّدوا على ظاهر، فتشاوروا بينهم في ذلك، فاعتمدوا أنهم يكاتبوا رشيد الجبر أمير عرب الصقر ليسلخوه من ظاهر ويكون معهم.... فأجابهم" [2].

ونتيجة لذلك وقعت مواجهة بين قوات ظاهر العمر وقوات النوابلسيّة عرفت بمعركة الروحة قرب قرية المنسي جنوب شرق حيفا سنة ١٧٣٥، يقول ميخائيل الصبّاغ إنّها انتهت بهزيمة النوابلسيّة وقتل أميرهم إبراهيم الجرّار والشيخ ابن ماضي، ثمّ تبعتهم قوّات ظاهر إلى نابلس "وصعد الجبل إلى أن بلغ قلّته حيث قلعة سانور، وكان محمد الجرّار بن إبراهيم الجرّار أغلق أبواب قلعته حين بلغه ما جرى بأبيه، فنزل عليها وحاصره، فلما رأى ظاهر منعة القلعة وأنه يقتضي لها زمنٌ طويل لحصارها، فتركها ووضع يده على جميع بلادهم الساحلية، وترك حصار القلعة ورجع لعكا"[3].

ثمّ جرى الصلح بين محمد الجرّار وظاهر العمر على أن لا أحد منهم يعتدي على أحد في الناصرة، وأن المرج وحيفا والطيرة والطنطورة الذي أخذه منهم ظاهر العمر قبل الحرب يتنازلون له عنها، وأن يترك لابن جرّار البلاد الساحلية التي تواجه جبل نابلس، وأن يدفعوا لظاهر العمر خمسمائة كيس[4].

وبعد عزل سليمان باشا عن ولاية الشام سنة ١٧٣٨ وتولّي ابن أخيه أسعد باشا العظم استغل ظاهر الفرصة وسيطر على الساحل بين عكا وعتليت وامتد نفوذه حتى عجلون وحوران والسلط، فتجددت الحرب بينه وبين مشايخ جبل نابلس[5].

وقد قام ظاهر العمر منذ هذا التاريخ وحتى سنة ١٧٧١م بمحاصرة قلعة صانور عدة مرات وحاول اقتحامها، مستعيناً تارة بالمتاولة وتارة بالمصريّين بقيادة علي بك الكبير، لكنّ محاولاته جميعاً قد أخفقت[6].

حصار عثمان باشا الصادق الكرجي والي الشام لصانور سنة ١١٧٨هـ/ ١٧٦٤م في زمن الشيخ محمد الجرّار:

وفي سنة ١٧٦٤ حاصر عثمان باشا والي الشام قلعة صانور، وقد استنجد هذا الوالي على حصارها بالأمير يوسف بن ملحم الشهابي حاكم لبنان، فتوجه الأمير بجيش من جبل الشوف وتوابعه، والتقى بعثمان باشا في الطريق، وسارا معاً وحاصرا القلعة زمناً طويلاً،

---

(١) ميخائيل الصبّاغ، تاريخ ظاهر العمر، مخطوط بالجامعة الأردنية، ص ١٧.
(٢) نفسه ص ١٥.
(٣) نفسه ١٦- ١٧.
(٤) نفسه ١٨.
(٥) ظاهر العمر وحكام جبل نابلس (١٧٧١- ١٧٧٣) مخطوطة بقلم إبراهيم الدنفي السامري، تحقيق موسى أبو ديّة (التمهيد ص ١٧- ١٨).
(٦) ينظر صفحات متفرقة في كتاب ميخائيل الصبّاغ، تاريخ ظاهر العمر، وكتاب غرائب البدائع لمؤلفه حسن الشهير بابن صدّيق.

لكنّهما لم يتمكنا من الاستيلاء عليها و عادا مخذولين، وقيل إنّ السبب في عدم استيلاء عثمان باشا على القلعة هو تقاعس الأمير يوسف عن القتال والحصار لأنّه قيسي، وآل جرّار أصحاب القلعة قيسيون مثله، فمن ثمّ لم يحمل جيشه حملةً صادقة في القتال[1].

وكان السبب في هجوم عثمان باشا على صانور أن جبل نابلس ظلّ على تأييده لمحمد باشا العظم الوالي السابق للشام الذي غصب عثمان باشا الولاية منه، وقام آل جرّار وآل النمر بالاتفاق مع ظاهر العمر ضدّ عثمان باشا الكرجي.

حصار ظاهر العمر والمصريين لصانور سنة ١١٨٥هـ/ ١٧٧١م:

وعندما ثار علي بك الكبير ضدّ الحكم العثماني في مصر، واحتلّ غزة، لم يستطع محمد الجرّار مساعدة والي دمشق عثمان باشا، بعد أن كان حمدان الجرّار شقيق الشيخ محمد الجرّار وعد عثمان باشا أن يجمع له عشرة آلاف مقاتل من جنين ونابلس، لكنه واجه معارضة من أهالي جبل نابلس تحوّلت إلى تمرّد، هدم على إثره بيت محمد الجرّار في نابلس واضطر للعودة إلى حصنه في صانور، وفي هذه الأثناء استولى مصطفى بك طوقان على نابلس. وقد استعان ظاهر العمر بعلي بك الكبير، وتقدّما نحو نابلس، وفرضا حصاراً على صانور، وذلك في ١٥ محرم سنة ١١٨٥هـ[2].

وقد ذهب الشيخ حمدان الجرّار شقيق الشيخ محمد الجرّار إلى عثمان باشا والي الشام يستأذنه في أن ينضمّ للمصريين وظاهر العمر تجنباً لما قد يلحق صانور من الضرر، وخاصة أنه مضى أكثر من سنة على حصارها، وأن أحداً من الشام لم يأت لمساعدتها.

وكانت النتيجة أن آل جرّار تحالفوا مع ظاهر العمر، واستعانوا به على خصمهم مصطفى بك طوقان، وفسحوا المجال لقواته للمرور عبر أراضيهم، من دون عقبات، يوم سارت لمحاصرة نابلس.

ولمّا عزل عثمان باشا سنة ١٧٧١ سرّ آل جرّار كثيراً لذلك، فذهب خليل ويوسف ابنا الشيخ محمد الجرّار إلى الشام لتهنئة الوالي الجديد محمد باشا العظم بولاية الشام[3].

وكان ممّا فعله محمد باشا أنّه جعل البرّ ثلاثة أثلاث وقسمه بين أبناء الجرّار: ثلث للشيخ يوسف الجرّار، وثلث للشيخ حمدان جرّار، وثلث للشيخ خليل جرّار، وأعطى متسلميّة نابلس لمصطفى بيك بن طوقان[4].

---

(١) الأمير حيدر الشهابي ت ١٨٣٥ه، كتاب تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي وعنوانه: الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان، عني بضبطه الدكتور أسد رستم والدكتور فؤاد أفرام البستاني، بيروت ١٩٦٩، القسم الأول، ص ٦٣-...، الشيخ طنّوس الشدياق (١٨٥٩)، كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، نظر فيه ووضع مقدمته الدكتور فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٧٠، ج٢ ص ٣٢٦، إبراهيم العورة، تاريخ ولاية سليمان باشا، مطبعة دير المخلص، صيدا، ١٩٣٦، ص٤.

(٢) حسن ابن الصدّيق، غرائب البدائع وعجائب الوقائع، قام بدراسته وتحقيقه الدكتور يوسف نعيسة، دار المعرفة، دمشق، ١٩٨٨، ص ١٧-١٨.

(٣) ابن الصدّيق، غرائب البدائع وعجائب الوقائع، ص ٧٨.

(٤) نفسه ص ٨٣.

وقد غضب آل جرّار لأن متسلميّة نابلس خرجت من أيديهم فتشاوروا في ما بينهم، فقرر الشيخ يوسف والشيخ حمدان[١] الاستعانة بظاهر العمر، أمّا خليل، وهو الأخ الصغير ليوسف، فقد رفض ذلك، وظلّ في هوى ابن طوقان، فتلقاهما ظاهر العمر بالإكرام[٢]، واتفقا معه على طرد مصطفى طوقان من نابلس، والتحالف مع المصاروة[٣]. وقد اتفق آل جرّار وآل النمر على أن يكون الشيخ يوسف الجرّار متسلماً لنابلس مكان مصطفى طوقان الذي فرّ من نابلس بعد تحالف الشيخ يوسف وإبراهيم النمر مع ظاهر العمر، فأصبح الشيخ يوسف متسلماً لجنين ونابلس[٤].

حصارات أحمد باشا الجزّار لصانور:

ورد في كتاب المرآة الوضيّة في الكرة الأرضية في الحديث عن صانور: "وسانور ذات القلعة المشهورة، وهي قلعة متينةٌ على جبلٍ لا يُسْلكُ عليها إلاّ من مضيقٍ حرج، عصى فيها الشيخ يوسف الجرّار في أيام أحمد باشا الجزّار، وحاصره فيها مراراً عديدة، وهلك من عساكره خلقٌ كثير، ولم يقدر عليه، وما زالت هذه القلعة نصب عينه ينتهز الفرصة عليها حتى مات سنة ١٢١٩ للهجرة"[٥].

ومنذ أن عيّن أحمد باشا الجزّار والياً على عكا سنة ١٧٧٥م قام بعدة محاولات لاقتحام صانور، إلاّ أنّها باءت كلها بالفشل، وكان زعيمها في أثناء ذلك الشيخ يوسف بن الشيخ محمد الجرّار[٦]، وهو المشهور بلقب "سلطان البرّ"[٧]، ووصفه نوفل بن نعمة الله الطرابلسي بأنه مشهور بفرط شجاعته وأنه يشبه أحمد باشا الجزّار إلى حدّ كبير ولا يختلف عنه إلاّ قليلاً[٨].

أمّا المحاولة الأولى فكانت سنة ١٧٩٠م، وذلك أنه في هذه السنة حضر عند الجزّار مشايخ جبل نابلس وبلاد حارثة فلبّسهم الخلع على حكومة بلاد هم حسب عوائدهم. وأمّا الشيخ يوسف الجرّار متسلّم جنين فإنّه لم يحضر معهم وبدلاً من ذلك أرسل الهدايا للجزّار حسب المعتاد له من ولاة الشام، فلم يقبل الجزّار ذلك وأمره بالحضور، فرفض يوسف الجرّار، فجهز عليه الجزّار عسكراً من خمسة آلاف(*) مقاتل لمحاربته، فتحصن يوسف

---

(١) الشيخ حمدان هو عمّ يوسف وخليل (نفسه ص٨٩)، وشقيق محمد الجرّار وأحمد الجرّار أبناء إبراهيم.

(٢) نفسه ص ٨٣.

(٣) نفسه ص ٨٩.

(٤) محمد عزة دروزة، العرب والعروبة، ص ١١١.

(٥) كرنيليوس فنديك الأميركاني، المرآة الوضيّة في الكرة الأرضية (ألفه سنة ١٨٥٢)، ط٢، بيروت، ١٨٧٠، ص ٢١٠.

(٦) نوفل بن نعمة الله بن جرجس الطرابلسي، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبرّ الشام، قدم له وحققه ميشال أبي فاضل، ص ٢١٥، الأمير حيدر الشهابي، الغرر الحسان، ٣: ٨١١.

(٧) تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني لعادل منّاع، ص ٨٤.

(٨) نوفل بن نعمة الله الطرابلسي، كشف اللثام (مخطوط) ص ٢٥٣.

(*) في بعض الروايات أن عساكر الجزار التي حاصرت صانور قدّرت بأربعة عشر ألف جندي، وأن عدد المحاربين داخل صانور كانوا أقلّ من ألف مقاتل (تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني لعادل منّاع، ص ٨٤).

الجزّار داخل قلعة سانور، فحاصره الجزّار فيها خمسين يوماً وهو يقصفها بالمدافع والقنابل، إلاّ أن القلعة كانت حصينة جدّاً وذهب الجزّار إليها بنفسه ومعه العساكر، فلم يظفر منها بطائل، واضطر للانسحاب متذرّعاً بقرب أوان قيام الحجّ في تلك السنة(١).

ويذكر ميخائيل الدمشقي في كتابه "تاريخ حوادث جرت بالشام وسواحل برّ الشام والجبل (١٧٨٢- ١٨٤١) أنّه بعد هزيمة الجزّار في هذه المعركة أخذ أهالي جبل نابلس يتطاولون عليه ويشتمونه، فحاول احتلال القلعة ثانية فلم يتمكن من أخذها، فأخذ ينتقم من القرى والمزارع، وقد جاء ذلك متزامناً مع ثورة الدروز عليه في جبل لبنان(٢).

وبعد هذه الاعتداءات على صانور توجه يوسف الجرّار إلى والي الشام عثمان باشا وأخبره بما فعله الجزّار، فأكدّ عثمان باشا دعمه للشيخ يوسف الجرّار(٣).

وأمّا المحاولة الثانية فكانت في سنة ١٧٩٤، يقول حيدر الشهابي في كتابه" تاريخ أحمد باشا الجزّار" في حوادث سنة ١٧٩٥/ ١٢٠٩هـ(٤):

"والوزير أحمد باشا الجزّار رفع الحرب عن يوسف الجرّار حاكم قلعة سانور بقرب جبل نابلس، واعلم أنّ الجزّار صار له مقدار خمسة أو ست سنوات محاصراً يوسف الجرّار في هذه القلعة ولم يقدر عليه، وفي كلّ سنة لا بدّ أن يصير مرتين ثلاث حرب بينهما، وفي كلّ مرّة ينكسر عسكر الجزّار ويُقتل منه جانب، وقد أنفق أموالاً لا تقدّر على فتح هذه القلعة وذهبت سُدى. ومرّات عديدة كانت تخرج الرجال من الحصار ويحاربون عسكر الجزّار فيكسروه أحياناً في الليل وأحياناً في النهار. وقد أفرغ كلّ جهده ولم يستفد شيئاً.

وفي أحد الأوقات أحضر معلّمين وبدأ يقطع حجاراً ويعمّر قلعةً قدّام القلعة المذكورة. وإذ ارتفع العمار خرجت رجال الجرّار قبل طلوع النهار وهجمت على عسكر الجزّار فقتلوا منه جملة أنفار والباقون ولّوا الأدبار فتبعوهم على الآثار فلم يبقوا منهم من ينفخ النار، ولم يفلت إلا النشيطين الشّطار وطويلو الأعمار. ورجعوا فهدموا العمار وأخذوا الحجار وكسبوا الأذخار (الذخائر) وقهروا الجزّار.

وفي وقتٍ آخر أمر الوزير الجزّار أن يفتحوا لغماً تحت الأرض وجمع معلّمين كثيرين وفعالة وآلات وبدأوا في الحفر. وكان لما قربوا من القلعة أمر يوسف الجرّار البعض من أتباعه أن يبعدوا مقدار رمية سهم عن القلعة ويبدأوا يدقوا هناك بمطارق وآلات حديدية ليلاً ونهاراً، وإذ بلغ المعلّمون في الحفر إلى هذا المكان وسمعوا ارتجاج الأرض من فوقهم توهموا أنهم بلغوا إلى تحت القلعة فبطلوا الحفر، وبعد ذلك وضعوا في المكان باروداً جزيلاً لكي يطلع البارود فيخرب القلعة، ثمّ ألقوا به النار فاشتعل وارتجت الأرض منه فحمل قطعاً من الصخور والحجارة العظام ووقعت بين عسكر الدولة فقتلت منهم كثيرين. أما القلعة فلم تتأذى كليّاً كونها مبنيّة على صخر واللغم بعيدٌ عنها، وإذ تمّ ذلك فكثيرون من العسكر هربوا

---

(١) الأمير حيدر أحمد شهاب، تاريخ أحمد باشا الجزّار، نشره ووضع مقدّمته الأب أنطونيوس شبلي والأب أغناطيوس عبده خليفة، مكتبة انطوان، ص ١٠٢، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٨

(٢) ميخائيل الدمشقي، تاريخ حوادث جرت بالشام وسواحل برّ الشام والجبل (١٧٨٢- ١٨٤١)، دراسة وتحقيق محمد عبد الكريم محافظة، دار ورد للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٤، ص ٢٠٥- ٢٠٧.

(٣) عبود الصباغ، الروض الزاهر في تاريخ ضاهر، مخطوط بالجامعة الأردنية، ورقة ٢٨.

(٤) ص ٤٤٦- ٤٤٨، وانظر أيضاً الدكتور ميخائيل مشاقة، الجواب على اقتراح الأحباب، تحقيق الدكتور أسد رستم وصبحي أبو شقرا، وزارة التربية الوطنية، مديرية الآثار، لبنان، بيروت، ١٩٥٥، ص١٥.

ثمّ أخبروا الوزير بما كان فأرسل وأخذ بعض المعلّمين وأمر بقتلهم في عكا. والذين بقيوا من العسكر في سانور خرجت إليهم الرجال من القلعة فقتلوا بعضهم والباقون انهزموا وكان إذا خرج الرجال إلى عسكر الجزّار وغلبوهُ وهزموهُ يُدخلون جميع ما يكسبونه منهم إلى القلعة مثل بارود ورصاص ومدافع وكلل ومغلّ (أغلال) وغيره ويتقون به.

وإذ حضر عبد الله باشا إلى الشام رفع الجزّار قارشهُ عن جبل نابلوس لأنه تبع حكم الشام. وأرسل الجزّار إلى الوزير عبد الله باشا تقادم و هدايا ومال ميرة بحسب العادة. و هو أرسل له الخلاع وطيّب خاطره".

وفي هذه السنة زالت ولاية الشام عن أحمد باشا الجزّار وتولاّها عبد الله باشا العظم، فقدم له الشيخ يوسف الجرّار التقادم الفاخرة، ودفع له الأموال السلطانية المعتادة، فأرسل له خلعة الولاية على جبل نابلس، ولم يعد سبيل للجزّار إليه[١].

ويقول نوفل بن نعمة الله بن جرجس الطرابلسي في كتابه "كشف اللثام" عن تعيين يوسف الجرّار متسلّماً لنابلس سنة ١٧٩٥[٢]:

"وأحال كذلك محافظة جهة نابلوس إلى ابن الجرّار المشهور بفرط الشجاعة في تلك الجهات، ولا يفرق عن الجزّار إلاّ قليلاً. وعلى إثر ذلك اضطر الجزّار لمصالحة آل الجرّار لكنّ شيخهم الحاج يوسف بقي حذراً من غدره طوال حياته إلى أن مات[٣].

وفي سنة ١٨٠٢ حاصر الجزّار قلعة صانور مرّة أخرى وجرت بين الجزّار والجرّار حروب كثيرة، تلف فيها من عسكر الجزّار كثرة لا تحصى[٤] واستمر الحصار سنة ١٨٠٣، وكان سبب ذلك أن يوسف الجرّار ساعد أبا المرق في ثورته على الجزّار في يافا، فبعد أن استولى الجزّار على يافا حاصرت جنوده قلعة صانور، وحصلت بين الفريقين محاربات شديدة أضاعا بها نفوساً كثيرة[٥]. ويقول الشهابي في كتاب "الغرر الحسان" إنّه وقعت بينهم جملة شرور وعسكر نابلوس يكسب على عسكر الجزّار[٦].

وفي سنة ١٨٠٤م/ ١٢١٩هـ توفي أحمد باشا الجزّار في مدينة عكّا "فلم يَبْقَ شاعرٌ إلاّ وفرح بوفاته"[٧] ، وبذلك يقول حيدر الشهابي من شعر[٨]:

قد فرحت الأقطار يوم هلاكه	وتهلّلت فيه الملائك والبَشَرْ
وخاصّة آل الدروز ويوسف الجرّار	مع كلّ القبائل والزُّمَرْ

(١) حيدر الشهابي، تاريخ أحمد باشا الجزّار، ص ٤٤٦.
(٢) كشف اللثام، (المطبوع) ص ٢٣٨، نفسه مخطوط ٢٥٣.
(٣) ميخائيل الدمشقي، تاريخ حوادث جرت بالشام، (ط) ، ص ٢٠٧.
(٤) حيدر الشهابي، أحمد باشا الجزّار (مخطوط بالجامعة الأردنية) ص ٩٢، كشف اللثام، (ط)، ص ٢٤٢.
(٥) حيدر الشهابي، تاريخ أحمد باشا الجزّار، (ط) ص ٤٩٩، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والحكام، ص ٢٤٢.
(٦) الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان، ٢: ٣٧٠، إلياس مطر، العقود الدرية في تاريخ المملكة السورية، مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٧٤، ص ١٦٠.
(٧) حيدر الشهابي، تاريخ أحمد باشا الجزّار، ص ٥١٢.
(٨) نفسه ص ٥١٣.

ويقول نعمان أفندي قساطلي في كتابه "الروضة الغنّاء في دمشق الفيحاء"[١]:

"وكان الجزّار ظلوماً عاتياً متقلباً سفّاكاً للدماء، بلاّصاً للعباد، قاسياً، وقد فاز بشهرة كليّة، وخشيه الناس لشرّه وجوره،..... وكان لا يسمع للدولة العثمانية، ولا يطيع أوامرها، وقد فرح الناس لموته كلّ الفرح، فقال الشيخ مصطفى الرومي مؤرّخاً:

هلــــك الجـــــزّار ولا عجـــبٌ	ومضـــــى بــــالخزي وبــــالإثم
وبميتتـــــــه البـــــاري عنّــــا	أرّخ قـــد كـــفّ يـــد الظلـــم"

ويقول الشهابي عن الجزّار: "ولم يَبْقَ في خاطره أمرٌ إلاّ وبلغ إليه، عدا شيء واحد لم يقدر عليه، وهو امتلاك قلعة سانور وضابطها يوسف الجرّار، مع أنّه أنفق في ذلك مالاً جزيل المقدار، فالعزّ لله وحده، وهو الواحد القهّار"[٢].

وذكرت المصادر أنّ الجزّار كان في بداية أمره حلاّقاً أصله من بلاد البشناق وأنه ولد سنة ١٧٢٢ من أمّ يهودية تدعى زينة[٣].

وبعد وفاة الجزّار توجّهت إيالة صيدا والشام وطرابلس وإمارة الحجّ إلى إبراهيم باشا والي حلب شقيق سليمان باشا، ثمّ حضر يوسف الجرّار صاحب قلعة سانور فقلّده إبراهيم باشا أحكام جبل نابلس حسب عادته[٤].

يوسف الجرّار وغزوة نابليون سنة ١٧٩٩:

يقول الأمير حيدر الشهابي في كتابه "تاريخ أحمد باشا الجزّار"[٥]:

إنّ الفرنسيين أثناء نزولهم على عكا "أقبل عليهم عسكرٌ من الشام ومن قبائل العرب ومن نابلس كان مجموعه مقدار ثلاثين ألفاً". وتتحدث المصادر عن المواجهة التي وقعت بين قوات نابليون بقيادة كليبر وبين هذا الجيش، ممّا ألحق خسائر كبيرة في قوات نابليون وأوقف تقدّمها.

وقد أورد إحسان النمر في كتابه تاريخ جبل نابلس والبلقاء[٦] قصيدة على لسان أحمد باشا الجزّار يستنجد فيها بالشيخ يوسف الجرّار على الغزو الفرنسي لعكا، ويطلب منه أن ينسى العداوات التي كانت بينهما، ومن أبياتها:

---

(١) نعمان أفندي قساطلي، كتاب الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، ط بيروت ١٨٧٩، ص ٨٤- ٨٥.
(٢) حيدر الشهابي، تاريخ أحمد باشا الجزّار، ص ٥١٢.
(٣) نفسه ص ٥١٣.
(٤) نعمان أفندي قساطلي، كتاب الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، ط بيروت ١٨٧٩، ص ٨٤- ٨٥.
(٥) ٢: ٤٦٣.
(٦) انظر بشارة دوماني: إعادة اكتشاف فلسطين/ أهالي جبل نابلس ١٧٠٠- ١٩٠٠، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ترجمة حسني زينة، ص ٢٧- ٣٢، إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، مطبعة النصر، نابلس ١٩٦١، ج٢ ص ٢٧- ٢٩.

على ما يقول المجاهد الذي فاض ما بو   بدمعٍ جرى منّي على الوجنات

....

ويا غادياً منّي على صيدحيّة   تجدّ السّرى لا تأمن السروات

تهدي هداك الله خُذ لي رسالتي   مرقومة بالخطّ من العبرات

اقطع بها مرج ابن عامر وقبّل   تلفي على بلادٍ بها نخوات

تلفي على جنين مع رايق الضحى   تلقى بها علالي وقصور مبنيّات

طق لها بالسرع لا تامن الونا   قبّل على صانور فيها وبات

تلقى بها سبع الفلا سيد الملا   لسنين الغلا صيتو علينا فات

قل له لا تحفظ الزلّات يا طالب الثنا   مضى الذي مضى زمانه وفات

......

اجتنا الفرنساوي شبه الجراد والحصى   سلاطين سبعة من سبع كرات

......

فكتب الشيخ يوسف قصيدة يستنهض بها أمراء جبل نابلس منها:

قال أبو داود من فؤاد مغرمات   بحسّ بقلبي لهيب اللاهبات

....

آل طوقان اسحبوا لسيوفكم   واعتلوا لسروجهن هالغاليات

آل النمر هالنمورة الكاسرات   عدلوا صفوفكم هالباسلات

محمد العثمان أجمع للرجال   حضّر الأبطال من كلّ الجهات

أحمد القاسم يا ليث جسور   أنت قيدوم الصفوف الماشيات

....

عبد الهادي نوض لا تعطي ونا   انت كسّار الجموع الماشيات

يا نوابلسية نوضوا أجمعين   نوضة العقبان من الجوّ خاويات

سيروا على عكا جميعاً كلكم   لا زمون الشرّ في عكّا بنات

....

قالوا أبو داود من قلب شجيع   ما بقى على الحرب إلاّ الثبات

فلبّى دعوته هؤلاء المشايخ وجمعوا رجالهم وساروا إلى عكّا وحاربوا الفرنسيين، حتى طردوهم من فلسطين[١]. وقد ورد في مخطوطة كشف اللثام لنوفل بن نعمة الله الطرابلسي[٢] أنّ يوسف الجرّار كان هو وعساكره مع القوات التي زحفت على العريش لتخليصها من الفرنسيين إلى جانب نصوح باشا والي مصر وأرنبود مصطفى باشا والي مرعش المعروف بدكرمنجي أوغلي ومحمد بك الألفي وغيره من الأمراء المصريين والميريلاي الإنجليزي دوغلاس، وقد حققّت هذه القوة أهدافها بالقضاء على الفرنسيين الذين كانوا في القلعة.

معارك أهلية سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٩م:

يورد المعلّم إبراهيم العورة في كتابه "تاريخ ولاية سليمان باشا"[٣](أ) خبر فتنةٍ وقعت في نابلس بين آل جرّار ومعهم آل عبد الهادي من جهة وآل طوقان ومعهم آل البرقاوي سنة ١٨١٩م، قتل فيها سبعة عشر شخصاً من الطرفين عدا الجرحى، ويستغل المؤلف هذه الحادثة ليتحدث بالتفصيل عن عوائد هؤلاء الناس خلال حروبهم، فمما قاله:"إنّ أهالي تلك الجبال أحوالهم غريبة أولاً بطاعتهم العمياء لكبارهم ومشايخهم... وذلك إذا كان فَرَضاً قرية من قرايا شيخة بيت الجرّار بل بأكثر من ذلك أقارب لهم وموجود بينهم نسب قديم أو حديث وكان غرضهم إلى البرقاوي، فمتى حضرت لهم قطعة ورقة صغيرة من البرقاوي فيها: رفاقنا أهالي القرية الفلانية يقتضي توافونا في بارودكم إلى المحلّ الفلاني لأجل الحرب مع فلان" فإذا كانوا يتعشون يتركون العشاء حالاً ويصرخوا (ياهو) ويأخذوا بارودهم ويتوجهوا بكل فرح وسرور كأنهم متوجهون إلى وليمة أو فرح.......الخ".

ثمّ يضيف إنهم يأخذون نساءهم معهم إلى المعركة لتحريضهم، وأنه رأى في حرب صانور العجب العجاب من ذلك.

عبد الله باشا وحرب صانور سنة ١٨٣٠:

أطلق عددٌ من المؤرّخين (*) على حوادث هذه السنة في صانور وحولها اسم "حرب صانور" وذلك لاتساع ساحات القتال فيها وتعدّد الأطراف المشاركة فيها وطول مدّتها وحجم نتائجها من القتل والتدمير، وما نتج عن ذلك من تحوّلات سياسيّة، كان أهمّها بداية تقلّص نفوذ آل جرّار واندلاع صراعات محليّة دموية في منطقة نابلس.

---

(١) وقد أورد محمود العابدي هذه الوثيقة في كتابه "أوابد من التاريخ" ط. جمعية عمال المطابع التعاونية، عمّان، ١٨٧٨، ص ٦٦- ٦٧.

(٢) كشف اللثام (مخطوط) ص ٢٨١، وكان ذلك في ٢ حزيران ١٧٩٩م، وكان من هدف هذه الجموع مهاجمة الفرنسيين في العريش والانتقام للمجزرة التي ارتكبتها قوات نابليون في يافا أثناء احتلالهم لها في ٦ آذار سنة ١٧٩٩م.

(٣) إبراهيم العورة، تاريخ ولاية سليمان باشا، ص ٣٠٣- ٣١١.

أمّا حرب صانور التي وقعت سنة ١٨٢٩- ١٨٣٠ فكان سببها أنّ الباب العالي في استانبول أنعم في سنة ١٨٢٩م على عبد الله باشا والي صيدا بولاية القدس الشريف والخليل وجبل نابلس، وبالتالي خرجت القدس ونابلس من تبعيتها لولاة الشام إلى ولاة صيدا، كما طلبت الدولة العثمانية من عبدالله باشا أن يجمع من القدس والخليل والقدس ونابلس الأموال المعتادة، فعند ذلك قام عبد الله باشا بتوجيه أوامره لمشايخ تلك المقاطعات للحضور لديه والاتفاق معهم على جمع المال، وفي هذه الأثناء كتب والي دمشق محمود شركس باشا إلى المتسلمين في القدس ونابلس بعدم طاعة عبد الله باشا، فلّما علم عبد الله باشا بذلك قام بعزل متسلّم نابلس الشيخ عبد الله الجرّار وولّى مكانه مصطفى بك طوقان، ثمّ أخرج القدس وجنين من آل جرّار وولّى عليهما مملوكين من مماليكه. وقد انقاد معظم الزعماء لعبد الله باشا ما عدا الشيخ عبد الله الجرّار والشيخ حسين عبد الهادي، فانتهز أسعد بك طوقان الفرصة وأوغر صدر الباشا عليهما، فأرسل الباشا يستدعيهما، فذهب الشيخ حسين عبد الهادي إلى عكا وقدّم الطاعة، أمّا الشيخ عبد الله الجرّار فامتنع عن الذهاب والتجأ إلى حصن صانور، وعندها طلب عبد الله باشا من الشيخ عبد الله الجرّار أن ينقاد إلى الطاعة ويسلّم حصن صانور إليه، فأبى وأغلق الأبواب في وجه رسل الباشا، فأمر الباشا عندئذٍ بحصار صانور ودكّها دكّاً، وأرسل المدافع والقنابر إليها وبدأ الحصار ودام مدة دون جدوى، وتكاثر المقاتلون من جبل نابلس، وحاصروا عسكر الباشا، فاضطر هذا أن يستغيث بالأمير بشير أمير لبنان (وهو الأمير بشير بن الأمير قاسم بن الأمير عمر الشهابي)، فجمع الأمير بشير جيشاً كبيراً يتألف من ألفي جندي من مقاطعات لبنان، وسار بهم إلى عكا، وعند وصوله إلى عكا، قال له عبد الله باشا بأنه سوف يقتل نفسه إنْ لم يأخذ قلعة صانور "إن لم أقدر على أخذ قلعة صانور ألتزم أني أضع جوز فرودي في صدري وأقتل حالي". فوعده الأمير بأنه سوف لن يفتأ في الهجوم عليها حتى يدخلها.

وقد أورد حيدر الشهابي في كتابه "الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان" تفاصيل دقيقة عن تلك الحرب وذكر أسماء القتلى والجرحى من اللبنانيين في أثناء حصار القلعة وأسماء القرى التي كان أبناؤها يدافعون عن صانور مع عدد من كان منهم فيها[١].

وأسوق هنا بعض ما وصف به الشيخ طنّوس الشدياق هذه الحرب[٢]:

"وفيها كتب الوزير[٣] إلى الأمير[١] أن يهيئ له من بلاده ألفي مقاتل لفتح قلعة سانور رغماً من النابلسيين العاصين، فهيأهم من مقاطعات البلاد. ثمّ كتب إليه أن يوجه الرجال

---

(١) الأمير حيدر أحمد الشهابي، كتاب الغرر الحسان، ٣: ٨٠٢- ٨١٧، وعن أخبار هذه الحرب انظر: طنّوس الشدياق (١٨٥٩)، كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، نظر فيه ووضع مقدّمته الدكتور فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٧٠، ٢: ٤٤٠- ٤٤٣، ١: ١٧٠، ١٧٧، ١٨٣؛ نوفل بن نعمة الله الطرابلسي، كتاب كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام، ص ٢٧٠ (المطبوع)، يوسف الدبس، الجزء الرابع من تاريخ سورية، المجلد الثامن، المطبعة العمومية، بيروت، ١٩٠٥، ص ٦٤٥- ٦٤٧، ميخائيل مشاقة، الجواب على اقتراح الأحباب، ص ١٠٨- ١٠٩، إلياس ديب مطر، العقود الدرية، ص ١٦٠- ١٦١، رستم باز، مذكرات، حققها فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبانية، بيروت، ط ٢، ١٩٦٨، ص ٢٨، كرنيليوس فنديك الأميركاني، كتاب المرآة الوضيّة، ص ٢١٠، الدكتور أسد رستم، بشير بين السلطان والعزيز (١٨٠٤- ١٨٤١)، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٥٦، ص ٤١- ٤٤، إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، مطبعة ابن زيدون، دمشق ١٩٣٨، ج١، ص ٢٣٩- ٢٤٤، William R. Polk, The Opening of South Lebanon 1788-1840, Harvard University Press, P.90- 91, 1963

(٢) الشيخ طنّوس الشدياق (١٨٥٩)، كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، نظر فيه ووضع فقدّمه الدكتور فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٧٠، ٢: ٤٤٠- ٤٤٣.

(٣) يقصد: عبد الله باشا والي عكا.

صحبة أحد أولاده، فجمع الأمير الرجال إلى بتدين، ونهض بهم إلى جسر الأولي ومعه ولده الأمير خليل وحفيده الأمير محمود وخيّم هناك.

وفي اليوم الثالث افتتاح سنة ألف وثمانمائة وثلاثين نهض الأمير بالعسكر من الأولي إلى عكا فأمر الوزير بنزوله في قصر البهجة ونزول عسكره حوله في الخيام وأن تلتقيه العساكر بالموسيقى فالتقوه وأنزلوه وعسكره كما أمر الوزير. ومن الغد أرسل الوزير يدعوه إليه إلى المدينة فتوجه بأربعة أنفار من عبيده.

ولما أقبل على المدينة أمر الوزير أن تلتقيه أرباب دولته فالتقوه ولما دخل على الوزير استقبله بالبشاشة والإعزاز وأنعم عليه بسلاح ثمين، وفاوضه في فتح تلك القلعة، ثمّ استأذنه الأمير ورجع إلى منزله. ومن الغد دعاه الوزير إليه فسار ومعه ولده وحفيده وبعض أنفار، فأنعم الوزير عليه بخلع سنية وجواد مزين، وأنعم على الأمير خليل وولده بسلاح ثمين، وحث الأمير على إلقاء الهمة بأخذ القلعة قائلاً "إن لم آخذ هذه القلعة أقتل نفسي"، فأجابه الأمير: إني لا أفتأ أهجم عليها برجالي حتى أدخلها. فدعا له الوزير بالتوفيق، وكتب إلى الأمير أمين كتاباً مضمونه أنه يكون منفذاً للأوامر كوالده. ولمّا رأى الأمير احتياجه إلى زيادة العسكر كتب إلى ولده الأمير أمين أن يجمع عسكراً ويرسله إليه. ونهض بعسكره إلى مدينة الناصرة وخيّم خارجها. ومن الغد نهض إلى قرية جينين، وعند الصباح سار إلى تجاه قلعة سانور، فالتقاه مدير الوزير وجميع رؤساء العساكر بالموسيقى وإطلاق البارود، وتجدّد الحصار على القلعة بإطلاق المدافع فانهدم أكثر أعاليها. وأرسل الأمير رجاله يقطعون الطريق على الآتين من نابلوس إلى المزار المحاذي القلعة.

وفي تلك الليلة رأى أولئك الرجالة أناساً نابلسيين قادمين إلى ذلك المزار فاطلقوا عليهم الرصاص فقتلوا منهم نفراً وهرب الباقون.

وفي ذات ليلة خرج المحاصَرون من القلعة ودهموا الأرناؤوط النازلين قرب المدافع وانتشب الحرب بينهم فانكسرت الأرناؤوط وهجم النابلسيون على المدافع ليأخذوها وظل باقي عسكر الوزير متربصاً، فأرسل الأمير جماعة وهجموا على النابلسيين فانهزموا إلى القلعة، واقترب عسكر الأمير إلى حائطها وكانت النساء تغمس اللحف بالزيت وتشعلها وترميها من القلعة خارجاً لتنظر رجالهن عسكر الأمير ويطلقوا عليه الرصاص، ودام القتال إلى الصباح فقتل من عسكر الأمير أحد عشر رجلاً ودام القتال بعد ذلك ثلاثة أيام.

وفي غضون ذلك حضر الأمير عبد الله حسن إلى هناك، ثمّ تجمع النابلسيون الخارجون عن الحصار ومعهم ثلاثمائة فارس من العرب وأتوا إلى قرية عجّة وقرية الفندقومية القريبتين من المعسكر قاصدين منع العسكر عن ورد الماء، وانضاف إليهم جماعة، حتى صاروا جيشاً وافراً، وأطلقوا فرسانهم إلى ذلك المقصد. وفي ذات يوم توجه من العسكر جماعة يستقون الماء فغارت عليه الفرسان فانهزموا فادركوا منهم اثنين من خدم الأمير فقتلوهما. وفي اليوم الثاني توجه جماعة من العسكر أيضاً يستقون الماء فغاروا عليهم وقتلوا منهم نفرا، وعند الظهيرة توجه جماعة آخرون يستقون الماء فغاروا عليهم وانتشب الحرب بينهم، فبادر لنجدتهم بعض عسكر الأمير بغير أمره وعلمه، فحين بلغه ذلك نهض ومعه ولده الأمير خليل وحفيده الأمير محمود ليمنعهم عن القتال لأنهم كانوا حينئذٍ غير

---

(١) يقصد: الأمير بشير الشهابي أمير جبل لبنان.

مرتبين له. ولما رأى الشيخ ناصيف النكدي ذلك أصحب معه نحو مائتي رجل من دير القمر وباقي المناصف، ونهض أيضاً الشيخ حسين والشيخ فارس التلحوقيان بنحو مائة رجل من رجالهما، وهجموا جميعاً على القوم المجتمعين في صحراء عجّة، وانهزموا إلى تلك القرية، فجدّوا في إثرهم...... وحاصروهم فيها، فانهزموا منها، فأحرقها العسكر وقبضوا على المحاصرين الباقين منهم في تلك القرية، وجعلوا يذبحونهم كالغنم فقتل منهم تسعة وستون رجلاً واعتقل أربعة عشر رجلاً بعضهم من المشايخ بني الجرّار، وقتل من عسكر الأمير أربعة عشر رجلاً، فأرسل الأمير تلك الرؤوس والأسرى إلى المدير فأرسلهم إلى الوزير. أما الشيخ ناصيف فلما حضر إلى خيمة الأمير استقبله بالبشاشة والإكرام وقبّله وأمر له بفرس من الخيل الجياد مزينة، ثمّ لما وصلت الرؤوس والأسرى إلى الوزير كتب إلى الأمير كتاباً يمدح به همته ودرايته وشجاعته".

ويذكر نوفل بن نعمة الله الطرابلسي في كتابه "كشف اللثام" أنه عندما تشدّد الحصار على القلعة صارت النساء تغمس اللحف بالزيت وتشعلها وترمي بها من القلعة ليرى رجالهنّ عساكر الأمير على ضوئها، وما زال هذا حالهم حتى اصطلحوا وسلمت القلعة، وأخذ بنو الجرّار يخرجون منها بعيالهم وأمتعتهم، وأرسل الأمير معهم ابنه خليلاً ليحافظ عليهم في الطريق حتى يصلوا إلى مواطنهم، وبلغت مدة الحصار ثلاثة أشهر، فأمر عبد الله باشا بهدم القلعة إلى الأساس وخرق مغائرها وهدم آبارها، وألبس مدافعه جوخاً أحمر علامة لظفره بها، فغضب الأمير بشير من ذلك، ورجع توّاً إلى بيت الدين"[*].

وفي كتابه الذي أرسله عبد الله باشا إلى الأمير أمين شقيق الأمير بشير الشهابي ليخبره بالسيطرة على صانور، وصف عبد الله باشا قلعة صانور ثلاث مرّات بالقلعة المنحوسة، وذلك لقوتها ومنعتها وكثرة القتلى الذين سقطوا على أبوابها وهم يحاولون اقتحامها[١].

وبعد انتهاء الحرب، وصل إبراهيم باشا كتخدا والي الأمير بشير، ومعه مشايخ جبل نابلس إلى عكا، وعند دخولهم على عبد الله باشا أنعم على الشيخ عبد الله الجرّار في متسلميّة مدينة نابلس[٢].

ثورة أهل فلسطين على إبراهيم باشا المصري سنة ١٨٣٤:

عندما نزل إبراهيم باشا الديار الشاميّة وأشرف على عكا من الجهة الجنوبية في ١٨٣١/١١/٢٠، استعدّ عبد الله باشا لقتاله، وكتب بخطّ يده إلى الأمير بشير حاكم لبنان يستنجده لهذا الأمر، ويقول له:

إنّ المشايخ بني الجرّار وبني صقر وعرب السلط وبني صخر ينتظرون قدومه إليهم ليكون رئيساً عليهم، وفي أثناء ذلك يذكّره بالصداقة..... القديمة والمحبّة[١]. وكان محمد

(*) كشف اللثام (المطبوع) ص ٢٧٠.
(١) الأمير حيدر الشهابي، الغرر الحسان، ٣: ٨١١- ٨١٢.
(٢) الأمير حيدر الشهابي، الغرر الحسان، ٣: ٨١٢.

علي باشا قد أذاع بين السوريين أنه إنما كان ينوي الهجوم على عكا لأجل الانتقام للسلطان من عبد الله باشا لمروقه مراراً من طاعة مولاه ودكّ قلعة صانور إلى الحضيض بدون إذن السلطان(٢).

لكنّ القوة الطاغية التي قادها إبراهيم باشا إلى بلاد الشام وعلاقة إبراهيم باشا بالأمير بشير أديّا إلى سرعة وقوع البلاد تحت حكم إبراهيم باشا، وكان ممّا فعله في نابلس أنه أعاد تقسيم المناصب السياسية، فجعل بلدة نابلس ومشاريق الجرّار في عهدة الشيخ محمد قاسم، وبلاد جبل نابلس في عهدة الشيخ محمود عبد الهادي والشيخ يوسف بن قاسم الأحمد والشيخ عبد الله الجرّار والشيخ يوسف والشيخ عبد الوهاب الجيوسي، ثمّ ما لبث أن جعل متسلّمية نابلس للشيخ سليمان عبد الهادي، فسخط شيوخ جبل نابلس ومنهم الشيخ عبد الله الجرّار والشيخ قاسم الأحمد والشيخ عيسى البرقاوي والشيخ ناصر المنصور والشيخ عيسى القدومي، فأعلنوا عصيانهم. وكان إبراهيم باشا قد تلقى أوامر من والده محمد علي باشا بفرض الضرائب واحتكار تجارة الحرير ونزع السلاح وإجراء التجنيد، فأذاع ذلك بمنشور وأوامر أصدرها إلى الحكّام، فاتفقت أسرة طوقان وأسرة الجرّار في نابلس مع أسرة أبي غوش في القدس ويافا على رفض ذلك(٣)، ولاسيما أن إبراهيم باشا أسقط هؤلاء الشيوخ وأحلّ محلّهم آل عبد الهادي، فلّما علم إبراهيم باشا بذلك أسرع إلى القدس وطلب من أعيان البلاد ضرورة تنفيذ أوامره، فاندلعت الثورة في أنحاء فلسطين، ونشب القتال في نابلس وفي أماكن متفرقة من البلاد، وربط أهالي جبل نابلس في الطريق من أبواب عكا إلى القدس، فاضطر إبراهيم إلى التحصّن في يافا، فلما علم والده محمد علي باشا بذلك أرسل له قوة من (١٥) ألف جندي، وعلى إثر ذلك قام إبراهيم باشا بالهجوم على شعفاط وبيت جالا ولفتة وزيتا ثم هاجم جبل نابلس، وتوجه إلى قرية جبع، معقل آل جرّار، فأمر بحرقها، ففرّ أهلها منها، وهرب الشيخ عبد الله الجرّار والشيخ قاسم الأحمد وعيسى البرقاوي والشيخ ناصر المنصور إلى جبل الخليل ومعهم أولادهم، وقد كان وقع مع الأسرى الشيخ محمد بن الشيخ عبد الله الجرّار، ثم أطلقه إبراهيم باشا.

ثمّ توجه إبراهيم باشا بالعساكر إلى الخليل وحاصرها واقتحمها، ففرّ الثوار من الخليل إلى السلط ثم الكرك، فتعقبهم إلى الكرك فقاتله أهلها، ولما دخل القلعة بعد حصار وقتال أضرم فيها النار، لكنه لم يجد الثوار. وبعد أن فرّوا من الكرك قام أحد شيوخ القبائل بتسليمهم لإبراهيم باشا خوفاً من سطوته، فقتل الشيخ قاسم الأحمد والشيخ عيسى البرقاوي في دمشق، وقطعت رؤوس أولادهم في عكا والقدس، وأعدم معهم الشيخ مسعود الماضي

---

(١) الشيخ عبد الرزاق البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، حققه محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٦٣، ج٢ ص ٩٥١، عزّتلو إسكندر بك أبكاريوس، المناقب الإبراهيمية والمآثر الخديوية، مطبعة حمص، ١٩١٠، ص ٢٧.

(٢) سليمان أبو عزّ الدين، إبراهيم باشا في سوريا، المطبعة العلمية ليوسف صادر، بيروت، ١٩٢٩، ص ١٦٩- ١٧٩.

(٣) يذكر القس أسعد منصور في كتابه "تاريخ الناصرة" دار الهلال، القاهرة، ١٩٢٣، ص ٧١، سبباً آخر للثورة، وهو أن إبراهيم باشا لمّا ذهب إلى نابلس وفي حاشيته حسين عبد الهادي خرج مشايخ النوابلسية لاستقباله يتقدمهم أحمد القاسم الجرّار، وهو شيخ جليل، راكباً على مهر يلاعبه كأنّه شاب، فعدّ إبراهيم باشا ذلك منه خفة فقال موجهاً الكلام إليه: آمل أن يكون أولادكم أكثر أدباً منكم. فاغتاظ أحمد القاسم ولكنه كظم غيظه، ولما وصلوا نابلس أعد دسيسةً لاغتيال إبراهيم باشا، وهي أنه دعاه لزيارة مصبنته فأمر رجاله أن يطرحوه في الزيت الغالي. ولكن حسين عبد الهادي عرف بالدسيسه فحذره.

شيخ مشايخ ساحل حيفا، واسعد بك الخضر متسلم يافة، وقام عماله بتجريد السكان من السلاح فجمعوا من نابلس وحدها (٥٦٠٠) بندقية[١].

واستمر حكم إبراهيم باشا لبلاد الشام حتى سنة ١٨٤١م. وذكر كوندر وكيتشنر في كتابهما "المسح العام لغربي فلسطين" أنّ إبراهيم باشا قصف قلعة صانور سنة ١٨٤٠ ودمّرها[٢]. إلاّ أنّ آل جرّار أعادوا إعمار البلدة سنة ١٨٤٧ وما بعدها وسكنوها كما يرد ذكره في كتب الرحّالة.

صانور وآل جرّار بعد الحكم المصري حتى نهاية القرن التاسع عشر:

إنّ أهم مصدر للمعلومات عن صانور وآل جرّار في هذه الحقبة هو كتب الرحّالة الأجانب الذين زاروا صانور وجبع أو مرّوا بهما ووصفوهما مثل رحلة إليزا روجرز وجيمس فنّ وغيرهما، وكذلك بعض المؤلّفات التي كتبت بغير العربية مثل كتاب ألكزاندر شولش "تحوّلات جذرية في فلسطين ١٨٥٦- ١٨٨٢" وكتاب بشارة دوماني "إعادة اكتشاف فلسطين: أهالي جبل نابلس ١٧٠٠- ١٩٠٠" وغيرهما، بالإضافة إلى تقارير القناصل الأوروبيين في القدس ودمشق.

أمّا المصادر العربية التي تناولت هذه الحقبة فإنها متأخرة قليلاً، لكن أهميتها تكمن في اعتمادها على الوثائق التي تعود للعصر العثماني وسجلاّت المحاكم الشرعية ذات الصلة، ومن هذه المصادر كتاب "بلادنا فلسطين" لمصطفى مراد الدبّاغ، وكتاب "العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي" لمحمد عزت دروزة، وكتاب "تاريخ نابلس والبلقاء" لإحسان النمر، وغيرها.

اتّسمت هذه الفترة بصراعات محليّة للاستيلاء على مناطق منفردة أو للسيطرة على جبل نابلس برمّته، كما اتّسمت بالهجمات الثأرية بين الأسر المتنازعة، واستمر أهل نابلس بانقسامهم بين قيس ويمن، أمّا القيسية فكانت تتألف من آل عبد الهادي وقسم من آل جرّار (شمال بلاد حارثة) وآل الجيّوسي وآل القاسم وآل النمر. وتألفت اليمنية من آل طوقان وقسم من آل جرّار (جنوبي بلاد حارثة) وآل ريّان وآل برقاوي.

---

(١) انظر أخبار هذه الثورة في: سليمان أبو عزّ الدين، إبراهيم باشا في سوريا، المطبعة العلمية ليوسف صادر، بيروت، ١٩٢٩، ص ١٦٩- ١٧٩، مؤرخ مجهول، حروب إبراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول، علّق حواشيها الدكتور أسعد رستم، ص ٣٩- ٤٥؛ الدكتور أسد رستم، بشير بن السلطان والعزيز (١٨٠٤- ١٨٤١)، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧٥، ج٢ ص ١٢٠- ١٢٦، القسّ أسعد منصور، تاريخ الناصرة، دار الهلال، القاهرة، ١٩٢٣، ص ٧٠- ٧٢، إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، مطبعة ابن زيدون، دمشق، ١٩٣٨، ١: ٢٤٦- ٢٥٩.

(٢) C.R. Conder, H.H. Kitchener, The Survey of Western Palestine, London, 1882,Vol.2, P. 157

وهذا يعني أنّ آل جرّار قد انقسموا على أنفسهم في مرحلة من المراحل، فكان بعضهم يحارب مع آل عبد الهادي وبعضهم يحارب مع آل طوقان، لكنّ ذلك استمرّ لفترة قصيرة، ثمّ اتحدوا ضدّ آل عبد الهادي وتحالفوا جمعيهم مع آل طوقان.

وقد حاول آل عبد الهادي انتزاع قسم من بلاد حارثة من آل جرّار، وفي سنة ١٨٥٦ أراد كامل باشا أن يعين من جديد حاكماً على نابلس، وبناءً على نصيحة القنصل الفرنسي قرر أن يعين محمود عبد الهادي في وظيفة قائمقام. واستلم كمال باشا من محمود عبد الهادي ٥٠٠ كيس (في كل كيس ٥٠٠ قرش)، ومن يوسف الجرّار (١٥٠) كيساً، واستقر يوسف الجرّار في جنين، وكان يوسف هذا من أنصار آل عبد الهادي.

وبعد تعيين محمود عبد الهادي سنة ١٨٥٦ دعا كامل باشا إلى اجتماع لزعماء نابلس لإعلان ذلك، فتغيب عن الاجتماع زعماء الحزب المعارض المعروف بالحزب الإقطاعي واعتبروا عُصاةً ومنهم أبو خليل جرّار (إبراهيم جرّار) ودرويش طوقان ومحمد برقاوي ومحمد سليمان ريّان.

وكانت صانور في هذه المرحلة من مراحل النزاع في أيدي ذلك القسم من آل جرّار المتحالف مع آل طوقان برئاسة الشيخ إبراهيم الجرّار، حتى إن عدداً من آل طوقان لجأوا إلى القلعة، بينما كان يقود القسم المتحالف مع آل عبد الهادي من العشيرة يوسف جرّار.

ولمّا قام المبشّر البريطاني لايد Lyde بقتل أحد الشحاذّين برصاصة اتخذ الحزب المعارض (طوقان- جرّار (أبو خليل)) من ذلك ذريعة لتعبئة حلفائهم واستنجدوا بالبدو وهاجموا بعض قرى الحزب المعادي (عبد الهادي) وخرجت ضدّهم قوة بقيادة أحد إخوة حاكم نابلس محمود عبد الهادي، وقتل في المعركة عبد الرحمن جرّار وآخرون، وانسحب (العصاة) بعد ذلك إلى صانور. وكانت النتيجة التي استخلصها كامل باشا أن الهدوء لن يعود إلى البلاد إلاّ إذا أزيح رؤساء آل طوقان وزعماء آل جرّار.

وكان محمد حسين عبد الهادي قبل هذه الأحداث التي وقعت في نابلس قد هاجم قلعة آل جرّار في جبع، ولكنه مني بالهزيمة وبخسائر فادحة.

وفي سنة ١٨٥٧ وقعت معركة امتدت من جنين إلى ما بعد صانور بين فريق جرّار وطوقان، ومعهم البدو من عجلون و غور الأردن، وفريق عبد الهادي، هزم فيها آل عبد الهادي.

وبعد ذلك انخرطت عشيرة الجرّار في سلك واحد ووقفت متحدة إلى جانب آل طوقان، وذلك بسبب الأعمال المنفرة التي قام بها حزب عبد الهادي في تلك الحرب. و قد أدّى اتحاد آل الجرّار ثانيةً إلى نزع سلطة آل عبد الهادي وإضعافها، وقد أقسم متسلّم جنين قاسم داود الجرّار أمام روجرز بأنه إذا لم يسترد حزب الجرّار طوقان حقوقه "فسيقومون قومة واحدة أخيرة سوف تسجّل في صحائف التاريخ في جميع أنحاء العالم"، وقد بدا للمراقبين الخارجيين أنّ آل الجرّار قد أصبحوا في السنتين التاليتين حتى الأعداء الرئيسيين لآل عبد الهادي، بمعنى أنّهم حلّوا محلّ آل طوقان كممثلين للحزب المعارض.

وفي ٢ ايار ١٨٥٧ عيّن ثريا باشا على القدس بدلاً من كامل باشا، وما إن وطئت قدماه أرض فلسطين في يافا حتى قدّمت له عرائض من آل طوقان وجرّار موجهة ضدّ آل عبد الهادي، فذهب إلى نابلس بنفسه وثبت محمود عبد الهادي في وظيفته، ومنح آل جرّار وظيفة حاكم جنين، وعيّن علي طوقان حاكماً للرملة.

وفي خريف ١٨٥٨ تجدّدت الاشتباكات الدموية بين آل جرّار وآل عبد الهادي بمشاركة البدو كذلك، فجاءت الأوامر إلى محمود عبد الهادي وقاسم داود الجرّار بالتوجه إلى بيروت حيث ألقي القبضُ عليهما، فقام عبد الفتاح ابن أخي محمود عبد الهادي ومحمد حسين عبد الهادي بتنظيم المقاومة.

وفي نيسان ١٨٥٧ كانت هناك ويلات تدبّر ضدّ آل عبد الهادي تجسمت في قوة مقاتلة حُشِدَتْ جنوبي عرابة: ٤٠٠ رجل من المشاة و ٢٠٠ من الفرسان و ٨٠ من الرماة، ومدفعا ميدان وقوة من الفلاّحين تابعة لحزب طوقان- جرّار. وفي ١٧ نيسان اقتحمت عرابة، وسقط الأفراد البارزون في عائلة عبد الهادي أو فرّوا أو وقعوا في الأسر. وسقط نحو ٢٠٠ قتيل من المحاصَرين وزهاء ٣٠ جندياً من العثمانيين. كان آل عبد الهادي على استعداد للاستسلام من أول مناوشة واتفقوا على ذلك مع قائد القوة العثماني، لكنّ آل جرّار لم يكونوا يرضون بذلك، لقد أقسموا على الانتقام لتدمير صانور على يد عبد الله باشا، وهو التدمير الذي جعلوا آل عبد الهادي شركاء في مسؤوليته، لقد أرادوا أن يردوا عرّابة خرائب وأطلالاً.

وبعد هذه المعركة جرى القبض على قاسم وأحمد وإبراهيم جرّار بسبب اشتراكهم في المؤامرة، في حين قام شيخ من حزب آل عبد الهادي بعد بعض الوقت بمهاجمة جبع وغيرها من قرى الجرّار انتقاماً لسقوط عرابة.

لقد كانت هذه المعركة آخر مواجهة عسكرية كبرى بين الإدارة العثمانية والزعماء المحليين في جبل نابلس حين جاءت حامية عثمانية رابطت في نابلس، وتمّ إيواء جنود الجيش النظامي في مختلف قرى جبل نابلس.

يقول إحسان النمر: إنه بانتهاء الحرب الأهلية انتهى أيضاً "عهد الإقطاع والفروسية، وأصبح جبل نابلس يحكم من سراية الحكومة فقط، وحتى نهاية القرن التاسع عشر لم يعد هناك حاكم واحد من أهل البلاد".

إلاّ أنّ معظم عشائر الزعماء المحليين وأفندية المدن استطاعوا أن يبنوا مراكز سياسية إدارية واقتصادية جديدة وأن ينقذوا سلطتهم ونفوذهم في العهد الجديد. كان هذا شأن آل عبد الهادي وجرّار وطوقان والنمر.

في عام ١٨٦٧ ألحقت السلطات العثمانية القسم الأوسط من عجلون، أي البلقاء، وقاعدتها مدينة السلط، بجبل نابلس، وقد بات جبل نابلس يعرف رسميّاً باسم متصرفية جبل نابلس والبلقاء، إلى أن فصل عنه هذا الجزء الجديد
سنة ١٨٨٨[١].

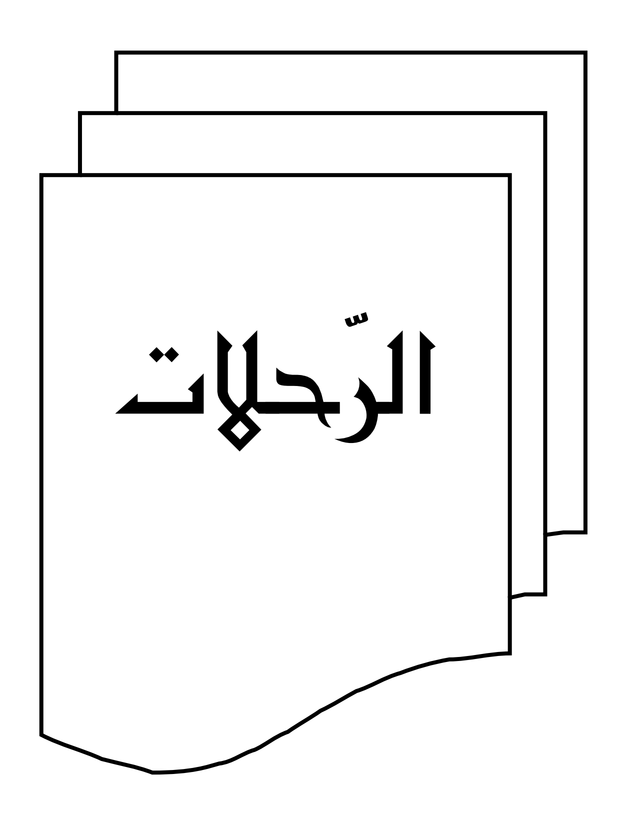
زعماء آل جرّار في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر:

- الشيخ زبن بن ناصر بن جرّار (هو الذي رحل من البلقاء إلى مرج ابن عامر سنة ١٦٦٩).

---

(١) بشارة دوماني، إعادة اكتشاف فلسطين، أهالي جبل نابلس ١٧٠٠- ١٩٠٠، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ص ٦١ (ترجمة حسني زينة)، وينظر أيضاً: إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، ١: ٢٩٥- ٣٠٤.

- محمد بن زبن المعروف بالمشرقي (عينته السلطات العثمانية متسلماً على اللجون ومرج ابن عامر).
- الشيخ إبراهيم بن محمد الجرّار الموصوف بأمير النوابلسية (كان متسلماً لسنجقي جنين ونابلس ١٧٢٣- ١٧٣٥)، (وكان له من الأبناء محمد وحمدان وأحمد).
- الشيخ محمد بن إبراهيم الجرّار (كان متسلماً لسنجقي جنين ونابلس من ١٧٣٥ حتى ١٧٧١، وكان له من الأبناء خليل ويوسف).
- الشيخ يوسف بن الشيخ محمد الجرّار (سلطان البرّ) كان متسلماً لجنين ونابلس من سنة ١٧٧١ حتى وفاته ١٨٠٨ وتخللتها فتراتٌ قصيرة كان فيها متسلماً لجنين فقط. وكان له من الأبناء: أحمد وعبد الله وداود ومحمد.
- الشيخ داود اليوسف الجرّار (عيّن متسلماً لجنين بعد وفاة والده سنة ١٨٠٨ وتوفي بعد ثمانية أشهر من وفاة والده. وكان له من الأبناء قاسم واسعيد وخليل).
- الشيخ أحمد آغا اليوسف الجرّار (١٨٠٩- ١٨١٩ متسلماً لجنين، و من ١٨١١- ١٨١٦، ١٨١٩ متسلماً لجنين ونابلس، ومن أبنائه يوسف ومحمد).
- الشيخ عبد الله آغا اليوسف (أصغر أبناء يوسف الجرّار)، (١٨٢٠- ١٨٣٧ متسلماً لجنين، ومن أبنائه الشيخ إبراهيم والشيخ أحمد والشيخ محمد الذي أسره إبراهيم باشا ثم أطلقه).
- الشيخ أحمد آغا بن عبد الله آغا اليوسف الجرّار (زعيم جبع ١٨٤٠- ١٨٥٦).
- الشيخ إبراهيم بن الشيخ عبد الله الجرّار (زعيم صانور ١٨٤١- ١٨٥٦) وكان له من الأبناء: أحمد وخليل.
- الشيخ يوسف بن أحمد آغا اليوسف الجرّار (كان متسلماً لجنين سنة ١٨٥٦).
- الشيخ قاسم بن داود اليوسف الجرّار (كان متسلماً لجنين ١٨٥٧- ١٨٧٨، وكان له ابن اسمه نمر لقب بنمر المشاريق).
- الشيخ نمر بن قاسم بن داود اليوسف الجرّار (كان عضواً بمجلس إدارة نابلس).
- الشيخ مفلح بن الشيخ عبد الله اليوسف الجرّار (زعيم صانور ١٨٤٥- ١٨٦٣) ومن أبنائه: قدّورة (عبد القادر).
- الشيخ اسعيد الداود اليوسف الجرّار (زعيم جبع من سنة ١٨٣٠- ١٨٤٠).
- الشيخ قدّورة (عبد القادر) المفلح بن الشيخ عبد الله اليوسف الجرّار (عيّن أول قائمقام لجنين سنة ١٨٧٨- ١٨٨٣)، كما عيّن عضواً في مجلس إدارة متصرفية نابلس حتى وفاته سنة ١٨٩٨).
- الشيخ عوض بن محمد بن أحمد الشيخ غازي الجرّار (كان شيخ آل جرّار في برقين في أواخر القرن التاسع عشر، وكان جده الشيخ غازي ممن شاركوا في التصدي لحملة نابليون سنة ١٧٩٩).


الرّحلات

(١)

رحلة المكناسي ١٧٨٥[(١)]

يقول في رحلته من عكّا إلى نابلس(٢):

"ومن الغد سافرنا، فرحنا إلى قلعة سَنُور، وصلناها على سبع ساعات، فأكرم مثوانا صاحبُ القلعة وأحسن نُزُلَنا، وأتى بطعام كثير وفراش متكلّف، ولم يترك شيئاً من الحضريّة في طعامه ولا في شرابه، وهذه القلعة حصينة. وقد وجدنا جماعةً معلّقين عدّتهم(٣) ببابها، فلمّا دخلنا الباب أخذوا العدّة من أيدي رفقائنا وأصحابنا، لأنّهم لا يتركون أحداً يدخل بالعدّة إلى هذه القلعة، ومن الغد عند خروجنا ردّوا العدّة إلى أصحابنا.

وهذا الرجل صاحب هذه القلعة(*) تحت نظر وزير الشّام مَوْلى عملٍ هذه الناحية على يده، لكنّه غير كامل الطاعة والانقياد، فهو يميل إلى الاستقلال والاستبداد، منفّذاً لأوامر أميره، لكنّه لا يتلاقى معه خوفاً على نفسه، والوزير أيضاً لا يقدر على نزعه، فهو قانع بما يأتي منه، فإذا أتى الوزير إلى ناحية بلاده يخرج منها إلى ناحية أخرى حتى يرجع الوزير ويرجع.

وفي عودته من الحجّ ماراً بالقدس ثم سنجل ثم صانور يقول(٤): "ومن هذه القرية بتنا بقلعة سنور، فأكْرَمَنا أهلُها....".

(٢)

رحلات وليام براون من سنة ١٧٩٢ إلى ١٧٩٨[(*)]

في إفريقيا ومصر وسوريا

يقول في رحلته من القدس إلى الناصرة في ١٧٩٧/٣/٢(٥):

---

(١) رحلة المكناسي: إحراز المعلّى والرقيب في حجّ بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرّك بقبر الحبيب ١٧٨٥، محمد بن عبد الوهاب المكناسي، حققها وقدّم لها محمد بوكبوط، دار السويدي للنشر والتوزيع/ أبو ظبي والمؤسسة العربيّة للدراسات والنشر/ بيروت ٢٠٠٣. وهذه الرحلة هي رحلة سفير مغربي إلى الأستانة ثم الحجّ، وكان معه وفد فيه عبد الملك بن إدريس ابن عمّ سلطان المغرب، وأبو حفص عمر وأبو محمد عبد الكريم بن يحيى.

(٢)ص ٢٩٠- ٢٩١.

(٣) يقصد: سلاحهم.

(*) يقصد الشيخ يوسف الجزّار.

(٤) نفسه ٣١٩.

(*) William G. Browne, Travels in Africa, Egy d Syria from the year 1792 to 1798, Longman, London, 1799.

والمؤلف وليام جورج براون مستكشف بريطاني، ولد في لندن سنة ١٧٦٨، وتوفي في إيران سنة ١٨١٣، وفرضت عليه الإقامة الجبرية في دارفور في المدة من ١٧٩٣ إلى ١٧٩٦، وقد نشر خبر هذه الحادثة في كتاب رحلته. وفي سنة ١٨١٢ قام برحلة من بريطانيا إلى سمرقند حيث اغتاله لصوص سنة ١٨١٣.

(٥) ص ٣٦٥.

"وبعد أن اجتزنا جبال نابلس (عيبال وجرزيم) وصلنا إلى سهل فسيح ذي تربة خصبة، وهي في الغالب بعد المطر تكون مغمورة بالمياه، وإلى جانب طرفها الشمالي يجثم حصن صغير عرف عنه أن صدّ أحمد باشا الجزار الذي كان على رأس خمسة آلاف جندي و عدة قطع من المدفعية. وله سبعة أو ثمانية أبراج مستديرة وله بوابتان. إنّ فلاّحي نابلس محاربون ومقاتلون وعموماً يتسلحون جيداً".

(٣)

رحلة إدوارد دانييل كلارك[*] قام بها سنة ١٨٠١ [**]

رحلات في الأرض المقدّسة

يقول في وصف وصوله من جنين إلى صانور في طريقه إلى نابلس[١]:

"بدأنا رحلتنا إلى نابلس في الرابعة صباحاً. وفي السابعة وصلنا إلى قلعة صانور[٢]، وهي تقع على تلّة، وتشبه إلى حدّ كبير المباني المصمّمة كالقلاع في إنجلترا. إنّها قويّة جداً، وممّا يبعث على التساؤل أنها على عظمة شأنها، لم تذكرها المصادر، حتّى هؤلاء المؤلفين الذين يذكرون تقريباً كلّ قرية في الأرض المقدّسة. إنّ علينا أن نعتبر هذا الموقع هو موقع نابلس (Samaria**) القديمة، وليس كما ذكره موندريل (** Maundrell) (Journey from Aleppo to Jerusalem, pp. 59, 111, Oxford 1721.**)، وآخرون بأنها سبسطية التي ما زالت تحمل اسماً يتعلّق بتلك المدينة.**

ويذكر كواريسميوس (Quaresmius**) أن مدينة سبسطية هي نابلس القديمة (** Sabaste Sivo Samaria). (Elucid, Terr. Sanc.Tom 11, p. 810, Anteverp. 1639**) لأنها تقع في الطريق من نابلس (**Sichar**) إلى جنين. لكننا ومن خلال قيامنا بهذه الرحلة فإننا لم نجد أي مكان في هذه الطريق سوى صانور، التي تقع على تلّة، تبعاً للوصف الذي تم تداوله لنابلس القديمة، والذي يحدّده دانفيل (**Danville**) في منتصف الطريق بين جنين ونابلس (أو شيخيم** Sichem**).**

وحتى لا ندخل في مزيد من البحث الجغرافي في هذا الموضوع ونعقّد الأمر، فإننا نترك هذا الأمر للرحالة في المستقبل ليحدّدوا الموقع الحقيقي للمدينة التي أطلق عليها كواريسميوس (Sebaste**) وأطلق عليها موندريل سباستا (**Sebasta**)، ولإلقاء الضوء على قصة صانور.**

(*) Edward Daniel Clarke, Travels in the Holy Land,, Philadelphia, 1817**، وهو رحّالة بريطاني، وقد عمل كلارك أستاذاً في علم المعادن في جامعة كمبردج، ونشر رحلاته ومغامراته في أحد عشر مجلداً ضخمة، وهو الذي نقل حجر روزيتا إلى المتحف البريطاني، وهو حجر رشيد اكتشف في مصر عام ١٧٩٩ ويحمل رموزاً متوازية باليونانية والهيروغليفية المصرية ممّا ساعد على حلّ رموز هذه الأخيرة.**

(**) بدأ كلارك رحلته من جزيرة قبرص في شهر أيار ١٨٠١، وقد توجه من طبريا إلى نابلس في الساعة السادسة من صباح يوم الاثنين السادس من تموز (ص١١١).

(١) رحلات كلارك ص ١٢٩- ١٣٠.

(٢) في الأصل Santorri**.**

إنّ التلة التي تقع عليها قلعة صانور تقع في الجهة الجنوبية من أحد الأودية تحدّها تلالٌ أخرى من سائر الجهات لتبلغ في عرضها إلى ميلين وفي طولها إلى خمسة أميال.

وقد صمد هذا الحصن في وجه الجزّار عندما كان والياً على دمشق، وقد أرغم الجزار على رفع الحصار بعد شهرين.

وعندما صعدنا إلى القلعة حصلنا على الإذن بدخول البوابة، التي تقع إلى جانب ممرّ ذي عقود ومظلم تماماً بسبب طوله المتعرّج كثير الانعطافات. ومن المؤكد أنّ هذه القلعة كانت في أيام الحروب الصليبية منيعة مع أنّه لا توجد أيّة رواية عن ذلك من أي مؤلف، ومن المؤكّد أن إنشاء هذه القلعة لم يكن متأخّراً عن زمن الحروب الصليبية.

استقبلنا الحاكمُ[1] في حجرة ضخمة ذات عقود تشبه ما نطلق عليه في بعض قلاعنا النورمانية القديمة "The Keep" وهي تشبهها إلى حدٍّ كبير، ما لم نعتبر أنّ جزءاً من هذه القلعة أضافه النورمان خلال الحروب الصليبية وأنّ من الممكن أن يكونوا قد تأثروا فيه بمبانيهم القديمة.

وقد شاهدت في الحجرة عدداً من الأسلحة كالبنادق والمسدّسات والسيوف والخناجر معلقة على الجدران، وإلى جانب ذلك كانت توجد سروج وركاب مطليّة وكسوة فاخرة تعود كلّها لسيّد القلعة (Lord of Citadel).

وعلى أرض الحجرة يربض كلبه السلوقيّ بينما يقف مدرّبو صقوره ينتظرون في الباحة مقابل باب الحجرة، ممّا يجعل كلّ شيء في ذلك المكان يذكّر بالعصور القديمة، وكأنّ مشهد العصور السالفة قد تحقّق أمام أعيننا.

أمّا شخصية الحاكم فإنها لم تكن الجزء الأقلّ إثارةً للاهتمام في هذه الصورة الحيّة، إنّ لديه لحية حمراء طويلة[2]، ويرتدي ملابس تتميز بالمهابة والفخامة العسكرية ممّا يستحيل تخيُّله.

لقد استقبلنا (الحاكمُ) بحسن الضيافة المعهودة من أهل بلده، وصَرَفَ المرافق الذي صحبنا من عكا، وبدا فخوراً بأنّ يجعلنا تحت حماية جنوده المميزين؛ وسمح لنا بحارس خاصّ عيّنه لنا من قواته الخاصّة ليضمن سلامتنا حتى مدينة نابلس.

لقد جرى بيننا وبينه بعض الحوار حول الحالة المضطربة في البلاد ولاسيّما في منطقة الجليل، وقال بأنّ الثوّار العرب موجودون بأعداد كبيرة وأنهم منتشرون على التلال بالقرب من مرج ابن عامر، تدفعهم، في هذا المحور الصعب، الرغبة الملحّة بالأخذ بالثأر، واليأس بسبب الخسائر التي تكبّدوها نتيجة الاعتداءات التي قام بها جيش الجزّار، ونصحنا بأن نتجنب التعامل مع أي فضوليّ يحاول أن يتحدث إلينا خلال رحلتنا إلى القدس".

---

(١) كان زعيم صانور في ذلك الزمن الشيخ يوسف بن الشيخ محمد الجرّار.

(٢) ورد في كتاب حسن الشهير بابن الصدّيق: غرائب البدائع، ص٦٨ أنّ الشيخ حمدان الجرّار، وهو شقيق الشيخ محمد بن إبراهيم الجرّار زعيم صانور، كانت له ذقنٌ طويلة.

(٤)

رحلة جون لويس بيركهارت ١٨١٢[1]

رحلات في الديار المقدّسة والنوبة والحجاز[2]

يقول في وصف نابلس بعد وصوله إليها من الناصرة وجنين في ٢ تموز سنة ١٨١٢م[3]:

"وهذه المنطقة تُحكم بواسطة شيوخها، وتستطيع حشد جيشٍ قوامه (٥٠٠٠) خمسة آلاف رجل مسلّحين بالبنادق، سكّان هذه المنطقة من أكثر سكّان سوريا تمرّداً، ولم يستطع أيّ من باشوات حكومة القسطنطينية السيطرة عليها.

وكان الجزّار قد استعمل كلّ حيله ودهائه المشهور للسيطرة على هذا الجبل المتمرّد، إلاّ أنّه عاد بخفيّ حنين. كما أنّ الجنرال (جونوت) هاجم هذه المنطقة ب(١٥٠٠) ألف وخمسمائة من رجال الحملة الفرنسية، إلاّ أنّه هُزم شرَّ هزيمة وتقهقر بعد أن فقد ثلثي قوّاته. والعائلة التي تتزعم المنطقة الآن هي عائلة (الشاذلي)"[4].

---

(١) المؤلّف هو جون لويس بيركهارت، ولد في لوزان (سويسرا) سنة ١٧٨٤م، درس في جامعتي لايبزغ وجوتنجن. ذهب في سنة ١٨٠٦ إلى لندن، تعلّم اللغة العربيّة في جامعة كمبردج سنة ١٨٠٩م، وكذلك درس الدين الإسلامي، وقد أعدته الجمعية الإفريقية في لندن للسفر إلى إفريقية والدول العربيّة، وفي سنة ١٨٠٩م وصل إلى مالطة وسافر منها إلى حلب ثمّ إلى لبنان فسوريا فالأردن ثمّ فلسطين ودخل نابلس في الثاني من تموز سنة ١٨١٢م.

(٢) جون لويس بيركهارت، رحلات في الديار المقدّسة والنوبة و الحجاز، ترجمة فيصل أديب أبو غوش، ط. وزارة الثقافة، عمّان، ٢٠٠٥.

(٣) ١/ ٢٢٠-٢٢١.

(٤) من الواضح أنّ ثمّة خلطاً بين صانور وغيرها في هذا النصّ. ويفهم من هذا النصّ أن صانور قد حوصرت من قبل قوات نابليون خلال الحملة الفرنسية.

(٥)

رحلة وليام تيرنر سنة ١٨١٣:

يوميّات رحلة في الشرق[١]

يصف توجّهه من الناصرة إلى نابلس مروراً بصانور فيقول عن يوم الخميس (٤/٢٠) وذلك في أثناء وجوده في الناصرة[٢]:

"في المساء زرت السيّد كاتافاغا[*]، حيث التقيت في منزله حاكم صانور، وهو من رعايا تركيّا، وقد أكّد لي بأنه إذا ما اتخذنا الاحتياطات المناسبة، فإنّ الطريق من الناصرة إلى القدس عبر نابلس آمنةٌ الآن، رغم أنه رجاني أنه في حال حدوث أي شيء لي فإنّ عليّ ألاّ أذكر أنّه هو الذي نصحني بسلوك هذه الطريق. وبناءً على ذلك استأجرت في المساء، وبمائة قرش، فرساً وثلاثة بغال ورجلاً مسيحياً مسلّحاً[**] من أبناء البلد لمرافقتي. أمّا صانور فإنها قرية تقع بين الناصرة ونابلس. وتقدّر مدة الرحلة عن طريق نابلس بثلاثة أيام".

وعن يوم السبت (٤/٢٢) يقول واصفاً وصوله إلى صانور بعد مروره بقباطية ووقوعه عن فرسة[٣]:

"ثمّ أكملت الطريق ماشياً إلى صانور، حيث وصلناها في الساعة الرابعة مساءً عبر طريق جبليّ متعرّج، وحيث الأرض من حولنا مزروعة قليلاً. وتقع القرية على جبل كان يمكن أن يبدو عالياً لو لم تحط به جبال أخرى أكثر ضخامة.

ولهذه القرية بوّابة رسميّة رئيسية واحدة وعدة بوّابات أخرى أصغر منها موزّعة ومفتوحة على محيط الأسوار. وفي حال دخولنا (حيث كنت راكباً على فرس جورج لأنّ الناس في الشرق لا يحترمون الرحّالة الذين يأتون مشياً) حتى تمّ اصطحابي إلى فِناء بيت الآغا[٤] الذي وجدته جالساً يدخّن تحت معرّش عنب وتحيط به خيولٌ وخدمٌ وكلابٌ استطعت أن أميّز من بينها كلب صيد إنجليزياً.

وقد استقبلني الآغا بشكل حضاريّ فائق، وسألني أسئلة عديدة عن نابليون بونابرت، الذي سُرَّ هؤلاء الناس كثيراً لعودته إلى فرنسا، لكون ذلك يضمن الأمن في تركيا.

لقد جلست أدخّن وأتحدّث مع الآغا واثنين آخرين من العرب، وكان جورج يترجم بيني وبينهم، وبقينا على تلك الحال حتى غروب الشمس. وحيث أنّ البيت الذي كنّا فيه كان صغيراً

---

(١) William Turner: Journal of a Tour in the Levant, 2Vols., John Murray, London, 1820

(٢) ج ٢، ص ١٤٩.

(*) هو خوري الناصرة وكانت تربطه بالشيخ أحمد آغا الجرّار متسلّم نابلس وجنين علاقة صداقة، حسبما يظهر من خلال نصوص بعض هذه الرحلات.

(**) اسمه جورج وسيرد ذكره في ما بعد.

(٣) نفسه ٢: ١٥٢- ١٥٤.

(٤) يقصد الشيخ أحمد آغا بين الشيخ يوسف الجرّار.

جداً فإنّ معظم أهله كانوا ينامون على كراسيّ من الحجر في فِناء البيت، وقد اختار لي غرفةً مقبولة نوعاً ما يستعملها خدمه من الطبقة الرفيعة، وقد تجمعوا حولي بحماسة بالغة لكي ينظروا باهتمام بالغ إلى المسدسات وإلى الساعة التي بحوزتي وغير ذلك، وحتى أتخلص من ذلك الموقف فقد خرجت أتجوّل داخل القرية، لكني وجدت الأمر أسوأ وذلك لأنني سرعان ما وجدت سكان القرية كلّهم يتبعونني، وهم - وإن كانوا كلّهم من العرب وفضوليّين- فإنّ أحداً منهم لم يتعرّض لي بأيّ إهانة أو مضايقة.

وقد ظهر لي أن القرية تحتوي على نحو مائتي منزل، معظمها بيوت طينية بائسة بارتفاع خمسة إلى ستة أقدام، وتنتهي هذه البيوت عند نقطة معينة في قمة الجبل.

وتقع صانور إلى الجنوب الغربي من الناصرة وتشرف على منظر بديع لوادٍ خصيب أسفل منها يفلح بشكل جيّد ويزرع بالذرة.

إنّ المسيحيّ الوحيد في هذه القرية هو سكرتير الآغا.

وعند عودتي من جولتي داخل القرية قُدِّم لنا العشاء بمعيّة الطبقة الرفيعة من خدّام الآغا ومديري أعماله وسائسي الدوابّ الذين كانوا معي، وقد رأيت بأنّ من الأفضل لي أن أدع كبريائي جانباً وأن أتناول الطعام مع هؤلاء الأشخاص، وأن لا آخذ بالشكوى والتذمّر، حتى لا يظنوني من الأثرياء، فأصبح عرضة للخطر.

ولذلك فإنني أخذت في الأكل معهم بكلّ شهيّة، من طبق كبير من الأرز المتبل واللحم قطره نحو ثلاثة أقدام، وإلى جانب هذا الطعام كان يوجد أيضاً محاشي مختلفة وورق دوالي (طبق من الأرز مخلوط بالمحاشي ومحشو بورق العنب) ولبن.

وكان يجلس إلى جانبي خادمٌ أسود، كان لون يده السوداء مغايراً للون الأرز الأبيض الذي في الطبق، حيث كان يغمس يديه في قلب طبق الأرز ثمّ يجعل من الأرز كرة قبل أن يدفعها داخل فمه على ما جرت به عادتهم، وكان ذلك منظراً مقزّزاً، ربّما يكّلفني في مرّة قادمة فقدان شهيّتي. وطوال تلك الليلة البائسة لم أنم سوى ساعتين فقط قبيل الصبح، واعتبرت ذلك وقتاً كافياً كوني قضيتهما في بيت عربيّ، كما كنت أتوقّع.

لقد كان الآغا رجلاً سميناً ذا وجه أحمر، وعمره نحو خمسين عاماً. وقد أخبرني أن الطريق إلى نابلس محفوفة بالخطر ولكنه سوف يرسل معي رجلاً مسلّحاً يرافقني إلى نابلس[١].

---

(١) يلاحظ أنّ ويليام تيرنر في سرده لوقائع رحلته بين العرب والأتراك بدا شديد التعصب والعنصرية والابتعاد عن الموضوعية والدقّة.

(٦)

رحلة الملكة كارولاين ملكة بريطانيا سنة ١٨١٤

رحلات وأسفار صاحبة الجلالة كارولاين ملكة بريطانيا العظمى، تأليف أحد أفراد حاشيتها[١]

يقول المؤلف في وصف رحلة الملكة - التي أصبحت في ما بعد أميرة ويلز- من الناصرة والجليل إلى القدس مروراً بصانور ونابلس[٢]:

وفي الساعة السادسة وصلنا إلى قرية صغيرة حيث قضينا تلك الليلة، وقد أضفى عليها غروب الشمس مظهراً جميلاً في الوقت الذي أوشكنا فيه على الوصول إلى ذلك المكان. وهنا لاحظنا مرّة أخرى شجر الصبّار يستخدم سياجاً للبساتين وينمو بأحجام هائلة، بحيث يبلغ ساق النبتة الواحدة منها أضخم من جسم الرجل، وأخشابها ليفيّة لا تصلح لأيّ استعمال آخر غير الوقود، والجراح التي تسببها أشواكها الدقيقة غير المرئية للأشخاص الذين يغامرون بالاقتراب منها شديدة الإزعاج ولاسيّما في هذا الطقس. وهي كذلك خطرة على الأوروبيين. إنّ زهراتها البديعة الألوان تجعلها ذات منظر رائع في وسط أسلحتها التي تحفّ بها.

إنّ التلّة التي تقع عليها القلعة[٣] تقف فوق الجانب الجنوبي للوادي[٤]، وتحدّها تلال أخرى من كلّ جانب، وتبلغ نحو ميلين عرضاً في خمسة أميال طولاً. وقد صمد هذا الحصن في وجه الجزار عندما كان والياً على دمشق، وأرغمه على رفع الحصار بعد شهرين.

وعندما صعدنا إلى القلعة حصلنا على الإذن بالدخول عبر بوابتها، تحت ممرّ ذي عقود ومظلم تماماً بسبب طوله المؤذي ومنعطفاته الكثيرة.

---

(١) Voyages and Travels of Her Majesty Caroline Queen of Great Britain, by One of Her Majesty's Suite, Jones and Co., London, 1821، وبدأت رحلتها من لندن في التاسع من آب سنة ١٨١٤م. وكان من حاشيتها الليدي تشارلوتي ليندزي (Lady Charlotte Lindsay) والليدي إليزابيث فوربس (Lady Elizabeth Forbes) والكولونيل ليجر (Leger) والسير ويليام جيل (Sir William Gell) وآخرون. وقد عاشت الملكة كارولاين بين سنتي ١٧٦٨ و ١٨٢١، وتعرّضت في حياتها لمشكلات عديدة. ونزع عنها لقب (ملكة).

(٢) ص ٦٢٤- ٦٢٦، ويلاحظ وجود تشابه كبير بين وصف صانور في هذه الرحلة ووصفها في رحلة إدوارد دانييل كلارك السابقة الذكر التي قام بها سنة ١٨٠١م، أي قبل رحلة الملكة بثلاث عشرة سنة، وقد يكون ذلك دليلاً على أنّ أحد أفراد الحاشية الذي دوّن رحلة الملكة ربما يكون كلارك نفسه، وأنه اعتمد في بعض ما دوّنه في هذه الرحلة على ما سبق له وصفه في رحلته القديمة. ومع ذلك فإنّه توجد اختلافات طفيفة بين الرحلتين. فرحلة كلارك كانت من طبريا إلى صانور، بينما رحلة الملكة فكانت من الناصرة والجليل إلى صانور، وكان الوصول إلى صانور في رحلة كلارك السابعة مساءً، أمّا الوصول إلى صانور في رحلة الملكة فكان السادسة مساءً، وبينما ذكر كلارك اسم قلعة صانور فإنّ رحلة الملكة وصفت البلدة والقلعة دون أن تذكر اسمها، كما أنّ كلارك بحث علاقة صانور بالسامرة، ولم تبحث رحلة الملكة ذلك.

(٣) في كلارك: قلعة صانور، ومن هنا يبدأ التطابق مع رحلة كلارك.

(٤) في كلارك: لأحد الأودية.

ومن المؤكّد أنّ هذه القلعة كانت في أيام الحروب الصليبية منيعة، مع أنه لا يوجد أي رواية عن ذلك لدى أي مؤلّف، ومن المؤكد أيضاً أنّ إنشاءها لم يتأخّر عن زمن الحروب المقدّسة[1]. وقد استقبلنا حاكم القلعة في حجرة ضخمة تشبه ما نطلق عليه في بعض قلاعنا النورمانية القديمة"The Keep" التي تشبهها إلى حدّ كبير، هذا إذا اعتبرنا أنّ جزءاً من هذه القلعة قد أنشأه النورمان خلال تلك الحروب (الحروب الصليبية)، وأن من الممكن أن يكونوا قد حاكوا فيه مبانيهم الأصلية. وقد كان هناك عددٌ من الأسلحة كالبنادق والمسدّسات والسيوف والخناجر معلّقة على الجدران، وإلى جانب ذلك كانت هناك سروج وركاب مطليّة وأثاث وكسوة فاخرة تعود كلّها لسيّد القلعة (Lord of Citadel).

وعلى أرض الحجرة كان يربض كلبه السلوقيّ بينما كان مدرّبو صقوره ينتظرون في الباحة مقابل باب الحجرة، وكان كلّ شيء يساعد على استعادة صور الأزمنة الغابرة، وبدت مشاهد العصور القديمة ماثلة أمام عيوننا.

أما شخص الحاكم نفسه فلم يكن أقلّ الأجزاء إثارةً في هذه الصورة الحيّة. فقد كانت له لحية حمراء طويلة وكان يرتدي ملابس تتميز بالأبهة الإقطاعية والفخامة العسكرية، ممّا يستحيل تخيّله.

لقد استقبلنا (الحاكم) بحسن الضيافة المعهودة من أهل بلده، وصَرَفَ المُرافق الذي صحبنا من عكا، وبدا فخوراً بأن نكون تحت حماية عساكره المتميّزين، كما سمح لنا بحارس خاصّ اختاره لنا من قواته الخاصّة ليضمن سلامة وصولنا إلى نابلس.

وقد جرى بيننا وبينه بعض الحوار حول الوضع المضطرب في البلاد، وخاصة في منطقة الجليل، وقال بأنّ الثوّار العرب يوجدون بأعداد كبيرة على التلال بالقرب من مرج ابن عامر، وأنهم في هذه اللحظات الحاسمة مدفوعون بدوافع الرغبة العارمة والملحّة للأخذ بالثأر، وذلك بسبب الخسائر التي تكبّدوها في أعقاب الاعتداءات التي شنّها جيش الجزار. وقال لنا بأنه يرى أن علينا تجنب الاستجابة لأي تحرّشات تصادفنا في طريقنا إلى القدس.

(٧)

رحلات جيمس سلك بكنغهام(*) في فلسطين ١٨١٦(**)

يقول عن بدء رحلته إلى نابلس في ١٥ شباط ١٨١٦[1]:

---

(١) يقصد الحروب الصليبية.

(*) رحالة بريطاني، عاش بين سنتي ١٧٨٦و ١٨٥٥، ولد في بريطانيا، وعمل في التجارة، وتعلّم العربية، وفي الفترة من ١٨٣٢ إلى ١٨٣٧ كان عضو مجلس النواب عن شيفيلد، ألف كتابين عن رحلاته. بدأ رحلته من ميناء الإسكندرية في ٢٥ كانون الأول سنة ١٨١٥ إلى سوريا ومنها إلى صور ثم عكا ثم إلى الناصرة. وقد توجه عبر مرج ابن عامر إلى جنين ثم صانور في ١٥ شباط ١٨١٦.

(**) James Silk Buckingham, Travels in Palestine Through the Countries of Bashan and Gilead East of the River Jordan, 2 Vols. London, Longman, 1822.

"إنّ الطريق إلى نابلس كان يعتقد أنها بالغة الوعورة، حيث لا يحاول سلوكها بدون قافلة إلاّ عددٌ قليل، وبعد جهد بالغ استطعنا أن نجد رجلاً من سكان تلك البلدة كان يقيم في هذا المكان ليرافقنا مقابل خمسة عشر قرشاً وأن يحمل لنا رسالة من السيّد كاتافاغو (Mr. Catafago**) رسالةً إلى صديقه الحاج أحمد جرّار زعيم صانور، وعلى ذلك غادرنا الناصرة حوالي الساعة العاشرة في طريقنا إلى وجهتنا".**

ويصف طريقه من جنين إلى قباطية وصولاً إلى صانور قائلاً[٢]:

"وفي نحو الساعة العاشرة (مساءً) وصلنا إلى أسفل التلّ شديد الانحدار الذي بنيت عليه بلدة صانور المحاطة بالأسوار، ثمّ ترجّلنا عن خيولنا ومشينا صعوداً حتى وصلنا إلى البوابة، وطلبنا إذناً بالدخول لسائح إنجليزي في طريقه إلى نابلس ومعه رسالة من رئيس الدير في الناصرة، وأنّه يلتمس الحماية لدى الحاج أحمد جرّار[٣] زعيم المكان. وقد أَبْلِغَتْ رسالتنا في الحال إلى ذلك الحاج المبجّل، وخلال دقائق كانت البوابات تفتح لنا، وتم استقبالنا بترحاب بوصفنا غرباء بل أكثر من ذلك كأصدقاء.

ولدى اصطحابنا إلى الزعيم وجدناه يجلس على مقعد حجري في ساحة منزله يحيط به ثلّة من رجاله الذين بدا عليهم أنهم فخورون بنيلهم شرف الجلوس بصحبة الملوك تماماً مثل الزعماء الروحيين القدماء.

ولدى دخولنا وقف الجميع لاستقبالنا، وفُرش لنا بِساط، ووضعت لي وسائد على يمين الزعيم، كما قدّم العلف لخيولنا، وتمّ إعداد العشاء لَنا، وقدّمت لنا جميع أشكال الضيافة والعناية.

وفي غمرة حوارنا مع هذا الرجل الجديد بالإجلال والاحترام على ما يبدو، فقد نسيت تماماً أن أسلّم إليه الرسالة التي أحملها إليه إلى أن أنهينا طعام العشاء وقدّم لي نارجيلته الخاصّة.

وما أن تلقّى الرسالة حتى أرسل في الحال في طلب أحد المتعلمين الشباب، فقام بقراءة محتوى الرسالة بصوت مرتفع، فأصغى الجميع وأعربوا عن سرورهم بها لأنها كانت حافلة بعبارات المديح الفائق. وقد كان من دواعي سروري على أية حال، أنّ هذا المُضيف الجواد أبدى كلّ ما أبداه من حسن الاستقبال وكريم الفعال البالغة أقصى الحدود قبل أن يطّلع على فحوى الرسالة التي تصفني ورفاقي بالحكمة والموهبة والشرف والثراء، فهذه الأوصاف لن تجعل هذا المضيف الكريم يقدّم لنا أكثر ممّا قدّم.

وقد تركز حوارنا في ذلك المساء على الأوضاع في أوروبا ولا سيّما تلك البلدان التي زرتُها وتلك التي أودّ أن أزورها.

ولمّا كان الزعيم نفسه قد زار مكّة مرّتين انطلاقاً من دمشق فقد تعرّفت منه على بعض الأمور الدقيقة في تلك الطريق، وتحدثنا كثيراً عن بعض تلك الأماكن في الجزيرة العربيّة التي رآها كلانا، وخاصّة موانئ الحجاز.

---

(١) ٢: ٣٧٨، وانظر كتاب: رحلات في الأردن وفلسطين، سليمان موسى (المجموعة الثانية) ص ٣٨، منشورات دائرة الثقافة والفنون، عمّان، ١٩٨٧.

(٢) ٢: ٣٨٥- ٣٨٨، وكتاب رحلات في الأردن وفلسطين ص ٣٩- ٤١.

(٣) هو الحاج أحمد آغا ابن الشيخ يوسف الجرّار.

وقد هيء لي - بعد ذلك- فراشٌ فاخر في غرفة منفردة مع أغطية نظيفة ووسائد مغطّاة بالحرير، كما اتّخذت جميع الترتيبات اللازمة من كلّ ما يتمنّاه المرء لراحتي.

وكان من بين الحضور المجتمعين حول النار في الساحة (لأنّ ذلك المساء كان بارداً وقارصاً) رجلٌ كبير السنّ هاوٍ للبنادق والمسدّسات يدعى الشيخ إبراهيم، وقد سألني ألف سؤال عن أسماء الصانعين المشهورين في مختلف عواصم أوروبا، وقد أحضر لي على الأقلّ عشرين قطعة مختلفة كي أفحصها له. لقد كان شغفه بالسلاح شديداً إلى درجة أنّه ربّى ابنه ليكون حدّاد أسلحة، لكنّه هو نفسه كان قد علّم نفسه بنفسه، وكان من بين قطع السلاح الناري التي أراني إياها وهي من صناعة ابنه وهي تقليد لقطع إنجليزية عليها اسم ويلسون، كان هناك عدة قطع ممّا يفخر به أيّ فنان أوروبي.

وعندما تحدّثنا عن دقة العمل التي بلغتها هذه الصناعة في إنجلترا والوسائل المتطوّرة التي تستعمل في الصناعات المعدنية هناك، حيث كنت أنا بنفسي مطّلعاً إلى حدّ ما عليها، أقسم هذا العجوز على ذقنه بأنني لو أخذته إلى تلك البلاد لأشهر قليلة فقط ليشاهد تلك العجائب -كما سمّاها- فإنه سوف يخدمني في أقصى طاقة الخادم، أو كجندي أو سائس خيل أو أي شيء آخر، فور طلبي ذلك منه وطوال مدّة الطريق.

وواصلنا السهر حتى بعد منتصف الليل، مع فترات صمت قليلة، وكان كلّ شيء رأيته من ذلك الزعيم الحاجّ المبجّل خلال ذلك الوقت قد رسّخ لدي الاعتقاد بأنّ هذا الرجل خيرّ وطيّب القلب وحليم أكثر من أي شخصٍ شاهدته بين الأتراك والعرب على السواء. وزيادة في إكرامه لنا وتفضله علينا فقد أصرّ على أن يرسل معنا من فرسانه الخاصّين من يصحبنا إلى نابلس، وذلك لضمان سلامتنا وأمننا على الطريق التي وصفها بأنها لا يمكن سلوكها من غير حماية من هذا النوع.

وقد أمر لنا بذلك، ثم ودّعنا ذلك الرجل العجوز المتميز، حيث كنّا قد عزمنا على المغادرة عند شروق الشمس، وكان علينا أن نستريح قليلاً لننهض مبكّرين.

وفي السابع عشر من شباط استيقظنا مبكرين مع الفجر وقدّم لنا مضيفونا قهوة الصباح وزاداً لنا خلال الطريق، وبعد أن غادرنا البلدة وسرنا جنوباً في وادٍ ضيّق وصلنا في الساعة الثامنة إلى قرية كبيرة تدعى جبع، وهي تقع على تلة محاطة بالأودية ومليئة بأشجار الزيتون".

* * *

ولدى وصوله إلى نابلس علم بكنغهام أنّ القافلة المتجهة إلى دمشق قد غادرت قبل ثلاثة أيام، فيتابع قائلاً[1]:

"فأصرّ الفارس الذي أرسله معي الحاج أحمد جرّار، بما أنّ القافلة قد غادرت وأننا أصبحنا منقطعين تماماً في هذا المكان، أصرّ بأنّه لن يفارقني حتى اتخاذ بعض الترتيبات للمتابعة، واقترح أن أعود معه لصانور حيث سيوصلني هناك بأمان. وتمّ الاتفاق على ذلك كونه الخيار الوحيد المتبقي".

---

(١) ٢: ٣، ٤، رحلات في الأردن وفلسطين ص ٤١.

ثمّ يصف العودة إلى صانور قائلاً[1]:

"سمعنا أذان العصر عند دخولنا نابلس ثانيةً، ولكن لعدم وجود مجال لإضاعة الوقت، فقد بدأنا رحلة العودة إلى صانور. خرجنا من البوابة الشمالية لنابلس وصعدنا تلة هناك كي نسلك طريقاً أقصر، وهناك شاهدنا منظراً عاماً للمدينة وللوادي الذي تقوم فيه. ولم يكن هناك شيء أكثر إثارة من هذا المنظر، تلال عيبال وجرزيم الشاهقة تقترب من بعضها بعضاً، والوادي الخصب الجميل على سفوحهما المغطّى بغابات الزيتون والمساكن المدهونة باللون الأبيض والمآذن العالية التي تحفل بها المدينة مقابل تلك المشاهد، مؤلّفة معاً صورة أخّاذة.

وعندما بعدت المدينة عن مرأى عيوننا فإنّ بقية رحلتنا أصبحت في طريق وعرة وتلالٍ جرداء أمضيناها بين صعودٍ ونزول، وهي في مجملها طريق لم يطأها أحدٌ من قبل ولم يسكنها أحد حتى ولا أي أثر للحياة فيها، حتى وصلنا إلى قرية جبع القريبة من صانور، عند غياب الشمس، وأخذنا نحثُّ خيولنا بالهمز خلال بقية الطريق إلى صانور على أرضٍ مستوية. وقد وصلنا وقت تناول العشاء الذي جرى تأخيره من قبل مضيفنا اللطيف خصيصاً إلى حين وصولنا، منذ اللحظة الذي وصله فيها نبأ مشاهدتنا من بوابات القلعة متجهين نحو الحصن بسرعة شديدة عبر الوادي.

لا شيء يفوق حجم الحفاوة التي استقبلنا بها لدى عودتنا، فقد أبدى الزعيم ورجاله سعادة ممزوجة بالإخلاص والحرارة. وقد تناولنا العشاء معاً بأطباق متنوعة وفاخرة، وعندما أنهينا العشاء أخذ بقية الحضور دورهم في الطعام كما هي العادة عندهم.

وقد كان حوارنا مهمّاً مثل الحوار الذي دار في الليلة الماضية، ولكنّ من أكثر ما ندمت عليه - كما فعلت ألف مرّة من قبل- استحالة تذكّر جميع الملاحظات الجديدة الشيّقة التي تمرّ خلال هذا النوع من اللقاءات والاجتماعات.

وعندما أعربت في ذلك الحوار عن خيبة أملي من عدم اللحاق بالقافلة المتجهة شمالاً أخذ الحاج أحمد يلحّ عليّ بأسلوبه اللطيف جداً أن أبقى في ضيافته حتى الشهر القادم حتى موعد مغادرة القافلة المتجهة من نابلس إلى دمشق مرّة أخرى، مؤكّداً لي في الوقت نفسه أنه سيبذل قصارى جهده في سبيل توفير الراحة لي.

وقد أعربت له عن امتناني الشديد لهذا الكرم البالغ، وأخبرته أنّ ما أفكر فيه في هذه اللحظة هو أنني أتمنى أن أجد أي وسيلة لردّ هذا الجميل فأجابني، بأنه إلى جانب استمتاعه بعمل الخير ومؤانسة الغريب البعيد عن دياره ووطنه وأصدقائه، فإنه يجد أنّ الحقائق المشوّقة في معرفتي بالشعوب الأخرى والبلدان الأخرى التي أصبحت على اطّلاع بها تجعل حواري معهم مهمّاً وتجعلني مقبولاً لديهم وضيفاً مرحباً به.

وإذا ما تبعت رغبتي فإنني أتمنى لو أبقى هنا لعدة أيام أخرى على الأقل، لكنّ واجبي يدعوني إلى القيام بمهامّ وجهود جديدة، ولذلك صممت على العودة إلى الناصرة للقيام بأبحاث جديدة.

ولما أُعلم المضيف بهذا التصميم، بذل كلّ ما يستطيع كي يثنيني عن ذلك، وكان ذلك موضوع حوارنا الطويل لليلة الرحيل، ثم أويت إلى النوم في الفراش الفاخر الذي نمت به الليلة السابقة، وقد أعدّ ذلك الفراش بإشراف خازن دار الزعيم أو خازن مجوهراته شخصياً.

---

(١) ٤٦٦- ٤٧١، رحلات في الأردن وفلسطين، ص٤٣- ٤٥.

لقد اقتضى الذوق أن لا أتوجّه بأي أسئلة مباشرة عن قلعة صانور، وبما أنني لم أجد أي فرصة لمشاهدتها إلاّ من الخارج ماعدا الجزء الصغير الذي مررت من خلاله في رحلتنا من بوابة القلعة إلى البيت، فإنني عرفت قليلاً عنها أكثر من الخطوط العريضة. إنها بلدة مسوّرة، تقع على تلّة، ذات انحدار من جميع الجهات، وتُطلّ على منظر وادٍ عريض جميل أو مرجٍ ممتدٍّ شمالاً، ومرجٍ أضيق قليلاً في الجهة الجنوبية، وكلاهما خصب.

وقد بنيت أسوار صانور بناءً متيناً، و هي في الغالب عربيّة المنشأ والمعمار. وللقلعة بوابتان ومدخلان في حيّين متقابلين، غير أن المساحة الكلية للأسوار أقل من نصف ميل. إنّ البيوت بداخل البلدة مزدحمة لكنها مبنية بناء قويّاً، وطرقها ضيّقة، و عدد سكانها ضخم قياساً بحجم المكان، وجميع سكانها مسلمون.

يتبع الحاج أحمد جرّار زعيم صانور لدمشق، ولكنه يتمتع بسلطة مطلقة في مناطق حكمه، حيث لا توجد أي قوات عسكرية حكومية ولا مندوبون للحكومة في مناطق نفوذه.

إنّ حكمه إقطاعي بالكامل، وتتبع له عدة قرى وبلدات أخرى بالإضافة إلى أراضٍ واسعة ممتدة حول هذه القرى والبلدات تتبع لنفوذه وسلطته وإرادته.

وعلى الرغم من سلطته المطلقة إلاّ أن استخدامه لها كان ودّيّاً، وكان يحكم باللين والرفق ممّا جعل رعاياه يبدون الابتهاج بما يمنحه لهم من الرفعة والامتيازات وأسباب السعادة.

وحسبما شاهدته بنفسي فإنّ كل شيء تحت حكم هذا الرجل الأبويّ المعتدل قد لبس لباس العدل والأمن والرخاء والعافية والرضا، وأسّس لصورة رائعة من صور التغاير البنّاء الذي يمكن مشاهدته في بلدان العرب والأتراك.

وفي ١٨ شباط غادرنا إلى الناصرة في رحلة لا تزيد عن يوم واحد، ولكنّ الحاج أحمد جرّار لم يدعنا نغادر قبل أن نتناول طعام الإفطار الذي كان أمر بإعداده لنا في الليلة الماضية، وقد شاركنا فيه أيضاً.

وعند بدء الرحلة قال بأنه يتمنى لو يرجعوننا من الناصرة إلى صانور ثانية للبحث عن قافلة دمشق، وتمنى عليَّ كذلك أن أعده إن جئت ثانية إلى سوريا أو فلسطين إمّا خلال عودتي من الهند أو أي فترة لاحقة، أن أحضر عنده وأقيم في القلعة شهراً على الأقلّ.

(٨)

رحلة الدكتور روبرت ريتشاردسون ١٨١٦- ١٨١٨[(١)]

رحلات عبر البحر الأبيض المتوسّط وأجزاء مجاورة برفقة حاكم مقاطعة بلمور خلال السنوات ١٨١٦و ١٨١٧و ١٨١٨[(٢)]

يقول في وصف رحلته من نابلس إلى جنين بعد مروره بسبسطية وبيت إمرين:

"وبعد أن غادرنا ذلك الوادي قطعنا الجبال إلى جهة اليسار، وبعد مسير نحو ساعة عبر وادي ضيّق وعرٍ ومليء بالحجارة، وصلنا إلى قرية جبع المحاطة بأشجار الزيتون والرّمان، وكان الرّمان فيً كامل إزهاره، وتحتلّ هذه القرية موقعاً شاهقاً يطلّ على وادٍ صغير. و من جبع واصلنا السير عبر وادي صانور، وقرية صانور حصن يقوم فوق جبل معزول يبرز في منتصف الوادي، واسمها الشائع بين الناس قلعة جرّار (Gala Giurali) أو (Fort Jurali)، و هو اسم مأخوذ من جرّار (Giurali) وهو اسم الزعيم الذي يحكم ذلك البلد.

وبعد بضعة أميال من هذا المكان وصلنا إلى قباطية (Abata) و هي قرية جميلة على يميننا وتشبه في موقعها قرية جبع، حيث تقع بين أشجار الزيتون والرّمان. ويقال إن السكّان مضيافون ولطيفون وبشكل خاصّ مع الغرباء، لكنّنا لم نتوقف لنجرّب كرمهم وضيافتهم".

---

(١) Robert Richardson, Travels along the Mediterranean and Parts Adjacent, in Company with the Earl of Belmore, 2 vols., London, 1822 .

(٢) ٢: ٤١٦.

(٩)

رحلة وليام جويت في سنتي ١٨٢٣، ١٨٢٤(*)

أبحاثٌ مسيحية في سوريا وفلسطين في سنتي ١٨٢٣و ١٨٢٤ (١)

يقول المؤلف عن القدس ونابلس وصانور(٢):

"وفي سياق تقاسم السلطة إلى مناطق نفوذ كبيرة وتقاسم هذه المناطق إلى سلطات فرعية أحياناً عن طريق التعيين وأحياناً عن طريق منح السلطة المطلقة، فإنّ ثمّة شيئاً يذكّر الرحّالة بصورة تلقائية بأزمنة النظام الإقطاعي [في أوروبا]، حيث تجد في كلّ رحلة من رحلاتك التي لا تستغرق أكثر من يوم أو يومين أميراً جديداً أو حاكماً جديداً وأحياناً ملكاً جديداً. لقد وجدت أنّه في المسافة القصيرة من القدس إلى صانور عن طريق نابلس، أنّ حكّام هذه المدن الثلاثة قد جرى تقديمهم لي باعتبار كلّ واحد منهم حاكماً مستقلاً عن الآخر استقلالاً تامّاً، وكلّ واحد منهم ملكٌ في منطقة نفوذه، إلاّ أنّهم جميعاً مسؤولون أمام باشا دمشق، يغيّرهم وقتما يشاء، وربّما لا يدري أيّ واحد منهم حدود صلاحياته".

(*) وليام جويت (١٧٨٧ ــ ١٨٥٥)، رجل دين بريطاني ومؤلف، عمل في مالطة وسوريا وفلسطين، حصل على البكالوريوس سنة ١٨١٠ والماجستير سنة ١٨١٣، وله عدّة مؤلّفات.

(١) William Jowett, Christian Researches in Syria and Palestine in 1823, 1824, New York, Thomas George, 1836.

(٢) ص ٨٦.

(١٠)

رحلة جوسياس بورتر ١٨٢٤[١]

الرحّالة الحديث

يقول في وصف الطريق من نابلس إلى الناصرة[٢]:

"إنّ الطريق التي سلكها الدكتور ريتشاردسون (Dr.Richardson) تمرّ الآن عبر الجبال الواقعة إلى الشرق من سبسطية، ثمّ تنحدر نحو مبنى مهدوم يسمّيه أهل تلك البلاد بيت إمرين (بيت الأميرين) بجانب قرية تحمل الاسم نفسه، وبجانبها جدول ماء.

وبعد أن يترك هذه القرية يواصل قائلاً: "ثم قطعنا الجبال إلى الشمال، وبعد مسير نحو ساعة من الزمن عبر وادٍ صغير ضيق شديد الوعورة ومليء بالحجارة، وصلنا إلى قرية جبع، وهي محاطة بأشجار الزيتون والرمّان، وكانت أشجار الرمّان في كامل إزهارها. وهي تحتلُّ موقعاً شاهقاً يطلُّ على وادٍ صغير. ومن جبع واصلنا المسير عبر الوادي إلى صانور، وهي عبارة عن حصن يقف فوق جبل منعزل يرتفع في وسط ذلك الوادي، ويقال لها قلعة جرّار، نسبة إلى اسم الزعيم الذي يحكم تلك البلاد. وبعد بضعة أميال وصلنا إلى (Abata)، قرية جميلة على يميننا، وتشبه في موقعها موقع جبع بين أشجار الزيتون والرمّان. ويقال إن السكان مضيافون ولطفاء مع الغرباء. لكننا لم نتوقف لنجرب ضيافتهم، بل واصلنا طريقنا عبر واد ضيق واجتزنا جبلاً آخر على اليسار، حتى وصلنا إلى مرج ابن عامر الجميل، ثمّ انحدرنا إلى بقعة مستوية مليئة بالحجارة وفيها نباتات شوكية، ثمّ نصبنا خيامنا خارج البلدة، وبذلك نكون قد سافرنا في ذلك اليوم ثماني ساعات"[٣].

صانور (Sanoor) أو صانهور (Sanhoor) وقد سمّاها الدكتور كلارك: سانتوري (Santurri)، وهي تستحق وقفة متأنيّة أكثر، وقد وصفها بأنها تبعد ثلاث ساعات أو تسعة أميال عن جنين.

أمّا قلعتها التي يصفها بأنها كثيرة الشبه بالقلاع القديمة في إنجلترا، فهي قوية جداً، وقد صمدت أمام الجزار باشا –عندما تولى باشويّة دمشق- لمدة شهرين، ثمّ أرغم على رفع الحصار. ومن المؤكد أنها كانت في أيام الصليبيين شديدة المنعة، ومع ذلك –يقول الدكتور كلارك- فإنه ليس لها ذكر لدى أي مؤلف، وبالتأكيد فإنّ تاريخ بنائها ليس متأخراً إلى ما بعد الحروب الصليبية بل أقدم من ذلك.

وإذا ما أعطي الرحّالة الحديث تهجئة اسمها بدقة فإنه سيلاحظ أن اسمها –سواءً من حيث المعنى أو اللغة- هو "البرج المقدس"[٤] ممّا يؤكد أنها ترجع لعصر الحروب الصليبية.

---

(١) Josias Porter, The Modern Traveller, a popular description of the various countries of the globe: Palestine, London, 1824.

(٢) ص ٢٦٢- ٢٦٤.

(٣) انظر رحلة ريتشاردسون سنة ١٨١٦- ١٨١٨.

(٤) Santurri مؤلفة من Saint أي مقدس، و Turri أي برج.

ولكن بدون شكّ فإن المؤلفين الأقدم قد سَمَّوْها باسمها الأصليّ. إنّ صمتهم المفترض على أية حال هو الذي أغرى الدكتور كلارك في أن يخاطر في حدسٍ غريب يرى فيه أن صانور هو موقع السامرة (Samaria)، وذلك أنه رغم تنقّله عبر الأرضً المقدسة فقد نسي أن يزور أو حتى يلقي نظرة على سبسطية.

إنّ هذه التلة (صانور) تشرف على منظر الوادي العريض الجميل في الجهة الشمالية، وهي محاطة بتلال أخرى من جميع الجهات، وبعرض ميلين وطول خمسة أميال. أمّا الوادي من الجهة الجنوبية فإنه أضيق، وكلا الجانبين خصبان وتجري فلاحتهما.

إنّ الصعود إلى القلعة حادٌّ من جميع الجهات. أمّا أسوار البلدة فإنها ذات بناء قويّ، ويظهر بجلاء –كما يقول السيّد بكنهجام- أنه من البناء العربي القديم، وأنّ محيطها هو أقلّ من نصف ميل، ولها بوابتان في الشطرين المتقابلين. وقد بنيت منازلها بإتقان، ولكنّ طرقاتها ضيّقة، وجميع سكانها مسلمون.

إنّ حاكمها- الذي جاء بعده الحاج أحمد جرّار- تابعٌ لدمشق، لكنه حاكمٌ مطلق الصلاحية في منطقة نفوذه التي تضمّ عدة بلدات وقرى مع أراض شاسعة حولها، كما لو أنها لسيّد إقطاعي. ويوصف الحاج أحمد بأنه ذو شخصية ودودة وأبويّة، وبأنّه قد لاحت على وجه بلده علامات الفرح والسرور بآثار رفقه برعاياه وحكمه الأبويّ اللطيف.

(١١)

رحلة وليام راي ويلسون سنة ١٨٢٤[١]

رحلات في مصر والأرض المقدسة[٢]

يقول في وصف طريقه من نابلس إلى الناصرة مروراً بصانور[٣]:

"وفي صباح يوم الاثنين خرجت من مكان إقامتي الذي يرثى له وغادرت نابلس، مجتازاً قمة جبل عيبال، ومررت عبر الجبال. وكان حصن صانور[٤] في الوادي على الجانب الأيسر قد بدا للعيان، وكان مصمّماً بشكل جيّد ليقوم بمهمة الدفاع عن الممرّات في تلك المنطقة. ولدى وصولنا إلى نهايته وجدت قطعة كبيرة من الأرض مغطّاة بالماء، إلاّ أنّ الماء ليس عميقاً إلى الدرجة التي تحول دون خوض البغال فيها.

ومع غروب الشمس وصلت إلى قرية جنين".

---

(١) رحّالة بريطاني ولد سنة ١٧٧٢، له رحلات عديدة منشورة منها رحلة إلى تركيا واليونان وإسبانيا سنة ١٨٢٤، وأخرى إلى النرويج والسويد والدنمارك سنة ١٨٢٦، وثالثة إلى روسيا سنة ١٨٢٨، وغيرها.

(٢) William Rae Wilson, Travels in Egypt and the Holy Land, the Second Edition, London, Longman, 1824.

(٣) ص ٢٠٥.

(٤) في الأصل The Fortress of Santori.

(١٢)

رحلة جون مادوكس في ١٢ آذار ١٨٢٥

رحلات قصيرة في الأرض المقدّسة ومصر و النوبة وسوريا[(١)]

يقول في وصف الطريق من الناصرة إلى نابلس مروراً بصانور[(٢)]:

"في ١٢ آذار غادرنا القرية (جنين) مبكراً، وصعدنا بعض الجبال الصخرية، ومررنا ببعض المروج الخضراء، واقتربنا من بحيرة كبيرة، من النادر أن شوهدت بهذا الحجم قبل الآن، وهي ناجمة عن كمية الثلوج والأمطار التي هطلت في هذا الموسم[(*)].

وقد مررنا كذلك بالقرب من قلعة منيعة على التلّة تدعى قلعة صانور[(٣)]".

(١٣)

رحلة ميتشاو وبوجولا سنة ١٨٣٠ - ١٨٣١[(٤)]

مراسلات من الشرق

يقول بوجولا في رسالة كتبها من القدس يصف جانباً من مشاهداته في عكا وصانور في السادس والعشرين من نيسان ١٨٣١[(٥)]:

وفي إحدى رسائلي التي أرسلتها من القدس تحدثت عن حصار قلعة صانور، واسم هذه القلعة يوحي لي بأنه من أصل إفرنجي، وهي تحوير لكلمة سنيور (Senior) أو (Seignor)، فقد سقطت هذه القلعة بعد ستة أشهر من الحصار، وسقط أكثر من ستة آلاف من المهاجمين برصاص المدافعين أو إثر أمراض ومجاعات.

وقد كانت المجاعة على المدافعين عن قلعة صانور أشدّ منها على قوات عبد الله باشا، ممّا جعلهم يستسلمون.

---

(١) John Madox, Excursions in the Holy Land, Egypt, Nubia, Syria & c. 2 vols. London, 1834.

(٢) ٢/٢٠٧.

(*) البحيرة التي يتحدث عنها هي بحيرة مرج صانور.

(٣) في الأصل Callar Seagur.

(٤) Michaud M. Et Poujoulat M., Correspondance d' Orient, 1830- 1831, Paris, Daucoliet, Libraire-Editeur, Vol. 5, 1834.

(٥) ج ٥، ص ٤٢٤- ٤٢٥.

وسرعان ما تحولت هذه القلعة إلى حطام، ولم يتبق منها سوى التلة الصخرية التي كانت مبنية عليها. وممّا يزيد من عظمة هذا النصر أن الجزّار باشا قد سبق وحاصر هذه القلعة لعدة سنوات دون أن يستطيع إخضاعها. ولكن تحطيم القلعة لم يُنه الحرب، فما زال الفلاحون المنتشرون في نابلس مستمرين في ثورتهم مع حماسة جديدة.

ولم يستطع الراهب كاتافاغو أن يترك هذا النصر دون احتفال، وقد أقام حفل عشاء في منزله الخاص لعبد الله باشا على الطريقة الأوروبية، ليبدو وكأنه يريد أن يقول لعبد الله باشا المنتصر إنّ الفرنجة أنفسهم ما كانوا يستطيعون بمفردهم أن يحرزوا نصراً أفضل ممّا أحرزت[1].

قال لي السيّد كاتافاغو سرّاً إنّه خلال هذا الاحتفال كانت تجري أنهار النبيذ والخمور الأوروبية بغزارة لدرجة أنّ الباشا المنتصر الذي اندفع في التقاليد الأوروبية فقد عقله وخسر قصره ولم يستطع استعادته إلاّ بعد عناء كبير.

وكان هذا العشاء يقام بسرّية تامّة وأبواب مغلقة. وكان الوزير قد سرّح كل حاشيته بعيداً عن المكان.

وفي الصباح الذي تلا هذا الاحتفال قام عبد الله باشا ومن باب ردّ الجميل بإرسال خاتم مرصّع بالألماس باهظ الثمن للسيّد كاتافاغو.

---

(١) لعلّ في هذه العبارة إشارة إلى محاولة قوّات نابليون احتلال قلعة صانور ورجوعهم عنها بعد ما لحق بهم من الخسائر (انظر رحلة بيركهارت في صفحة سابقة).

(١٤)

رحلة مايكل رَسِل سنة ١٨٣١

فلسطين أو الأرض المقدسة من أقدم الأزمنة إلى الوقت الحاضر[١]

يقول في وصف الطريق من القدس إلى الناصرة مروراً بسبسطية وجبع وصانور وجنين، ويتحدث عن كلارك قائلاً[٢]:

"وهو يميل إلى الاعتقاد بأنّ موقع السامرة (Samaria) القديم هو الأرض المرتفعة التي تقف عليها قلعة صانور (Santorri)، ولكن تفسيره لذلك ليس مقنعاً بما فيه الكفاية، ولا يمكن لعقل أيّ من قرائه أن يتقبل ذلك.

ثمّ نواصل السير شمالاً حيث يصل المسافر إلى قرية صغيرة تدعى بيت إمرين، وبعد ذلك، وعلى مسافة ثلاثة إلى أربعة أميال، يجد نفسه في جبع، وهي قرية محاطةٌ بأشجار الزيتون والرمّان وتحتل قمة شاهقة فوق وادٍ ضيّق.

ثمّ تأتي بعد ذلك صانور وهي قلعة تقف فوق تلّة معزولة، وهي معروفة باسم قلعة جرّار (Fort Giurali).

(١٥)

رحلة فيري مونرو ١٨٣٣

تجوال صيفيّ في سوريا[٣]

يقول في وصف صانور في طريقه إلى جنين[٤]:

"وبعد توقفنا لمدة ساعة ونصف الساعة، تابعنا مسيرنا، ودخلنا وادياً إلى الشرق مستصلحاً بشكل جيّد، حيث الأرض المرتفعة أقلّ صخوراً، ومغطّاة بالذرة إلى قمتها تقريباً.

وفي نهاية الوادي على جهة اليسار توجد تلّة مستديرة، وعلى رأسها آثار قلعة، تدعى صانور، وقد دمّرها قبل سنتين عبد الله باشا والي عكا، والتلّة الآن من غير أسوار، وما تزال

---

(١) Michael Russell, Palestine or the Holy Land from the Earliest Period to the Present Time, New York, Harper's Stereotype Editions, 1838.

(٢) ص ٢٠٨- ٢٠٩.

(٣) Vere Monro, A Summer Ramble in Syria with a Tartar Trip from Aleppo to Stamboul, 2vols, London, Richard Bently, 1835.

(٤) ١: ٢٧٦-٢٧٧.

آثار مدفعية عبد الله باشا ماثلة للعيان في الأماكن القريبة من القلعة وفي الأماكن المنخفضة عن الحصن. ومن المحتمل أن تكون هذه المنطقة هي التي هجم فيها أبناء يعقوب على شيكيم.

وإلى جانب هذه التلّة توجد بحيرة طولها ستة أميال تقريباً وعرضها ثلاثة أميال، وقد تشكلت في وقت قصير، من مصدر غير معروف، والأرض التي تشكلت فيها هذه البحيرة هي أرض مزروعة، وفي أماكن كثيرة منها يمكن مشاهدة عرانيس الذرة فوق سطح الماء. ومع أن سائسي البغال قد اعتادوا المرور عبر هذه الطريق إلاّ أنهم يقولون إنّهم لم يشاهدوا هذه البحيرة من قبل، حتى إنّ أحدهم لم يكن مقتنعاً أنّها من الماء إلى أن وصلنا إلى حافتها، ولكنه كان يعتقد أنها خداع السراب الذي يكون في الصحراء، وأنه يمكن أن يوجد في هذا المكان(١)".

ويقولُ في موضع آخر من كتابه في الحديث عن صانور في أثناء مروره عليها قادماً من نابلس يوم ٩/٥/ ١٨٣٣(٢):

"وبعد المسير بين هذه الجبال لمدة ساعتين ونصف الساعة، فإنّ الطريق تنحدر في وادٍ ضيق شديد الانحدار، تنبع فيه عين ماء تتخلل بساتين الرمّان القريبة، وعلى بُعْدِ ميل واحد من هذا الوادي توجد عين أخرى في المكان الذي ربّما يمثل مواقع العيون التي كانت تحت بيثوليا (Bethulia**) في المكان الذي قُيّد فيه** Achor **وقتل عن طريق خدّام هولوفيرنس، حيث جرى بعد ذلك اجتياحها من قبل خمسة آلاف رجل من الجيش الآشوري، عندما "خيّموا في الوادي واستولوا على المياه وعيون المياه" التي كان أهل بيثوليا يحصلون على مياهم منها، وذلك من أجل القضاء عليهم عطشاً وكي تستسلم مدينتهم".**

---

(١) يتحدث مونرو هنا عن مرج الغرق.
(٢) ٢: ١١.

(١٦)

رحلة جورج ستيفنز[*] ١٨٣٥

وقائع رحلة في مصر والبترا والأرض المقدسة[**]

يقول في وصف رحلته من نابلس إلى سبسطية ثم صانور إلى جنين والناصرة[١]:

"ولدى ركوبنا مارّين من خلال سلسلة من الأودية الجميلة وكلّها قريبة من ضفاف جدولٍ جارٍ، ثمّ بعد وقوفنا في ظلّ وارفٍ لشجر الزيتون من أجل تناول وجبة الغداء، وصلنا إلى صانور[٢]، وهي تقف على تلة معزولة تشرف على منظر ممتدٍّ للبلد، وكانت في ما مضى مكاناً حصيناً جداً، وله برج وأسوار، ويعتقد أنها بنيت في زمن الحروب الصليبية، ولكنها الآن مدمّرة بالكامل وتحوّلت إلى خراب. وقبل ثلاث سنوات[٣] تمت السيطرة عليها بعد حصار دام ستة أشهر فرضه عليها عبد الله باشا كبير جنود السلطان، وقد تعرض سكانها المتمردون للقتل وأحرقت بيوتهم وسوّيت بالأرض.

(١٧)

رحلة بابتستين بوجولات ١٨٣٦ -١٨٣٧

كنز تاريخيّ وأدبي: رحلة القسطنطينية

في آسيا الصغرى وبلاد الرافدين[٤]

يقول في وصف الرحلة من العفّولة إلى نابلس مروراً بصانور وجبع[٥]:

(*) رحّالة أمريكي (١٨٠٥- ١٨٥٢) كانت قافلته تتألف من خمسة جمال وأربعة مرافقين عرب والمؤلف وصديقه باول، وبدأ الرحلة في كانون الأول ١٨٣٥.

(**) George Stephens, Incidents of Travel in Egypt, Arabia Petraea and the Holy Land, (2 Vols) London, Richard Bentley, 1838

(١) ٢: ٣١٥.

(٢) في الأصل Sanpoor.

(٣) سنة ١٨٣٠.

(٤) M. Baptistin Poujoulat, Trésor Historique et Littéraire, Voyage Constantinople Dans L’Asie Mineure, En Mésopotamie, A Palmyre, en Syrie, en Palestine et en Egypte, Bruxelles, 1841

(٥) ١/٢٣٠-٢٣١.

"من العفّولة إلى نابلس اثنتا عشرة ساعة من المشي على الأقدام من الشمال إلى الجنوب، وقد مشينا في البداية لمدة ثلاث ساعات في وسط حقول مرج ابن عامر إلى أن دخلنا جبال نابلس، وقد أصبحت جنين على شمالنا. أمّا نابلس فهي منطقة جبليّة، وهذا ما يفسّر الطبع الشرس وسمة عدم الخضوع التي يتميّز بها سكّان هذه المدينة.

على بُعد ساعتين من قباطية يُطِلُّ وادي صانور الجميل، حيث استطعنا أن نرى على قمة جبل بقايا قلعة صانور، التي تعرّضت للحصار والاحتلال من قبل عبد الله باشا سنة ١٨٣١م. وقد ذكرنا حصار هذه القلعة في المجلد الخامس من مراسلات الشرق[١].

أمّا وادي صانور فهو خصبٌ جدّاً ومزروع بشكل رائع، ويمتدّ لغاية قرية جبع الجميلة".

(١٨)

رحلات روبنسون[٢] وسميث إلى فلسطين سنة ١٨٣٨ [٣]

أبحاث إنجيلية في فلسطين وجبل سيناء والبترا : جملة من الرحّلات

يقولان في وصف رحلتهما من سبسطية إلى جنين في ١٥ تموز ١٨٣٨[٤] :

"وفي الساعة الثانية والنصف انطلقنا ثانيةً وواصلنا السّيْرَ لمدة عشرين دقيقة حتى اجتزنا أضيق جزء في الوادي، وهو عبارة عن وادٍ صغير مليء بالحجارة ويطلُّ على مرج مفتوح وراءه، ثم انعطفنا نحو الشمال الشرقي، حيث بدت لنا صانور، آثار واقعة على تلّة صخرية منعزلة أمام أعيننا.

وبعيداً عن ذلك بنحو خمس عشرة دقيقة وصلنا إلى مجمع مائي في المرج، حيث لا توجد بعد ذلك مياه تنساب نحو الغرب. وقد كان الوادي ينفتح تدريجياً على مرج ممتدٍّ شرقي صانور.

وفي الساعة الثالثة وعشر دقائق وصلنا إلى نقطة على يسار الطريق كُنّا قد أُرشدنا لها، حيث كان يقام بازار أسبوعي يؤمّه الفلاّحون من المناطق المجاورة. وفي الوقت نفسه كانت قريتا ميثلون ومسيلية على مرأىً منّا على جهة اليمين ، حيث تبعد الأولى نحو نصف ساعة إلى الجنوب الشرقي، أما الثانية فتبعد ما يقرب من ساعة نحو الشمال الشرقي. وقد اجتزنا قاعدة التلّة التي تقف عليها صانور في الساعة الثالثة والثلث جاعلين القرية وآثارها فوقنا من جهة اليسار.

---

(١) انظر رحلة ميتشاو وبوجولا في صفحة سابقة.

(٢) ولد إدوارد روبنسون في أمريكا سنة ١٧٩٤، تخرج من كلية هاملتون في نيويورك سنة ١٨١٦، ثمّ اختص بالدراسات العبرية، درس في ألمانيا وعاد إلى أمريكا وعين أستاذاً للدراسات الإنجيلية في سنة ١٨٣١، وفي ١٨٣٨ ذهب إلى فلسطين وألّف كتابه عنها، وعاد إلى أمريكا وتوفي فيها سنة ١٨٦٣.

(٣) Edward Robinson, Eli Smith, Biblical Researches in Palestine, Mount Sinai and Arabia Petraea, A Journal of Travels in the year 1838, London, 1841, Vol. 3.

(٤) رحلات روبنسون وسميث ٣: ١٥١- ١٥٣.

إنّها قرية وحصنٌ قديم تقع على تلة صخرية مستديرة ذات ارتفاع شاهق، ورغم أنها معزولة في ذلك المرج إلاّ أنها متصلة مع الجبال المنخفضة في الشمال الغربي فقط بسلسلة تلال صخرية أكثر انخفاضاً.

لقد كان لهذه القرية ذات زمن شأن عظيم، فقد كان الحصن فيما مضى قويّاً جداً، وقد أصبحت بسبب الأوضاع التي مرّت بها منيعة وعصيّة على الأعداء.

وقد كانت هذه القرية تخصّ واحداً من شيوخ البلاد المستقلّين، الذي كان يعدّ رسميّاً واحداً من رعايا الباشا التركي، إلاّ أنّه لم يكن دائماً يدين له بالطاعة.

وقد قام الجزّار سيّء السمعة ذات مرّة ومعه خمسة آلاف من رجاله بمحاصرة ذلك الشيخ لشهرين في قلعته، ولكن دون جدوى. (Browne's Travels, p. 565, Clarke's Travels in the Holy Land, p. 504, this was before A.D. 1799).

وبعد أكثر من ثلاثين سنة حيث أعلن هذا الزعيم تمرّداً مفتوحاً ضدّ عبد الله باشا أمير عكا، فقد قام هذا الضابط بمحاصرة الحصن سنة ١٨٣٠، وكانت عكا قبل ذلك بعام واحد قد حوصرت من قبل الجيش المصري. وبمساعدة قوات الأمير بشير أمير جبل لبنان، فقد نجح عبد الله باشا في الاستيلاء على القلعة بعد حصار دام ثلاثة إلى أربعة أشهر، ودمّر الحصن واقتلع أشجار الزيتون. وهي الآن مجرّد كومة من الآثار لا شكل لها، حيث ما زال يأوي إليها عدد قليل من العائلات الذين يعيشون بشكل رئيسي في الكهوف.

وقد وصفت القلعة بأنها تحمل ملامح العصور الوسطى، إلاّ أنني لم أجد أي إشارة إلى ذلك من أي كاتب من العرب أو الإفرنج حتى القرن الحالي، ولذلك فإنها ربّما لا تعود إلى تاريخ قديم جداً.

إنّ المرج الواقع إلى الشرق من صانور هو بقعة جميلة وهو ذو شكلٍ بيضوي أو تقريباً مستدير، قطره ثلاثة أو أربعة أميال محاطٌ بتلال بديعة ليست مرتفعة. إنّه منبسطٌ تماماً وذو تربة طينية غامقة غنية وخصبة إلى أقصى حدّ. أما مياهه فيبدو من الطبيعي أنها تنبجس من مكان ما في الجهة الجنوبية الشرقية، ولكن ليس من السهل تبيُّن أيّ منفذ لها بين التلال التي بحثنا فيها، وقد أُخْبرنا بعدم وجود أيّ منفذ.

ويقال إنّ هذا السهل يتشرّبُ مياهه، وأنها في فصل الشتاء تتجمع وتتحول إلى بحيرة ممّا يجعل طريقنا هذه غير سالكة. ولهذا السبب فإنّ هذا السّهل يزرع بشكل رئيسيّ بالدُّخُن والمحاصيل الصيفية، على الرغم من أنه في الجزء الشمالي الغربي منه حيث سطح الأرض أكثر ارتفاعاً نجد الفلاحين منخرطين في زراعة القمح. وبسبب الوحل الذي يشهده هذا السهل في الشتاء فقد أُطْلِقَ عليه اسم مرج الغُرُق. ويحيط بهذا المرج من حدوده الشمالية والشرقية عدّة قرى.

(١٩)

رحلة إدوارد بلونديل ١٨٣٩:

سنتان في سوريا وفلسطين (١٨٣٨- ١٨٣٩)[١]

يقول في وصف طريقه من الناصرة إلى القدس مروراً بصانور في الرابع من آذار[٢]:

"نـدخل جبـال السـامرة مبتعـدين عـن جنـين، وهـذه الجبـال تحـتفظ بصـفات الخضـرة والنضارة، وقد جعلتها حركة المواطنين أكثر جاذبيّةً من جبال الجليل التي تتصف بالوحدة، في كل لحظة تظهر من خلف التلال قرىً تختبئ وراء أيكةٍ من الشجر، ذات خلفية زرقاء من السماء ممّا يبرز شخوص هذه القرى الجميلة.

وبعد قرية صانور[٣] على يمين الطريق نصل إلى السامرة حيث نجدها اليوم مدمرة ومهجورة وعلى مدى النظر حطام وعدد كبيرة من الأعمدة التي ما تزال واقفة تمثل علامات على حدود المدينة.

---

(١) Edouard Blondel, Deux Ans En Syrie et En Palestine (1838- 1839), Paris, 1840

(٢) ص ٢٠٦.

(٣) في الأصل Sanoun.

(٢٠)

رحلة ستيفن أولنْ ١٨٣٩

رحلات في مصر والبترا والأرض المقدسة[(١)]

يقول في وصف رحلته من نابلس إلى جنين والناصرة مروراً بسبسطية ثمّ جبع وصانور[(٢)]:

ولدى انحدارنا من الجبل أخذتنا الطريق باتجاه الشمال الشرقي، فواصلنا السير بمحاذاة قاعدة الجبل حيث كان السهل على يسارنا.

وقد مررنا بقريتين، الثانية منهما والأكثر أهمية تدعى جبع وقد وصلناها الساعة الواحدة بعد الظهر، وهي شأنها شأن جميع القرى في تلك المنطقة، محاطة بغابة من أشجار الفواكه، ممّا يعطيها، عندما يراها المرء من مسافة قريبة، مظهراً متناغماً وأنيقاً. ثمّ دخلنا وادياً آخر، بل هو استمرار للوادي الأول يتصل معه بوادٍ ضيّق مسطّح قليلاً وفيه ارتفاع قليل.

وبعد ساعة ونصف من المسير من جبع مررنا بقرية محصّنة على يسارنا، وتحتل موقعاً مرتفعاً في نهاية أنف الجبل الذي يمتدّ بعيداً في السهل من جهة الشمال الغربي. وتدعى هذه القرية صانور، ويبدو أنها كانت مكاناً ذا قوة عسكرية عظيمة، وذلك لأنّ موقعها الطبيعي في حقيقة الأمر مفضّل جداً، حيث تعلو المرج الذي يحيط بها تقريباً وقد شيّدت فوقه بشكل مناسب. بينما تنحدر القمة التي تربطها مع السلسلة الجبلية الواقعة في الجهة الشمالية الغربية مباشرة داخل سلسلة صخرية منخفضة ومتكسّرة.

وقد كانت تعدّ مركزاً مهمّاً في الحروب التي كان يشنّها الزعماء الصغار لهذه المنطقة ضدّ بعضهم بعضاً ومع الحكومة التركية. أمّا البلدة وحصنها فهي الآن مجرد كومة من الآثار.

وقد غطيت مساحات كبيرة من هذا السهل بحقول القمح الذي كان يبدو فاخراً، بينما كان القسم الأكبر منه قد تمت حراثته مؤخراً ولم يبذر أو أنه بذر متأخراً فلم ينبت.

---

(١) Stephen Olin, Travels in Egypt, Arabia Petraea and Holy Land, 2 Vols., Happer and Brothers Publisher, New York, 1860.

(٢) ٢: ٣٧٥- ٣٧٦.

رحلة أندرو ألكساندر بونار سنة ١٨٣٩ (*)

قصة مهمّة استطلاعية لأحوال اليهود

بتكليف من كنيسة اسكوتلاندة سنة ١٨٣٩(١)

يقول في وصف صانور لدى مروره بها قادماً من سبسطية وبرقة وجبع متوجهاً إلى جنين ومرج ابن عامر والجليل(٢):

"انطلقنا في السادسة من صباح اليوم التالي (٦/٢١) ومررنا بجانب سفح تلة صخرية شديدة الانحدار تقف عليها قلعة صانور المدمّرة، وهي من آثار الحقبة الصليبية....

ثمّ سرنا بمحاذاة مجمع مائي كبير كنّا قد شاهدناه في الليلة السابقة، من رأس الوادي، والعرب يسمّونه مرج ابناما(**) (Merj Ibnama). وهو لا يعدو كونه تجميعاً لمياه الأمطار الأخيرة، وهو يجف عادة في فصل الصيف، وقد هطلت هذا العام أمطارٌ أكثر بكثير من العادة، وعدّها الناس كافية في هذا الفصل المتقدّم، وهي تشبه إلى حدّ كبير منطقة Compensations Pond **الواقعة بين تلال بنتلاند** Pentland **بالقرب من إدنبرة.**

وقد اقتربنا من رجلين يحرثان الأرض بمحراث يجره ثور، ولاحظنا أنهما كانا يرفعان المحراث بيد واحدة فقط، وقد بدت الأرض غنية وخصبة، واكتست بآلاف الأزهار الزرقاء التي تشبه النجوم في شكلها، لكننا لا نعرف اسمها. وتتخللها هنا وهناك شقائق النعمان الأرجوانية، وأنواع كثيرة جداً من الزنابق والخزامى، وكانت التلال المحيطة بالسهل مكسوّة بالأشجار البريّة، بينما تمدّ أشجار التين والزيتون أغصانها إلى مسافات قصيرة بعيداً عن سيقانها الأصلية" (٣).

(*) رجل دين ولد في إدنبره سنة ١٨١٠، ودرس العلوم اللاهوتية في جامعة إدنبرة، أمضى مدّة في فلسطين سنة ١٨٣٩. عمل مديراً للكنيسة الحرّة في جلاسكو، وتوفي في جلاسكو سنة ١٨٩٢.

(١) Andrew Alexander Bonar, Narrative of a Mission of Inquiry to the Jews from the Church of Scotland in 1839, William Whyte, Edinburgh1842

(في الطبعة الأولى اعتمدتُ طبعة متأخّرة لكتاب بونار صادرة سنة ١٨٧٨ وفيها اختلاف بسيطٌ في العنوان).

(٢) ص ٢٢٤.

(**) ربّما محرّفة عن: مرج ابن عامر، مع أنّ المقصود مرج الغُرق.

(٣) في الصفحة التي سبقت الحديث عن صانور تحدّث أندرو بونار عن جبل جبع ووادي جبع وقرية جبع وشبّه بساتينها بالجنّة. (نفسه ٢٢٣ – ٢٢٤).

(٢٢)

رحلة إدوارد متفورد ١٨٤٠[١]

رحلة بريّة من إنجلترا إلى سيلان قبل أربعين سنة[٢]

يقول في وصف طريقه من الناصرة إلى القدس مروراً بنابلس[٣]:

"ولدى مسيرنا بمحاذاة جدول ماء لمدة ساعة مررنا بجانب قرية قباطية وسط منظر جذاب من أشجار الزيتون، ثمّ وبعد مسير متعرّج شاهدنا صانور[٤] على رأس تلّة، وقد أدهشني مشاهدة طيور السمّن الزرقاء، وكانت آخر مرّة شاهدت فيها هذا الطير في جنوب أوروبا، وكذلك أعداد كبيرة من طائر السنونو ذوات البطون الضاربة إلى الحمرة. وقد اضطررنا إلى سلوك تحويلة عبر المرتفعات باتجاه الغرب من هذه القرية، وذلك لتجنب المروج الصغيرة في الجهة السفلى التي لا يمكن اجتيازها بسبب التربة المشبّعة بالماء (التربة الطينية)، وبسبب الماء الذي يشكّل من جهة الجنوب بحيرة شاسعة الامتداد. إلاّ أنّها تجف في فصل الصيف، وهذه ربّما تكون واحدة من برك السامرة، التي تقع قريباً من هذا المكان باتجاه الجنوب الغربي.

وبعد ذلك مررنا عبر كروم الزيتون التابعة لقرية جبع، المنتشرة حول سفح التلّة حيث بنيت القرية، وقد بدت قرية كبيرة ذات بناء عشوائي. وكان الموسم الذي نحن فيه موسم قطاف الزيتون، وكان الناسُ جميعاً خارجين إلى الكروم، بعضهم يضرب أغصان الزيتون بعصيّ طويلة، وبعضهم الآخر يتسلّق الشجر، وبعضهم مع النساء والأطفال يجمعون ثمار الزيتون عندما تسقط على الأرض.

وتلبس النساء حُلي لافتة للنظر تتدلى على جانبي الوجه، وهي عبارة عن صفائح رقيقة مصاغة من عملة فضيّة بعضها فوق بعض مثل حراشف السمك".

---

(١) رحّالة بريطاني توفي سنة ١٨٨٣.

(٢) Edward L. Mitford, A Land March from England to Ceylon, Forty Years Ago, London, 1884.

(٣) ص ١٩٦.

(٤) في الأصل: Tannoor.

(٢٣)

رحلة والتر كيتنغ كيلي قبل سنة ١٨٤٤

سوريا والأرض المقدّسة مشاهدها وأهلها[١]

يقول في وصف طريقه من نابلس إلى جنين بعد مروره بسبسطية وبرقة[٢]:

وبعد ركوبنا عبر سلسلة من الأودية الجميلة، حيث كان جانبا الطريق تقريباً يحاذيان جدول ماءٍ جار، وحيث كان هناك عددٌ كبير من القرى نشاهدها خلال الطريق، حتى وصلنا إلى صانور وهي رابضةٌ على تلة منعزلة تشرف على مساحة كبيرة ممتدة من البلاد، وقد كانت ذات يوم مكاناً محصّناً جدّاً، لكنّه الآن مدمّرٌ بالكامل، وقد حاصر الجزّار سيئ الذكر ذات مرّة بخمسة آلاف رجل زعيم ذلك المكان في معقله لمدّة شهرين، ولكن دون جدوى.

ولكن، وبعد أكثر من ثلاثين سنة من ذلك التاريخ، ضرب عليه عبد الله باشا زعيم عكا حصاراً مشدّداً يساعده في ذلك قوّات الأمير بشير، وبعد حصار دام ثلاثة إلى أربعة أشهر تمّ الاستيلاء على القلعة، وقد وضع السيف في رقاب أهلها المتمردين، وأحرقت بيوتهم ودمّرت تدميراً تامّاً وسوّيت بالأرض.

أمّا المرج الذي يقع شرقيّ صانور فهو جميل وجذّاب، وهو بيضوي الشكل تقريباً، وقطره ثلاثة أو أربعة أميال، ومحاطٌ بتلالٍ بديعة منخفضة. وحيث أنه لا يوجد أي مخرج لمياهه فإنّ هذا المرج يتحول إلى بحيرة في فصل الشتاء، ولذلك أطلق عليه اسم مرج الغُرُق.

---

(١) Walter Keating Kelly, Syria and the Holy Land: Their Scenery and Their People, London, Chapman and Hall, 1844

(٢) ص ٤٣٠- ٤٣١.

(٢٤)

رحلة يوجين بوجاد ١٨٤٥ -١٨٦٠

لبنان وسوريا[١]

يقول في وصف سكّان نابلس وصانور[٢]:

"إنّ سكّان جبال نابلس والقدس التابعين لحكومة باشا دمشق أصبحوا مشاكسين، حيث اعترف الباشا للباب العالي بأنه لا يستطيع القيام بواجباته الموكولة إليه هناك.

وقد تلقى عبد الله باشا أمراً من السلطان بالسيطرة على جبل نابلس والاستيلاء على أراضي سكّانه.

وفي هذه الأثناء كانت عائلة جرّار تمثّل عائلة شيوخ نابلس، وكانت تقيم في قلعة تدعى صانور، تقع على رابيةٍ ذات مداخل صعبة، ويتم الدفاع عنها بواسطة أكثر من مدفع مجهّزة بكل أنواع الذخائر.

لذلك قرر عبد الله باشا أن يبدأ حملته بالهجوم على صانور، حيث اعتقد أنه بالسيطرة على هذه القلعة سيضمن خضوع بقية البلاد له. قام الباشا بتجميع جيش كبير من جيوش صغيرة مجهّزة بالعتاد لبدء حصار قلعة صانور، ومع ذلك باءت جهود قواته بالفشل، وكان الحصار بلا فائدة، ولم تستسلم قلعة صانور.

وأصدر عبد الله باشا إلى الأمير بشير الأمر بالسيطرة على القلعة، لكن الأمير بشير ارتأى أن أسلوب المفاوضات أفضل من السلاح، ممّا جعل الشيخ جرّار يستسلم وينسحب إلى مكان آخر في منطقة نابلس حاملاً معه كلّ ما يملك، وتم تسليم القلعة للأمير بشير".

(٢٥)

رحلة أغينور دي غاسبارين في أيار ١٨٤٧

مذكّرات رحلة إلى الشرق[٣]

يقول في وصف رحلته من نابلس إلى جنين مروراً بصانور[٤]:

"رافقنا بعضُ الفرسان العرب من قلعة صانور، وهم رائعون بنعومتهم وسحرهم البرّيّ، غير أنّ صرامتهم منقطعة النظير، إذ كانوا يركضون بخيولهم بمحاذاة القافلة، وكانوا يأخذون أوقات راحة قصيرة جدّاً. ومن شدّة حركات خيولهم فإنّهم كانوا يشكّلون دوائر في حقول القمح. وفي الوقت الذي كانوا فيه يرافقوننا فقد كانوا يتفحّصوننا بنظراتهم.

---

(١) Eugéne Poujade, Le Liban et La Syrie 1845-1860, Paris, 1860

(٢) ص ١٣-١٤.

(٣) Agénor de Gasparin, Journal D'un Voyage Au Levant, Paris, 1850

(٤) ٢٤٦/٣.

وفي هذه التلّة هزم بشير باشا عرب فلسطين الذين كانوا يرفضون دفع الضريبة له. أمّا نساء صانور فإنهنّ أقلّ قسوة، لكنّهنّ يفتقرن إلى ابتسامة نساء القدس.

كانت النسوة تنظر إليّ وإلى صديقتي جاذيت و هنّ يعتقدن أنّني أنا السيّدة وأنّ جاذيت هي الرجل، وسببُ هذا الخلط أننا كنّا نغطّي وجوهنا بمناديل من حرير اتقاءً للغبار.

(٢٦)

رحلة سبنسر سنة ١٨٤٨ (*)

مصر والأرض المقدّسة(١)

يقول في وصف رحلته من نابلس إلى الناصرة مروراً بسبسطية وبرقة ثمّ جبع وصانور(٢):

وبعد اجتيازنا قرية برقة ببساتين زيتونها عبرنا سهلاً واسعاً، وشاهدنا قرية الفندقومية وبجانبها عددٌ من الينابيع، ثمّ صعدنا التلال مرّة ثانية، ومررنا بقرية جبع التي يوجد بينها وبين آخر قرية مررنا بها نزاع شديد وقعت بسببه معركةٌ بين القريتين في اليوم التالي. وهناك تناولنا الغداء تحت أشجار الزيتون.

وفي الساعة الثانية عشرة والنصف وصلنا إلى صانور، وهي تقع على رأس تلة مخروطية عالية. وهي ذات موقع أخّاذ حتى لذوي النظر غير العلمي، إذ تتّسم بقوّة طبيعية عظيمة، ممّا يجعل الفنّ قادراً بسهولة على أن يصوّرها مكاناً مثالياً.

إنّها الآن لا تعدو أن تكون قرية صغيرة لا شأن لها، فتحصيناتها أصبحت خراباً، لكنّها كانت ذات زمن منيعة جداً، حتى إنّها تمكنت من مقاومة قوّة سيئ السمعة الجزار باشا المؤلفة من خمسة آلاف رجل الذي حاصرها لمدة شهرين واضطر بعدها للتراجع دون أن يحقّق أيّاً من أهدافه.

وفي سنة ١٨٣٠ نجح عبد الله باشا في الاستيلاء على القلعة بعد حصار دام بضعة أشهر، ومن أجل أن لا تعود القرية معقلاً للمتمردين في المستقبل، فقد قام بتدمير الحصن وقطع أشجار الزيتون جميعها، مخلّفاً إيّاها، كما رأيناها للتوّ، كومة لا شكل لها من الآثار.

ولدى متابعتنا الطريق في السهل الواقع ما بعد صانور، الذي لا يعدّ جميلاً فحسب حيث إنه محاطٌ بتلالٍ لا تحصى، بل إنه كذلك خصب وغزير الإنتاج، وقد لاحظنا هنا وهناك بركاً

(*) أنهى سبنسر رحلته في ربيع ١٨٤٨، وهو رجل دين ولد في نيويورك سنة ١٨١٦، عمل في شركة طباعة تعود لوالده في نيويورك، ثم تخرج من جامعة كولومبيا سنة ١٨٣٧، ثم تولى مناصب دينية رفيعة ونشر مجموعة من الكتب.

(١) J.A. Spencer, Egypt and the Holy Land, New York, 4th Edition, 1857، وقد نشرت هذه الرحلة مرّة أخرى بعنوان آخر هو: الشرق. انظر Jesse Ames Spencer, James Fredrick Spencer, The East, New York، وقد ورد هذا النصّ في رسالة أرسلها المؤلف من الناصرة في ٢٢ نيسان ١٨٤٩ (ص ٤٢٩- ٤٣٠).

(٢) ص ٤٢٩- ٤٣٠.

من المياه السطحية وصفها الدكتور روبنسون بأنها من مميّزات هذا المرج أو الوادي، ثمّ صعدنا ثانية مع جوانب التلال في أثناء تقدّمنا، حيث سررنا – في حوالي الساعة الثانية- بمشهد رائع لتلك المنطقة التي كنّا نمرّ منها حيث تشكل المرتفعات والجبال المحيطة بالناصرة جزءاً معتبراً من المشهد الكلّيّ.

(٢٧)

رحلة شارلز مونك سنة ١٨٤٨[١]

القرن الذهبي ومشاهد في آسيا الصغرى ومصر وسوريا وحوران[٢]

يقول في وصف طريقه من نابلس إلى جنين عند وصوله إلى صانور[٣]:

"ويوجد سهلٌ آخر ينبسط أمامنا، مع قرية صانور و هي تجثم على قمة تلّة مخروطية مستديرة على شمالنا، وبحيرة كبيرة تجفّ في أشهر الصيف، حيث تكثر الطيور البريّة، على الطرف الأبعد على يميننا. والأرض تشبه مستنقعاً عظيم الاتساع تشكّل من تساقط الثلوج والأمطار بغزارة مؤخراً. وحول الزاوية الغربية من البحيرة شاهدنا بغالنا تتقدم جيّداً علينا، ولكن بسبب الطبيعة الخادعة للتربة كاد واحدٌ أو اثنان منها ينغمس في الوحل، ممّا جعلنا لا نتأخر في اللحاق بها".

(١) هو شارلز جيمس مونك، رحّالة إنجليزي (١٨٢٤ – ١٩٠٠)، عيّن عضواً في مجلس العموم البريطاني بين سنتي ١٨٥٧- ١٨٨٥، درس في كمبردج.

(٢) Charles James Monk, The Golden Horn and Sketches in Asia Minor, Egypt, Syria, and the Hauraan, 2 vols., London, 1851

(٣) ٢/٢١٥.

(٢٨)

رحلة استكشافية سنة ١٨٤٩[١]

يوميّات بعثة إلى الشرق قامت بها لجنة الكليّة البروتستانية المالطية

يقول كاتب الرحلة في وصف طريقه من نابلس إلى جنين والناصرة مروراً بصانور[٢] :

"وبعد أن اجتزنا شطراً من طريق سهل نابلس الخصب، أخذتنا الطريق قريباً من قلعة صانور، وهي حصن قويّ يعود إلى العصور الوسطى، ويقع على قمة تلة صخرية شديدة الانحدار، وفي هذه القلعة وقف شيوخ المنطقة المستقلّون[٣] مراراً كثيرة في وجه سلطة الباشوات الأتراك.

وفي طريق السهل يوجد بحيرة واسعة من الماء تعرف بمرج ابن عامر[٤]، وهي مجمّع للماء الذي يأتي من الأمطار التي تهطل في الأوقات المبكرة والمتأخرة".

(٢٩)

رحلة هوارد كروسبي سنة ١٨٤٩[٥]

أراضي المسلمين: حكاية رحلة إلى الشرق[٦]

يقول في وصف رحلته من نابلس إلى الجليل مروراً بجبع وصانور[٧]:

"ومن وراء إحدى القمم الجبلية استطعنا مشاهدة البحر الأبيض المتوسّط والتلال الرملية المحاذية للساحل، وقد بدت جبال الجليل قبالتنا، ومن بين تلك الجبال وعلى بُعْد سبعين ميلاً، برز لنا جبل الشيخ العملاق وقد اكتست قمته بالثلوج.

وقد انبسط أمام أعيننا إلى مسافةٍ بعيدةٍ وادٍ بهيج جميل أضفت عليه نباتاته تشكيلة بديعة من الألوان الزاهية.

---

(١) Journal of a deputation sent to the East, by the Committee of the Malta Protestant College, in 1849, by a member of the committee, London, 1855.

(٢) ٢/ ٤٢٦- ٤٢٧.

(٣) يقصد شيوخ آل جرّار.

(٤) المقصود مرج الغرق وفي الأصل (Merj- Ibnama).

(٥) ١٨٢٦ – ١٨٩٧.

(٦) Howard Crosby, Lands of the Moslem: A Narrative of Oriental Travel, New York, 1851

(٧) كان مرور كروسبي بجبع وصانور بعد الحادي والعشرين من أيار ١٨٤٩. انظر ص ٣٠٠-٣٠١. وقد بدأ كروسبي رحلته في مصر في الأول من شباط ١٨٤٩.

ولمّا انحدرنا إلى الأسفل عبر الجهة الشمالية للجبل مررنا بعدّة قرى، منها قرية جبع التي أمسكنا من خلالها بالطريق الرئيسي الذي يأتي مباشرة من نابلس والذي سلكته بغالنا.

وبعد ذلك مررنا عبر طريق حجريّة ضيّقة وخرجنا منه إلى وادٍ عريض، حيث بدت لنا قبالتنا صانور على مرتفع صخريّ في كامل أبهتها، وقد مررنا بجوار الهضبة، ودخلنا مرجاً واسعاً بديعاً، يحتضن بحيرة من مياه الأمطار حيث كانت تتجمع أعدادٌ لا تحصى من طيور اللقلق البيضاء. ويدعى هذا المرج بمرج الغُرُق، ويبلغ عرضه نحو ثلاثة أميال.

وقد كان سطح هذا السهل مطرّزاً بشقائق النعمان، واللبلاب، وأنواع أخرى كثيرة من الأزاهير، وقد مررنا من خلاله للوصول إلى السلسلة الجبلية التالية. وقادنا المسير إلى وادٍ ضيّق خرجنا منه إلى أحد الممرّات التي ما زال بإمكاننا أن نرى منها بعض المناظر الجميلة. وقد شاهدنا حوضاً أخضر في منتهى الجمال ممتداً من تحتنا إلى جهة الشمال، كما لاحت أمام نواظرنا جبال الجليل بجمالها الأخّاذ وقد كان الجوّ صافياً".

رحلة هنري بورجس ويتاكر تشورتون[١] ١٨٥٠[٢]

أفكار حول أرض الصباح: وقائع رحلات إلى فلسطين

يقول في وصف رحلته من نابلس إلى الناصرة مروراً ببرقة وسبسطية وجبع وصانور ومرج ابن عامر[٣]:

"وفي الساعة الرابعة إلاّ ربعاً[٤] عدنا إلى الطريق الرئيسي الذي يصل بين نابلس والناصرة، وانحدرنا في طريق صخريّة نحو قرية جبع، والتقينا مع أحد سكان جبع كان ممتطياً جواده فألقى علينا التحية ثمّ رافقنا في الطريق. وسألته: كم بقي من الوقت كي يبدأ الناس حصاد القمح؟ فأجاب إنّ الحصاد سيحين بعد عشرين إلى ثلاثين يوماً. وسَأَلَنا إنْ كنّا قد جئنا "من بلد لُنْدرّيا"[٥] كما سألنا عن اسم السلطان فيها. وقد أجبته بأنّ عندنا ملكة هي السلطان وأنّ اسمها فيكتوريا، ثمّ أخبرته بعد ذلك عن العائلة المالكة وعن الملكة وزوجها اللذين يقرآن الإنجيل يومياً. ثمّ سألته إن كان هناك أيّ مسيحيين في جبع، وفهمت من كلامه أن شيخ القرية كان مسيحيّاً"[٦].

بعد ذلك مررنا من أسفل جبع التي تقع على تلّة، ومن ثمّ غادرنا القرية. وفي أسفل جبع وحولها توجد حقول زيتون كثيرة يلي ذلك مساحات مزروعة بالبصل المرويّ. ويعدّ الماء في هذا المكان عنصراً رئيسياً للزراعة.

وفي الساعة الخامسة إلاّ ربعاً مررنا بالقرب من صانور، وقد أعيد بناء أسوارها مجدداً منذ سنة ١٨٤٧. وكان هناك حوض كبير من الماء يظهر في القسم الأسفل من المرج الواقع تحت صانور، حيث يوجد في طرفه مئات من طيور الكُرْكي (الغرانيق) واللقلق.

وفي الخامسة والربع أشرفنا على منظر تلال الناصرة ماثلة أمامنا، خلف مرج ابن عامر الواسع وهي تضيء بأنوار الشمس المائلة للغروب، وعلى شمالنا كان جبل الكرمل، وفي حوالي السابعة مساء وصلنا إلى جنين.

---

(١) في مقدمة هذه الرحلة، أن تشورتون قام برحلتين إلى فلسطين بينهما ثلاث سنوات.

(٢) H.B. Withaker Churton, Thoughts of the Land of the Morning: A Record of the Visits To Palestine, 2nd Edition, London, 1852.

(٣) ص ٢٣٥- ٢٣٦.

(٤) في يوم الخميس ٢٥ نيسان.

(٥) أي من لندن.

(٦) لعله يشير إلى أن أصل عائلة جرّار من الغساسنة، وأنّهم كانوا لذلك مسيحيين في الأصل.

(٣١)

رحلة مِزْلان سنة ١٨٥٠[١]

الأماكن المقدسة: الحجّ إلى القدس[٢]

يقول في وصف رحلته من نابلس إلى جنين ثمّ الجديل مروراً بسبسطية وصانور وعرّابة[٣]:

"وعلى الناحية الأخرى كانت هناك عدة قرى، وقد مررنا بالقرب من برج عالٍ فوقه رجالٌ مسلحون يقومون بالحراسة، وكانت هيئتهم كأنهم يعيشون فوق البرج، وبعد قليل نزلنا سهلاً جميلاً ورأينا جبلاً تعلوه قلعة بحالة سيّئة، وهذه هي مدينة صانور (Santorri) التي نعتقد اليوم أنّها قائمة فوق المكان المعروف قديماً باسم بيثوليا (Bethulia).

وبعد حديثه عن علاقة صانور بالمكان المعروف قديماً باسم بيثوليا، وقد أوردنا جزءاً منه في الحاشية، يتحدث عن صانور قائلاً:

"وقد اعتقد كلارك أنّ هذه المدينة هي السامرة، وقال إنه رأى فوق جبل على بعد ثلاثة فراسخ جنوب جنين قلعة تسمّى (Santorri) ولم تكن معروفة لجميع الرحّالة.

وبعد ستة أشهر من الحصار سقطت قلعة صانور سنة ١٨٣١ على يد عبد الله باشا القادم من عكا، وقد خسر عبد الله باشا ستة آلاف رجل على أبواب هذه القلعة، وما كانت لتسقط بين يديه لولا المجاعة (التي أصابت أهلها)، أمّا أسوارها التي هدمها عبد الله باشا

---

(١) وصل إلى صانور يوم ٢٥ أكتوبر ١٨٥٠.

(٢) Mislin M., Les Saints Lieux: Pélerinage a Jérusalem, Paris, 1851.

(٣) ج١، ص ٣٨٢- ٣٨٣.

وقد ناقش مزلان موضوع علاقة صانور ببيثوليا قائلاً:" وقد كان القسيس الأكبر (إلياسم) قد كتب إلى سكان السامرة جميعهم وسكان المناطق المحيطة بتلّة مرج ابن عامر بالقرب من دوثان (عرّابة) أن يقيموا في الطرق الجبلية القادمة من القدس، وأن يحرسوا هذه الأماكن جميعاً، وأن يبنوا الأسوار وأن يجمعوا القوات استعداداً للقتال. وقد جاء هوليفيرنو القائد الآشوري ومعه (١٢٠) ألف جندي و (٢٢) ألف فارس للعسكرة في الوادي القريب من بيثوليا، وبالقرب من عين الماء. وكان هذا الجيش لضخامته يمتد عرضاً من دوثان إلى بلما، وطولاً من بيثوليا إلى اليامون، الموجودة بالقرب من مرج ابن عامر. (جوديث/ الفصل السابع).

إنّ الطريق الأكثر استقامة من تلّة مرج ابن عامر إلى القدس تمرّ بصانور، ولم يكن هناك أي قلعة في المناطق المحيطة لديها موقع أفضل من موقع صانور لمقاومة هذا الجيش القوي، وهذه العبارات التالية المقتبسة من كتاب جوديث تلائم تماماً وصف هذا المكان (صانور)......... (الفصل السابع من كتاب جوديث).

لقد كان الخلاف على قضية عين الماء التي وجدها هولوفيرنو وهو يجوب الأماكن المحيطة، وقد كانت هذه العين تجري في وسط المدينة، وكان باستطاعتنا أن نتخيل سكان بيثوليا ينعمون بهذه المياه خلال الحصار، أمّا اليوم فلم أستطع أن أجدها، حيث أن الماء الموجود في المدينة هي مياه موحلة، (ثم يتحدث عن قصة جوديث وقتلها للقائد الآشوري).

فقد كان بناها إبراهيم[١] (الجزّار)، ولكنّ المقاومة الضارية لسكان صانور، زادت من تدمير الأسوار ممّا جعلها تبدو كما هي عليه اليوم، فهي اليوم متصدّعة، واليوم هناك (١٥) ألفاً أو (٢٠) ألفاً من الفلاحين مازالوا يسكنون حولها.

(٣٢)

رحلة جوزيف شوارتز ١٨٥٠

جغرافية وصفية وصورة تاريخية مختصرة لفلسطين[٢]

يتحدث عن صانور قائلاً[٣]:

"في سنة ١٨٣١م وعندما ثار السكّان الجبليّون في منطقة صانور الذين امتنعوا في القلعة المعروفة باسم قلعة صانور، ضدّ والي عكا عبد الله باشا، وارتكبوا مذبحة كبيرة ضدّ قواته، فإنه طلب من الأمير [بشير] أن يمدّه ببعض أشجع رجاله لإخضاع المتمردين، فاستجاب له الأمير وأرسل إليه نحو مائةٍ من اليهود من دير القمر وحاصبيّا (Chaspeya)، الذين تمكنوا، بسبب سمعتهم القويّة، من إخضاع حصن صانور، الذي أمر الباشا في أعقاب ذلك بتسويته بالأرض، وظلّ على هذه الحال منذ ذلك الوقت".

(٣٣)

رحلة جون أندرسون سنة ١٨٥٠[٤]

جولاتٍ في أرض إسرائيل[٥]

يقول في وصف صانور في أثناء قدومه من القدس متوجهاً إلى دمشق[٦]:

"ثمّ صعدنا الجبال باتجاه الشمال، وبعد مرورنا بعدة قرى جاثمة في أحضان شجر الزيتون وصلنا إلى صانور حيث كان خليل في انتظارنا وحيث خيّمنا في تلك الليلة. وتقع

---

(١) هو إبراهيم الجزّار الذي قتل في معركة الروحة ضدّ ظاهر العمر سنة ١٧٣٥.

(٢) Rabbi Joseph Schwarz, Descriptive Geography and Brief Historical Sketch of Palestine, 1850.

(٣) ص ٥.

(٤) قسيس وأديب ووزير بريطاني من اسكوتلندة، له كتاب: Pencillings in Palestine وهو كتاب وجداني شعريّ كتبه في موازاة رحلته.

(٥) Anderson, John, Wandrings in the Land of Israel and Through the Wilderness of Sinai in 1850 and 1851, Published by William Collins, Glasgow and London.

(٦) ص ١٤٢.

قرية صانور على رأس تلّة، وكانت في بعض الأزمنة السالفة صاحبة شوكة شديدة، وتظهر لك ماثلةً من مسافةٍ بعيدة، وهذه هي فضيلتها الوحيدة.

وفي الأسفل منّا وعلى الطرف الشماليّ للتلّة يقع وادٍ عريض ممتدّ، حيث كان الجزء الأكبر منه مغطّى بالماء. ويطلق عليه العرب اسم "مرج الغُرُق"، ونخشى أن تكون هذه التسمية القابضة للصدر لها سببُها (يقصد الغَرَق). وفي هذا المرج ينمو بكميات كبيرة نباتٌ يشبه القطن الأبيض، ممّا جعله يبدو كأنه حقلٌ مغطّى بالجير.

رحلة دي ساولسي(*) ١٨٥٠ - ١٨٥١(١)

قصة رحلة حول البحر الميت وفي الأراضي المقدسة

يقول في وصف رحلته من جنين إلى نابلس مروراً بصانور وجبع في ١٨٥٠/١٢/٢١(٢):

"وبعد اجتيازنا قباطية فإننا نهبط ثانية إلى أحد الأودية، حيث ما زلنا نجد علامات واضحة على وجود طريق قديم، وينفتح إلى جهة الشمال حالاً سهلٌ صغير ضيّق ومحصور بعمق، وهذا السهل هو سهل مسيليه سمّي بهذا الاسم نسبة إلى قرية تبعد نحو مسير ساعة ركوباً عن طريقنا. ووراء هذا السهل فإن الوادي يصبح أكثر ضيقاً مرّة أخرى، والتلال التي تحيط به من اليمين والشمال أكثر تشجيراً.

وأخيراً وبعد مسير ثلاث ساعات تنفتح البلد فجأة، وتقودنا الطريق إلى سهل صانور على يسار بعض أكواخ العمّال، التي تعرف هنا وفي كل مكانٍ بمسمى شائع هو المزرعة.

وقد وجدنا أن تربة هذا السهل هي نفسها تربة مرج ابن عامر، لكنّ مرج صانور فيه نداوة (رطوبة) أكثر، ويخبرنا محمد بأنه في الشتاء يتحوّل إلى بحيرة. ويمتد هذا المرج البديع إلى مسافةٍ كبيرة، نحو ثلاثة فراسخ من جهة الشمال، أما الجانب الأيمن من الطريق فإن التلال تبعد عنه بضع مئات من الياردات.

وعلى بعد خمسة آلاف إلى ستة آلاف ياردة إلى الأمام منّا تتراءى لنا ربوةٌ منفصلة عن سائر التلال تتوجها قريةٌ تبدو من بعيد مثل أحد الحصون. ويقال لهذه القرية صانور، وهي معقل لأحد الشيوخ(٣) المعروفين بالقوّة والثراء، والذي يبسط نفوذه بوصفه حاكماً مستقلاً على جميع البلاد حتى تخوم نابلس.

ومرج صانور محاط بنطاقٍ من الجبال المشجّرة ذات المظهر المتناغم. إننا نكتشف قريتين مبنيتين على المنحدر الجنوبي للمرج، وهاتان هما قرية ميثلون التي تبعد أربعة عشر فرلنغ (كل فرلنغ يساوي ثُمْن ميل) عن صانور، وقرية صير التي تبعد عنها ستة أميال.

وتحتل صانور أقوى موقع في البلد برمّتها، ويبدو أنه لا بدّ أن تكون الربوة التي تقع عليها هذه القرية موقعاً لحصن قديم، وربما تكون موقعاً لحصن أربلا (Arbela).

(*) رحالة وباحث فرنسي وله اكتشافات أثرية في القدس، وكان أرستقراطياً، قام برحلته ومعه عدد كبير من أفراد أسرته وأصدقائه ومرافق عربي اسمه محمّد.

(١) Félicien De Saulcy, Narrative of a Journey Round the Dead Sea and in the Bible Lands in 1850 and 1851 including an account of the Discovery of the sites of Sodom and Gomorrah, edited by Count Edward de Warren, 2 Vols., London 1854.

(٢) ١: ٨٦- ٩٤.

(٣) هو الشيخ إبراهيم بن الشيخ عبد الله بن يوسف الجرّار.

لكنّ من الأمور المؤكّدة أنّ من الصعب أن تجد أرضاً لإقامة معسكر أكثر مناسبة من هذا المرج الذي تمرّ من خلاله الطريق القديمة والذي تمتدّ مع الطريق من صانور إلى ميثلون، مفترضين بالطبع بأنّ قائد هذا الجيش لابدّ أن يكون حصيفاً ويحتلّ بخطّ قوي من القواعد الأمامية جميع الممرّات التي يمكن لأيّ عدوّ أن يتقدم منها ضدّه.

وفي الواجهة الأمامية لتلة صانور توجد ربوة صغيرة أكثر انخفاضاً، يعلو قمتها كومة منتظمة لابدّ أنها تمثل قبراً قديماً، وبالسير مشياً تحت هاتين الربوتين وبالانعطاف إلى أسفلهما نجد الطريق القديمة وقد تمّت صيانتها أفضل من أي طريق أخرى في أي مكان. ولو نظرنا إلى صانور من جهة أخرى لوجدناها تشبه حصناً مربّعاً.

وبعيداً عن صانور بنحو بضع مئات من الياردات وإلى جانب تلك السلسلة من التلال التي تقف صانور على واحدة منها، توجد قرية صغيرة ذات مظهر مُزْرٍ تسمى جربة (Djerbah)، وخربةٌ أخرى مهدمة.

وتشاورنا للحظة مع بعضنا بعضاً في أن نذهب إلى صانور ونتوقف هناك لتناول الإفطار، ثمّ فضلنا بشكل تلقائي أن نفطر في الهواء الطلق. واخترنا أن نفطر تحت شجرة زيتون بعيداً عن القرية وللهرب من إزعاجات الفضوليّين من العوامّ. ولذلك قررنا أن نبتعد مسافة نصف ساعة على الرغم من توقنا الشديد للطعام، ثم ترجّلنا داخل حقلٍ في منتصف الطريق بين صانور وجربة.

الجوّ رائع جداً، وعشرات الآلاف من الحشرات الجميلة تتطاير حولنا، وكنّا نتصيّدها بينما كان يجري إعداد الطعام لنا. وبينما نحن مشغولون في حفظ كنوزنا من الحشرات، ظهر لنا فجأة على فرسه رجل متين وقويّ يقدّر بنحو الثلاثين عاماً من عمره، ثمّ تبعه فارسان آخران كانت أثوابهما البالية تتناقض تماماً مع الملابس الأنيقة لقائدهما، وكان الثلاثة مسلّحين جيّداً، ولكن رزانتهم تدلّ بوضوح على أنّ نواياهم لم تكن عدوانية. تبادل محمد والزائر الجديد التحيات وتصافحا، ثمّ انضممتُ إلى الحوار للتعرّف على صديقنا، وقد تبيّن لي أنه خالد ابن شيخ صانور وأنه كان يقوم بجولة استطلاعية في مناطق نفوذه وعلى المزارعين الذين يعملون في أراضيه، وقد كنّا على قدر كبير من التأدّب مع مثل هذه الشخصية البارزة، ودعوناه إلى تناول الإفطار معنا، وقد لبّى دعوتنا بدون تكلّف، وأمر أحد مرافقيه أن يواصل الجولة الاستطلاعية نيابة عنه.

وكانت طريقة إصدار الأمر من قبل هذا السيّد مجرد إشارة في الهواء، وتبعاً لذلك قام المرافق في الحال وركب فرسه وانطلق ينفّذ أمر سيّده.

وها نحن الآن نستضيف شيخ صانور الشابّ، وكان ينظر إلينا ونحن نصطاد الحشرات ونحتفظ بها هنا وهناك، واكتشف النسر الذي قتله إدوارد في الصباح، وقد حيّره كثيراً أن الناس يضيعون أوقاتهم وملح بارودهم على ألعاب لا فائدة منها، وآخر شيء وأسوأه تجهيزات الطبخ التي كان ذلك الماكر المتشرّد قسطنطين يقوم بإعدادها على مرأى منه، ممّا يعطيه –كما بدا واضحاً- انطباعاً سيئاً عن طعامنا. وقد استغرقنا قليلاً في التفكير بتقييمه لنا قبل أن نبدأ تناول الوجبة، لاشكّ أنه سيأخذنا إلى أفضل الأطبّاء، وأنه سيفضّل تناول الطعام مع والده الشهير، ولعلّه يُسَرُّ بما يشغلنا.

وبينما كنّا ندخّن الغلايين، استمرّ ذلك الشابّ الشجاع باختلاس النظر إلى أسلحتنا التي

عرضناها عليه الواحد بعد الآخر، وكان أكثر شيء أدهشه قارورة ملح البارود التي كانت مع لويسل (Loysel)، ولدى مشاهدته لهذا الوعاء، الذي بدا له شيئاً ذا قيمة لا مثيل لها، فإن عيني الشيخ ازدادتا لمعاناً. وقد وجدنا في ذلك فرصة لاستعادة حسن رأيه فينا الذي كنّا فقدناه في نظره، ولذلك أقنعت لويسل بأن يقدّم قارورة ملح البارود للشيخ، ورجوت الشيخ أن يقبلها منه لتبقى ذكرى لهذا اللقاء. ولم نكن بحاجة إلى إعادة هذا العرض على الشيخ، ولكن ممّا يتطلب شرحاً بعناية أكبر هو طريقة استخدام النابض (الزنبرك)، فبعد كلّ درس كان يقول لي برشاقة بالغة: طيّب، فهمت! ثمّ بعد ذلك يحاول ويخفق. وقد تكونت لديّ قناعة بأنه يوماً ما سوف يفجر نفسه بهديّتنا سيئة الحظ. (ويضيف دي ساولسي في حاشية ص ٩٠ "ويا للأسف، فقد علمت أنّه منذ اجتماعنا في صانور، فإنّ الشيخ المسكين خالد قد قُتل في شجارٍ مع بعض أبناء بلده").

وقد تحققت رغبتنا التي سعينا إليها، وأصبحنا مرّة أخرى رجالاً ذوي شأن في نظر الشيخ، وقد حان الآن دوره ليتصرّف معنا كرجلٍ نبيل. ترى ما الذي فكّر فيه كي يثبت لنا كرمه؟ لقد سحب من صدره منديلاً معقوداً من طرفه، ثمّ قام بحلّ عقدته وهو يتنهّد واستخرج منها قطعة ذهبيّة يقدّر ثمنها بعشرين قرشاً، وهي تعادل ما يقرب من قطعة خمسة فرنكات، ثمّ دسّها في يدي. في البداية لم أفهم ما الذي كان يعنيه، فنظرت بشيء من الاستغراب إلى قطعة الذهب الصغيرة التي منحت لي بكرم شديد، وسألت نفسي ما الذي يمكن أن أعمله بها، وأعترف بأنني احتجت إلى بعض الوقت قبل أن أدرك بأنه أراد أن يعطيني صدقة (وهي ما يعطى عادة لسائقي السيارات في باريس بالإضافة إلى أجرتهم). وعندما تبيّنت ذلك أخيراً سارعت إلى إعادة قطعة عملته إليه، وأمرت محمداً بأن يشرح له ويخبره بأنني أقدّم الهدايا ولا أتقبّلها.

وقد أعدت له هديته، إلاّ أن شيخ صانور لم يتردد في أخذها، فقد سحب منديله مرّة أخرى، ووضع فيها قطعته النقدية، وربط عليها كما كانت من قبل، ولم نسمع شيئاً عنها بعد ذلك. ومنذ تلك اللحظة لم يفكر في شيء إلاّ أن يغادرنا ويتركنا نتناول فطورنا وحدنا. وبينما كان يهمّ بركوب فرسه خطرت له فكرة حسنة، فقال يخاطب محمداً: "حسناً، وأنا كذلك أودّ بأن يحتفظ هذا الرجل الفرنسي بشيء يذكّره باجتماعنا هذا، وأنا أقدّم له فرسي، أخبره بأنّها أصبحت له" وقد كانت فرسه هرمة تشبه فرس دون كيشوت (Old Rosinante) ممّا يجب الحذر من كلّ عضو من أعضائها. وبالطبع رفضت هذا العرض أيضاً. وما إن تخلصنا من هذا الزائر الذي قفل راجعاً إلى صانور يعدو على فرسه عدواً حتى رجعنا إلى تناول فطورنا، وبينما كنّا نستمتع بوجبتنا، قام سائسو خيولنا - بحكمتهم المعتادة- بفكّ الألجمة عن الخيول وإطلاقها كي ترعى على حرّيتها، إنها فكرة بديعة كما سنرى فيما بعد.

كانت المدّة التي توقفنا بها حتى الآن ساعتين طويلتين، وما زالت نابلس على مسافة بعيدة منّا، وقد آن الأوان لاستئناف السير، ولكن ما زالت هناك صعوبة واحدة صغيرة، وذلك أنّ بعض خيولنا التي استساغت بشكل مفرط مراعي صانور أخذت تمارس كلّ أنواع القفز عند محاولة الإمساك بها مرّة أخرى وأخذت تعدو نحو جبع.

وفي طريق عودته من نابلس إلى جنين يصف وصوله إلى جبع وصانور في ٢٦ شباط ١٨٥١ قائلاً[١]:

---

(١) ٢: ٣٠١- ٣٠٥

ولم أتذكر قطّ بساتين أكثر جمالاً من تلك التي تتخلل الطريق إلى جبع، وطوال الطريق كنا نشاهد جدولاً رقيقاً يحاذي الطريق ويروي الحقول والبساتين المحيطة. وقد بدت الخضار يانعة والأزهار الجميلة تتفتح على جانبي الطريق، وكان من صور الفضول التي ظهرت من بعضنا في هذه الطريق، أن الراهب الذي كان معنا كان يجعلنا في تذمّر دائم بسبب شغفه بقطف النباتات وإحضارها لنا، وذلك عندما كنّا نترجل عن خيولنا على التلال المزروعة بأشجار الزيتون حيث تقع قرية جبع، زنابق بديعة ذات زهور خضراء، ولكن مما يسبب النكد البالغ أنه لم يكن بإمكانه أن يحصل على بصيلات الزنابق.

وبينما كنا ننتظر إعداد فطورنا قمنا بجمع مجموعة الحشرات المختبئة في كل زهرة من زهرات شقائق النعمان. وما كدنا نتناول اللقمة الأولى بشقّ الأنفس، حتى نهض الراهب – ولم يعد يتمالك نفسه لفترة أطول، حيث انتزع قطعة من الخبز وبيضتين مسلوقتين، وطلب منّا أن ننتظره لمدة نصف ساعة فقط، وامتطى فرسه مرّة أخرى وعاد للبحث عن بصيلات الزنابق ليضيفها إن أمكن إلى العيّنات التي جمعها. ولم يكن لدينا أي فكرة بأنه سيبتعد عنّا راجعاً نحو ميلين، ولكننا عرفنا ذلك من عدم الصبر الذي جرت إدانتنا من أجله في انتظار ذلك العالم النباتي المتحمس.

وقد بدا لنا من المقدّر بأنّ اسم جبع هو دائماً مرتبط بذكرى النحس ضدّ الراهب سيء الحظ.

وبعد غياب أكثر من ساعة عاد والتحق بنا في الوقت الذي بدأنا فيه نعاني من بعض القلق حول سبب تأخره غير المفهوم. وبينما كنّا نهيّء ماتيو للذهاب للبحث عن المفقود، ظهر لنا ثانية، وهو يتوهج بنشوة لأنه حصل على بعض البصيلات. ثمّ أسرعنا إلى امتطاء خيولنا من أجل النزول إلى وادي صانور.

إنّ جبع - بلا أدنى شكّ- مكان قديم جداً، حيث إنّ الصخور التي تظهر في أعلى القرية من التلّة الخضراء الجميلة حيث تقع القرية، محفورٌ فيها كهوف لدفن الموتى، وأنّ أي مقبرة من هذا النوع هي دليل على وجود مدينة سابقة في هذه البقعة. أيّ مدينة يمكن أن تكون هذه؟ إنّ الإجابة عن هذا السؤال مستحيلة.

يتحدث جوزيفوس عن جبع التي كانت بجوار جبل الكرمل، وهذه لا يمكن أن تكون هي نفسها. ويذكر ستيفنس (Stephens) في كتابه (Ethnicals) أنّ جبع مدينة في الجليل. وهذا يمكن أن يكون صحيحاً. وفيما يتعلق بالأولى يقول جوزيفوس، في سيرة حياته، (٢٤) بأنّ بيسارا (Besara) على تخوم منطقة بطليموس وعلى مسافة عشرين مقياساً من جبع. وهناك جبع أخرى ذكرها النبي زكرياء، وكانت بلدة صغيرة تبعد عن قيسارية ستة عشر ميلاً وتقع بجوار سهل مجدّو الكبير؛ ومن الواضح أن هذه جبع التي ذكرها جوزيفوس وليست جبع التي نحن فيها الآن. وأخيراً فإنّ البلدة التي كانت فيها قبيلة بنيامين كانت تحمل هذا الاسم (جبع) ولكنها كانت تقع على الحدود الشمالية لقبيلة جودا (Judah) حيث يقال: من جبع إلى بئر السبع، ولذلك فإنها لا يمكن أن تكون جبع التي نحن فيها الآن. وعلى الإجمال فإنه لم يبقَ أيّ موضع معروف في الكتابات القديمة، يمكن تشخيصه بوضوح على أنه جبع الحديثة، إنه من المؤكّد أنها قد حلّت محلّ مدينة قديمة.

وما إن وصلنا إلى أسفل قرية صانور حتى وجدنا الأرض سبخة جدّاً، ممّا دفعنا إلى الانعطاف شمالاً بأقصى سرعة ممكنة. واستناداً إلى المعلومات التي حصلنا عليها من محمد

في رحلتنا الأولى فإنّ هذا الوادي يشكّل أمام صانور بحيرة ضخمة، رغم أنها من المياه السطحية لكنها عميقة إلى الدرجة التي تجعلها غير ممكنة الخوض. ولذلك مررنا من خلف صانور ووصلنا في الحال إلى جنين للمرّة الثانية.

(٣٥)

رحلة وليام هنري بارتلت سنة ١٨٥١ [١]

مواطئ أقدام سيّدنا المسيح وحوارييه في سوريا واليونان وإيطاليا[٢]

يقول في وصف الطريق بعد خروجه من سبسطية باتجاه جنين مروراً بقلعة صانور[٣]:

"ومن هذا المكان قادتنا الطريق عبر تلال مزروعة وأودية لا حصر لها حتى وصلنا إلى القلعة المنعزلة القائمة على تلة صانور، وهي المعلم الوحيد البارز في الطريق حتى مشارف مرج ابن عامر الكبير.

ولدى مرورنا بأنحاء فلسطين، حتى في وضعها الحالي المضطرب، فإنّ المرء يدهش عندما يكتشف أنّ مساحة الأراضي المزروعة فيها أكثر بكثير ممّا كان يتصوّر، وأنّ الخصب الواضح الذي تتميز به هذه المنطقة برمّتها يتجلى بوضوح في موسم الحصاد ممّا يجعلها ذات قابلية للكثافة السكانية الدائمة".

---

(١) هو وليام هنري بارتلت رحالة ورسّام طوبوغرافي بريطاني ولد في لندن سنة ١٨٠٩ وتوفي بالحمّى على متن سفينة فرنسية عند انطلاقها من مالطة في أثناء عودته من الشرق الأدنى سنة ١٨٥٦. زار الولايات المتحدة أربع مرّات، كما زار البلقان والشرق الأوسط مرّات عديدة.

(٢) William Henry Bartlett, Footsteps of Our Lord and His Apostles in Syria, Greece and Italy, London, Arthur Hall, 1851.

(٣) ص ١٨٧.

(٣٦)

رحلة فان دي فيلدي(*)

إلى سوريا وفلسطين في سنتي ١٨٥١و ١٨٥٢(**)

يقول المؤلف في قطعة من رسالته المؤرّخة في ٧ آذار ١٨٥٢(١):

أمّا بيثوليا (Bethulia)، فإنّ هناك أدلّة كافية على أنّ تلك البلدة لا تبعد كثيراً عن دوثان (Dothan)(٢)، ولكن وبداعي البحث عن الاسم الذي تمّ نسيانه، فإنّ من الصعب القطع بأي شيء حول هذه النقطة بالذات.

وقد اعتقد بعض الرحّالة أنها صانور الحالية التي تقع بين التلال على مسافة تزيد قليلاً عن نصف ساعة إلى الجنوب الشرقي من دوثان. ومن خلال الطريق التي مررتُ بها لم يكن بالإمكان مشاهدتها من أي مكان.

وبالقرب من هذه القرية تقف آثار قلعة قديمة على قمة منحدر صخري شاهق، وقد أكدّ الدكتور روبنسون (Dr. Robinson) أنّ هذه الآثار تعود إلى الحقبة العربية، ويرى أنّ صانور التي تبعد سبعة أميال عن جنين لا يمكن أن تعدّ خطاً دفاعياً عن التلال الجنوبية القريبة. على أنّه لا ينبغي أن ننسى أنه عندما مرّ الرحّالة المتعلم(٣) بالقرب من هذه القرية فإنه رأى الآثار على المرتفعات من بُعد، ولم يكن على اطلاع بما يجاور دوثان من ناحية أخرى أو ما على الجهة الجنوبية الغربية من التلال.

ويذكر الدكتور روبنسون نفسه أن صانور كانت في ما مضى منيعة وذات شأن، يؤكد ذلك صمودها أمام الحصار الفاشل لمدة شهرين الذي فرضه عليها أحمد باشا الجزار أمير عكا عندما قام بمهاجمة أحد شيوخها المستقلّين الذي كان يتحصّن بين استحكاماتها، بينما احتاجت القوات المشتركة لعبد الله باشا والأمير بشير أمير لبنان إلى أربعة أشهر لإرغام صانور على الرضوخ.

إنّ التحصينات اليهودية القديمة قد اختفت وأقيمت مكانها تحصينات من العصور الوسطى ممّا أدى إلى إزالتها وهدمها، وإننا نجد هذه الحالة في سائر أرجاء فلسطين. وبدون معلومات أساسية تؤكد لنا عدم وجود حجارة رباعية الزوايا تعود للحقبة اليهودية في تلك الربوة الشاهقة، فإنّ مشاهدة الدكتور روبنسون لها عن بُعد تبقى ليس لها أي مصداقية.

وإنّ ما يضيفه الرحّالة المتعلّم في إحدى ملاحظاته من أنّ صانور لم تكن تحرس أيّاً من الممرّات الجبلية فإنه يناقض نفسه بنفسه عندما يذكر بأنّ هذه الطريق المؤدية إلى جنين كانت تمرّ بانتظام عبر وادٍ ضيّق ينفتح على مرج ابن عامر.

(*) رحالة وباحث كان ضابطاً في البحرية الألمانية، ونشر ستّ خرائط لفلسطين بالإضافة إلى الكتاب الذي يصف فيه رحلته. بدأ الرحلة من باريس إلى مرسيليا ثم إلى بيروت في شهر تشرين الأول ١٨٥١، ووصف أحداث الرحلة على صورة رسائل موجهة إلى أحد أصدقائه.

(**) C.W.M. Van De Velde, Narrative of A Journey through Syria and Palestine in 1851 and 1852, 2 vols., ed. William Blackwood and Sons, Edinburgh and London, 1854. وهو مترجم إلى الإنجليزية بإشراف مؤلّفه.

(١) رحلة فان دي فيلدي ١: ٣٦٦- ٣٦٨.

(٢) دوثان هي عرّابة حالياً، وتقع إلى الجنوب الغربي من مدينة جنين.

(٣) يشير بذلك إلى الدكتور روبنسون من باب السخرية، وقد أوردنا رحلته سابقاً.

وعندما قمتُ بجمع أوصاف موقع بيثوليا في كتاب Judith [١]، فقد أدى ذلك إلى اقتناعي بأنّ قلعة صانور الأثرية هي بيثوليا.

ففي الفصل الثالث/الفقرة (١٠) ما نصّه "حشد هولوفيرنس (Holofernes) جيشه بين بيسان وجبع". وهذان الموضعان ما زالا يحملان الأسماء نفسها وأن الوادي العريض بين جلبوع (Gilboa) وجبال نابلس (Samaria) يبدو لي أنه يمثل المكان الذي كان فيه معسكر القائد الأشوري.

وفي الفصل السابع/الفقرة (٣) أنّه أقام في الوادي بالقرب من عين بيثوليا. وحسب ما ورد في الفقرة (١٣) فإنّ هذه هي العين الوحيدة التي حصل منها المحاصَرون على إمداداتهم من المياه. وتبعاً للفصل الثاني عشر/الفقرة (٧)، فإنّ Judith ذهبت إلى هذه العين للصلاة مساءً قبل أن تذهب إلى معسكر هولوفيرنس.

إنّ المناطق المحيطة بدوثان وموقع المعسكر بين جبع وبيسان وكذلك (Chobai)، الفصل الخامس عشر/الفقرة (٤،٥) حالياً قباطية، في منتصف الطريق بين صانور وجنين، يبدو لي أنها المكان الذي يمكن تحديده لبيثوليا، بينما الوادي الذي يقوم فيه هذا الحصن الصخري، والعين التي في أسفل التلّة، تتفق كثيراً مع رؤية كتاب Apocryphal، لتترك كثيراً من الشكّ فيما يتعلّق بهذا التحديد.

ولابدّ في النهاية من أن أضيف، بأنّ هذا الرأي، يعارض بالجملة ما أورده ريتر Ritter العظيم[٢] (Great) في كتابه (Erdkunde) (Vol. 15, p 423- 426) حول بيثوليا، حيث اعتمد على ما وجده في رحلات القنصل البروسي المجدّ السيّد إف. جي. شولتز (F.G.Schultz). ولو أنّ السيّد شولتز صحبني في ذلك اليوم الذي مررت فيه بدوثان، لما تمسّك برأيه حول بيت إلفا (Beit-ilfa) إلى الشمال الشرقي من جبال جلبوع (Gilboa) ولما حدّد موقع بيثوليا في تلك الآثار[٣].

---

(١) كتاب جوديث هو جزء من العهد القديم لدى الروم الكاثوليك والأرثوذكس الشرقيين، لكنه تمّ استبعاده من قبل اليهود والبروتستانت. وفيه معلومات تاريخيه كثيرة. وقد ورد في هذا الكتاب الذي سمّي باسمها أن جوديث كانت أرملة يهودية جميلة وجريئة، وأنه أزعجها عدم إقدام أبناء شعبها على مواجهة الغزو الأشوري، فذهبت بنفسها مع جاريتها إلى معسكر هولوفيرنس القائد الآشوري، ووعدته بتقديم معلومات عن بني إسرائيل، حتى فازت بالحظوة لديه، ولما وثق بها دخلت عليه ذات ليلة وهو نائم بعد سكره، فقطعت رأسه، وحملته إلى رجال قومها الخائفين، وبذلك تكون قد حمت قومها. ويحاجج فان دي فيلدي بأنّ هذه الحادثة قد وقعت بالقرب من صانور وأن جوديث صلّت عند عين صانور قبل أن تتوجه إلى القائد الآشوري. كما يحاجج بأنّ بيثوليا التي تنتمي إليها جوديث هي صانور الحالية، وينتقد الدكتور روبنسون الذي يرى خلاف ذلك انتقاداً شديداً.

(٢) أعتقد أن وصف ريتر بالعظيم (The Great) هو من باب السخرية أيضاً مثل وصف الدكتور روبنسون بالمتعلّم.

(٣) وفي كتابه "Memoir. To accompany the map of the Holy Land مذكّرة كي تصطحب معك خارطة للأرض المقدسة"، يذكر فان دي فيلدي صانور غير مرّة، فيقول في حديثه عن الطريق من جنين إلى نابلس عبر قباطية فصانور فسبسطية (٢٣٥) "إنّ المنحدر (من قباطية) إلى السهل الخصب الذي يقال له مرج الغرق قصير المسافة، ولكنه أكثر انحداراً من الطريق الصاعدة من جنين، وهذا المرج، كما يظهر من اسمه، تغطيه

رحلة موريتس بوش سنة ١٨٥٢ -١٨٥٦[١]

الحج إلى القدس[٢]

يقول في وصف صانور عند مروره بها قادماً من القدس إلى الناصرة[٣]:

"وعلى السفح الغربيّ للهضبة المنعزلة حيث يسمع منها نقيق مجموعات الضفادع عند الماء، تقع بلدة صغيرة على هيئة قلعة، وقد أطلق عليها دليل رحلتنا (صانور)، و هي حسب اعتقاده تمثّل بيثوليا القديمة، حيث شهدت سهولها الغارقة بالمياه ملحمة جوديث وهولوفيرنس. ولا أدري من أين أتى هذا الدليل بهذه المعلومة، وقد يكون استقاها من الرواية الأخرى التي يُذْكَرُ فيها أنّ القائد المصري إبراهيم باشا حاصر المكان ثلاث سنوات ولكن دون جدوى.

ولا تذكر الرواية شيئاً عن الأرملة الجميلة (مناسيس). وبموجب هذه الرواية لا يمكن أن يكون هولوفيرنس أشوريّاً، بل فارسيّ، وفي مجملها فهي رواية بطولة، ويعتقد أنّ الجغرافيا القديمة لم تعرف بيثوليا".

مياه الأمطار في فصل الشتاء، التي تتجمع من المنحدرات الجبلية المحيطة، دون أن يكون لها أي منفذ. وبعد اجتياز قلعة صانور التي تحتل موقعاً منيعاً ولكنّها الآن مدمّرة، وعين الماء التي تقع في القاعدة الجنوبية للصخرة التي تجثم عليها، فإنّ الطريق تصعد إلى جبع، وهي قرية عظيمة فيها برجٌ وآثار قديمة".

ويقول في موضع آخر في وصف هذه الطريق (ص٢٧٢):" إنّ آثار السامرة تبعد مسافة ساعتين عن الطريق القادمة من نابلس، وبعد ذلك فإنّ هناك خيارين للتوجّه إلى جنين: إمّا عن طريق صانور، وإمّا عن طريق تلّ دوثان (عرّابة) ثم برقين".

ويضيف أيضاً (ص ٢٧٢): "إنّ طلب خيّال مرافق من حاكم نابلس يتطلب منك أن تذكر أسماء الأماكن التي ستزورها بشكل دقيق، وكذلك أن تحمل رسائل موجّهة إلى شيوخ تلك القرى التي ستقضي بها ليلتك أو التي تبحث فيها عن بعض الخدمات الضرورية. وفي بيسان تنتهي حدود حكم نابلس، ويتبع هذا المكان لمتسلّم جنين".

وفي تعريفه بمدينة (بيثوليا Bethulia) يقول (ص ٢٩٨): "بلدة حصينة بشكل قويّ تقع على تلّة بجانب دوثان، وكانت هناك عين ماء عند الحافة السفلى للتلة، ويرى رومر (V. Raumer) بأنّها هي صانور الحاليّة الواقعة بين جنين وسبسطية. وقد أكّد اكتشاف دوثان هذا الرأي".

(١) ولد الدكتور موريتس بوش في درسدن بألمانيا سنة ١٨٢٨، ودخل جامعة ليبزغ سنة ١٨٤١ وتخرّج وهو يحمل الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٨٤٧، وكرّس نفسه في البداية للصحافة والأدب، وقام برحلة إلى أمريكا ورحلات عديدة إلى مصر و اليونان وفلسطين وكتب عن هذه الرحلات ونشر أعمالاً كثيرة، وتوفي في ليبزغ سنة ١٨٩٩.

(٢) Eine Wallfhart nach Jerusalem, Bilder Ohne Hieligenscheine, Moritz Busch, Leipzig, 1881.

(٣) ص ٤١٦- ٤١٧، وقام بترجمة هذا النصّ من الألمانية إلى العربيّة الأستاذ الدكتور غالب جرّار.

(٣٨)

رحلة آرثر ستانلي ١٨٥٢ - ١٨٥٣[١]

سيناء وفلسطين في إطار تاريخيّ[٢]

يقول في وصف صانور لدى وصوله إليها من سبسطية[٣]:

ثمّ نجد أنفسنا أمام سهل فسيح مفتوح، وهو ما يدعى سهل صانور، الذي تبرز من وسطه عدة تلال منحدرة، حيث توجد قمة هي الأكثر ارتفاعاً وإشرافاً تتوّجها قلعة صانور القويّة.

وعبر هذه الممرّات التي تحرسها في الغالب قلاعٌ تمرّ خطوط الاتصال بين الشمال والجنوب. وفي هذه الممرّات كان الغزاة القادمون من الشمال يردّون على أعقابهم دائماً...

إنّ الأهمية الرئيسية لهذه المنطقة هي كونها تتحكم في الطرق إلى مرج ابن عامر، وهذه المناطق ليست معروفة كثيراً، وعند الحديث عنها فإنّ غالبية الرحّالة يضطرون إلى استخلاص نتائج من تلك الطريق المارّة من سبسطية عبر صانور إلى جنين.

---

(١) يذكر ستانلي أنه قام برحلته في شتاء ١٨٥٢ وربيع ١٨٥٣ مع ثلاثةٍ من أصدقائه، ولد آرثر سنة ١٨١٥ في بريطانيا ودرس في أكسفورد سنة ١٨٣٣، وفي سنة ١٨٤٠ قام برحلة إلى سويسرا وإيطاليا واليونان وصقلية، ثمّ رجع إلى أكسفورد ليعيّن كاهناً، ثمّ عيّن في عدة مناصب دينية وأكاديمية، وقام برحلته إلى سيناء وفلسطين في إطار واجباته الدينية والأكاديمية، وتوفي سنة ١٨٨١ بعد وفاة زوجته بخمس سنوات.

(٢) Arthur Penrhyn Stanley, Sinai and Palestine in Connection with their History, Redfield, New York, 1857.

(٣) ص ٢٤٣- ٢٤٤.

رحلة جي. روس براون سنة ١٨٥٣:

يوسف أو رحلة الفرنجي: غزوةٌ للشرق[١]

يقـول عـن رحلتـه مـن جنـين إلـى نـابلس مـروراً بقباطيـة وصـانور وجبـع وبرقـة وسبسطية[٢]:

"وبعد نحو ساعتين وصلنا إلى قباطية، وهي قرية مأهولة بشكل رئيسي بسكّان أتراك(*)، وبعد ذلك مباشرة وصلنا إلى ممّر جبلي يمكن للمرء أن يشاهد منه منظراً بديعاً لسهلٍ خصب في الأسفل.

وتظهر قرية صانور[٣] على الجهة المقابلة و هي تقع بشكل جميل على إحدى القمم، محاطة بأسوار مدمّرة وفيها آثار قلعة قديمة، وهي تستحق التمتع بالنظر إليها إذا كان لدى الشخص وقتٌ فائضٌ لذلك.

وعلى اليسار، وعلى بعد ساعتين، تقع قرية جبع، وهي أشبه بلوحة بديعة للآثار التي تحتضنها بساتين الزيتون. و هذا الجزء من البلاد تكثر فيه بساتين التين والزيتون. و قد شاهدنا عدداً من العرب يحرثون حقولهم تماماً كما كانت تحرث الحقول قبل ثلاثة آلاف سنة. ما الذي يمكن أن يفكر فيه المزارع عندما يعود إلى بيته: في هذا القرن التاسع عشر، كيف تحرث الأرض وتقلب بمحراث خشبي ذي شعبتين يجره زوج من الثيران مربوطين به ؟!

ومن جبع، انحرفنا عن الطريق الرئيسي، وأطلقنا بغالنا نحو نابلس آخذين طريقنا إلى سبسطية. و من رأس قمة جبل لا تبعد كثيراً عن جبع تمتعنا بمشاهدة منظر الأودية البديع على الجانبين بعيونها الجارية التي تحفها الأشجار الخضراء".

---

(١) J.Ross Browne; Yusef or; The Journey of the Frangi: A Crusade in the East, New York, 1853. والمؤلف هو جون روس براون، ولد في إيرلندا سنة ١٨٢١ وتوفي في كاليفورنيا سنة ١٨٧٥، درس في أحد المعاهد الطبية ثمّ انتقل سنة ١٨٤٩ إلى كاليفورنيا وعمل في عدة وظائف حكومية. قام برحلة إلى أوروبا والشرق الأوسط حيث نشر كتابه (يوسف) سنة ١٨٣٥، ثمّ أتبعه كتباً أخرى.

(٢) ص ٣٤٨-٣٤٩.

(*) يقصد العرب بوصفهم رعايا لتركيّا.

(٣) في الأصل Sanean.

(٤٠)

رحلة جيمس فِنّ(*) ١٨٥٣ - ١٨٥٦(**)

أوقات مثيرة أو تدوينات من التاريخ القنصلي للقدس

تحدّث فِنّ عن صانور وآل جرّار في عدّة مواضع من كتابه وفي عدّة سياقات، ففي حديثه عن الصراعات العائلية في جبل نابلس يقول(١):

"كان جبل نابلس يُحكم بالتناوب بين قائمقامين يجري اختيارهما من عائلتين فقط، وكلاهما أصله من المدينة ذاتها، وكان الباشا يفعل ذلك مدفوعاً بضرورة التناوب بين هاتين العائلتين، وهما:

١. عائلة طوقان التي تنزع نزعة محافظة قديمة في السياسات المحلية، وتتحالف معها عائلة جرّار.

٢. عبد الهادي التي تتحالف معها عائلات قاسم الأحمد والجيوسي والريّان..(وقد كان ينظر إلى طوقان وحلفائهم أنهم يمثلون حزب الأتراك بينما كان عبد الهادي يمثلون المدرسة المصرية في التقدم).

ويتابع في السياق نفسه وفي مكان آخر قوله عن آل جرّار(٢):

"وكان لكل حزبٍ من هذين الحزبين الكبيرين أنصار ومساعدون كثر، وقد كان القتال يندلع أحياناً بين الفئات الثانوية المناصرة لهذا الحزب أو ذاك ثم يلحق بهما البقية تدريجيّاً. وقد وقع مثل ذلك سنة ١٨٤٨ عندما حدث قتال بين فريقين من قبيلة جرّار، حيث أدّى ذلك لاحقاً إلى انضمام كلّ فريق منهما إلى طرفٍ من الطرفين المتصارعين، ووقف أنصار كلّ فريق معه في ذلك الصراع".

ويقول في موضع آخر(٣):

"وفي سنة ١٨٥٤ كانت حالة الفرقاء في نابلس على النحو التالي:

١. طوقان وحلفاؤهم:

١- أولاد البرقاوي، وكانوا شيوخاً على ثلث وادي الشعير.

(*) المؤلف جيمس فنّ، كان القنصل البريطاني لملكة بريطانيا في القدس وفلسطين من سنة ١٨٤٥- ١٨٦٩ وله عدّة مؤلفات منها هذه الرحلة، ومنها كتاب: Byeways in Palestine. أما يومياته فقد قامت أرملته بإعدادها وتحريرها.

(**) James Finn, M.R.A.S, Stirring Times, or Records from Jerusalem Consular Chronicles of 1853 to 1856 (2 Vols.), London, C.Degan Paul & Co. 1878 أيّام مثيرة، أو تدوينات من التأريخ القنصلي للقدس.

(١) ١: ٢٣٩.

(٢) نفسه ١: ٢٤٠.

(٣) حاشية ١: ٢٤٢.

٢- عائلة صادق، في المجدل وبلاد جماعين وكانوا يحكمون أكثر من اثنتين وعشرين قرية، وكان يحكمها موسى أبو بكر.
٣- عائلة جرّار في الشرقاويات، وهي (١٨) قرية (وكان نصف هذه العشيرة منضماً إلى الفريق المضادّ).... الخ.

وفي حديثه عن الحملة العسكرية التركية سنة ١٨٥٢ على جبل حوران، يذكر من كان مع الحملة من شيوخ جبل نابلس قائلاً:

"وممّن شاهدته مع مصطفى باشا في فرقة المشاة الشيخ أحمد جرّار[*] شيخ جبع شديد التعصّب، الذي أخذ يهدر حال دخولي بيته قبل سنتين قائلاً: إذن فإن السلطان يسلّم بلاد المسلمين قطعة قطعة للنصارى".

وفي إشارته إلى شهرة صانور بالممرات الصخرية المعقدة يتحدث عن قرية تدعى سرين Serin في جنوب لبنان قائلاً[١]:

"حيث الصخور مثقبة بالممرات المعقدة أكثر بكثير من تلك التي في صانور، بالقرب من نابلس".

أمّا الوصف الأهمّ في هذه الرحلة فهي زيارة فِنّ نفسه لقريتي جبع وصانور سنة ١٨٥٤ قادماً من نابلس ومعه الخوري جون بوين John Bowen يقول[٢]:

"وبعد مغادرتنا نابلس باتجاه الشمال مروراً بسفح جبل عيبال، وبعد نحو ساعة من الركوب الصعب وصلنا إلى جبع، معقل آل جرّار (انظر وصف عائلات نابلس في الفصل العاشر)، وهنا يبدأ سَهْلٌ ضيّقٌ في الرحلة باتجاه الشمال، حيث تظهر في منتصف الطريق وبشكل مباشر تلّةٌ في الأمام تظهر من مسافة تعترض الطريق لمسافة أبعد، وعلى هذه التلّة تقع قرية صانور المهمّة".

وهذا الاسم ليس معروفاً في أي من مصادر العصور القديمة التي لدينا ولا حتى في كتب التاريخ المختصة بالعصور الوسطى، ولكنها مشهورة في الحروب العربية المعاصرة، وذلك بسبب حصارين بالمدفعية تعرضت لهما القرية، الأول قاده أحمد باشا الجزار أمير عكا، والثاني قاده أمير جبل لبنان الأمير بشير لمساعدة عبد الله باشا زعيم عكا في سنة ١٨٣٠، وهذان الحصاران يمثلان ذكرى سيئة السمعة في أذهان الناس.

ومازالت قذائف المدفعية وشظايا القذائف (وبعض القذائف ما زالت كاملة على حالها) ما زالت تُشاهد في الحقول المحيطة. وقبل سنة ١٨٥٠ بمدة أصبح هذا المكان مهجوراً لفترة طويلة، وقد أعيد بناء حوش مزر أو حوشين خارج خرائب قلعة صانور، وفي تلك السنة بتُّ في جبع، وفي حوار مع الشيخ أحمد جرّار عن تلك الأيام الماضية، أخبرني بأنّ تلّة صانور تخترقها ممرّات سريّة، وهي الآن على أية حال معظمها مغلق بسبب الردم، وأخبرني أنه فوق مدخل أحد هذه السراديب كان يُشاهد تمثال نسر منحوت من الصخر.

(*) هو الشيخ أحمد آغا بن عبد الله آغا اليوسف الجرّار.
(١) نفسه ١: ٢٩٤.
(٢) نفسه ٢: ١٥٤- ١٥٦.

وقد قفز إلى ذهني أنّ هذه القناطر أو العقود تحت الأرضيّة وتمثال النسر ليست من البناء العربيّ، وأخذت بحماسة أسأله عن مصير هذا النسر. فأجاب بأنه عندما كان صغيراً قام الناس بتحطيم النسر إلى ذرّات لأنهم لا يرغبون بالاحتفاظ بأي صورة لأيّ كائن حيّ.

وفي رحلة لاحقة في فلسطين بتُّ ليلة في صانور، فوجدت أن بيوتاً كثيرة قد تمّ بناؤها، وتحرّيت بشكل أوسع عن هذه الموضوعات من بعض الناس الذين استقرّوا هناك، وقد أكدوا لنا وجود الممرّات المغلقة، ولكنهم أقسموا بأنّ التمثال لم يكن لنسر بل تمثال أسد، ومن هنا استخلصت في ذهني أنه ربما كان التمثال لكليهما – أسداً ذا أجنحة- وأنه ربما كان أثراً مقدساً لأحد الفينيسين (أهل البندقية) أو أحد المالكين الصليبيّين.

إنّ موقع هذه التلّة مهمّ للغاية، فمن الناحية العسكرية تقع في منتصف الطريق على امتداد سهل ضيّق حيث تمرّ الطريق الوحيدة من الجليل إلى القدس، إلاّ إذا اختار المسافر أن يسلك أيّاً من الطرق الالتفافية غير المباشرة العديدة. وعلى أية حال فإنّ المكان يمكن التحكّم فيه بسهولة بالمدفعية الحديثة من التلال القريبة على جانبي الطريق.

* * *

وفي طريق عودته مع صديقه الخوري جون بوين من الناصرة إلى نابلس فالقدس بعد عيد الميلاد من سنة ١٨٥٤ ولدى اقترابه من صانور، وصف السيّد فِنّ مظاهر المصادمات التي وقعت في قرى نابلس بين أطراف الصراع المختلفة. قائلاً[١]:

وقبيل وصولنا إلى صانور التقينا مع مجموعة مؤلفة من نحو سبعين رجلاً مسلّحاً، وكانوا يغنّون أغنية حرب لدى عودتهم من إحدى العمليات الأخيرة. وقد أخبروني بأنه تمّ استدعاؤهم من قبل قادتهم من أجل التوجُّه نحو بُرْقة بالقرب من سبسطية، لكنهم الآن عائدون إلى بيوتهم لأنهم علموا بأنّ تسوية بين الطرفين المتخاصمين يجري ترتيبها ممّا يؤدي إلى عدم الحاجة إلى خدماتهم. وبعد ذلك التقينا بمجموعات أخرى ولكن أصغر تسير خلف المجموعة الرئيسية من غير نظام عائدين من غير أن تتاح لهم فرصة قدح زناد البارود.

وكان يظهر على جميع هؤلاء الرجال الملامح المميزة لفلاّحي جبل نابلس، التعبيرات القاسية والحماسية الخادعة، وقد لبسوا الطرابيش على رؤوسهم، وهي أطول من تلك التي تلبس عند جيرانهم في الجنوب، وقد أمالوها إلى جهة واحدة من رؤوسهم. وكانوا يمشون بزهو غير منضبط في مشيتهم وبمظهر عابث بشكل عام.

وفي طريقنا باتجاه برقة، وقبل صعود التلّة إلى الفندقومية أخبرتنا بعض النساء اللواتي كنّ يقمن بجني ثمار الزيتون بأنّ العُربان[٢] قد خرجوا لمساعدة دار جرّار وأنّهم قد سبقوكم في الطريق....

وبعد نحو مائتي ياردة وفي إحدى منعطفات الطريق رأينا بعض دوابّ العربان مربوطة بأوتاد، ورأينا رماحاً تلمع مكوّمة بشكل عنقودي، ورأينا رمحاً آخر ملقى في الطريق كأنه إشارة إلى أن تجاوز هذه الطريق ممنوع، وقريباً من ذلك وتحت إحدى الأشجار كان يدور نقاش بين عدد من الشيوخ يشارك فيه شيوخ القرية وحلفاؤهم من البدو. ولا شك أنّ ذلك

(١) ٢: ١٦٨- ١٧١.

(٢) إشارة إلى بني صخر.

كان للتفاوض حول التسوية التي سمعنا عنها من مجموعة المسلحين الذين التقيناهم في الطريق. ولمّا كان الرمح الذي يعترض طريقنا بمثابة علامة على الحدود لا يستطيع أن يحول بيننا وبين مواصلة السير، فقد مضيت ومن معي وقفزت عن الرمح، وفي الوقت نفسه أعلمتهم من أكون.

وعند ذلك تقدّم بعض آل جرّار نحوي ونصحني بألاّ أمضي قدماً، وبالفعل لاحظنا مجموعة من الرجال أمامنا مباشرة خلف أحد المتاريس، حيث كانت بنادقهم مصوّبة نحونا. وقد تقدمت بهدوء وورائي رفاقي ودخلت بذلك قرية برقة، حيث وجدنا جميع الأبواب والشبابيك موصدة، وكلّ زاوية من زوايا القرية محتلّة بنقطة عسكرية فيها ثلاثة رجال مسلّحين.

وقد قال لي أحد الشباب في برقة بأنّ هذا الوضع نشأ بسبب زواج إلى جانب أن نصف سكان برقة كانوا من فريق آل جرّار والنصف الآخر من فريق آل عبد الهادي، وأما بنو صخر فكانوا وسطاء.

ثمّ يتابع في موضع لاحق(١):

وطوال طريقنا إلى نابلس التقينا بمجموعات صغيرة كانت تتقدم نحو ساحة الحرب، وبالقرب من تلك المدينة كان الجميع يتقصّى الأخبار.

"لقد كان من واجبنا أن نطلع على وجه السرعة حاكم نابلس على المستجدّات التي شاهدناها بأمّ أعيننا (وبالمناسبة فإنّ حاكم نابلس هذا كان شخصية مهمّة، وهو الذي رأيناه في تموز الماضي مع مرافقي الباش بُزُقْ وقارعي الطبول بالقرب من صانور، خلال جولته لإعادة الأمور إلى نصابها، وكان من حزب عبد الهادي المنافس لبيت طوقان).

ويتابع في موضع آخر(٢):

وقد ازداد الوضع اضطراباً في نابلس خلال السنة التالية، حتى إنه في شهر أيار ١٨٥٥ أرسل حاكم تركي إلى تلك الناحية، وكان عليه أن يحارب في طريقه حزب طوقان إلى أن يصل إلى مقرّ الحكومة في نابلس. وقد أدى ذلك إلى مقتل عدة أشخاص خلال ذلك.

لقد سيطر على الوضع ولكن لفترة قصيرة، ثمّ عادت نابلس إلى الفوضى السابقة. وقد تمّ حصر عدد ضحايا هذه الصراعات في نابلس خلال سنتي ١٨٥٤و ١٨٥٥ فبلغ نحو ٣٠٠- ٤٠٠ قتيل من أجل السيادة على جبل نابلس.

ثمّ يقول في مكان لاحق(٣):

وفي الثاني عشر من نيسان ١٨٥٥ جاءت الأنباء بأن الاشتباكات قد تجدّدت في السهول الغربية لمنطقة نابلس بين حزبي طوقان وجرّار وشارك بها العربان. وقد أدّت الفوضى الناجمة عن ذلك إلى أن يعلن الباشا حالة التأهّب. وفي منتصف الليل دعا جميع القناصل إلى اجتماع تشاوري حول الأوضاع في تلك الناحية المضطربة.

---

(١) ٢: ١٧٢.
(٢) ٢ : ١٧٣.
(٣) ٢ : ٤٣٤- ٤٣٥.

وفي الليلة التالية عقد الباشا مشاورات أخرى مع القنصل الفرنسي والقنصل الإنجليزي، وقد أرسل سعادته رسالة مع أوامر خطيّة إلى حاكم نابلس محمود بك عبد الهادي بأن يعتقل قادة الفتنة والجريمة ويرسل بهم إلى القدس، وقد حملت هذه الرسالة والأوامر إلى نابلس خلال الليل.

وفي صباح اليوم التالي الرابع عشر من نيسان عقدت اتفاقية سلام وأعلن عنها بواسطة مدافع القلعة[1].

---

(١) وفي التقرير الذي بعث به جيمس فن إلى الكونت دي ملمسبوري في ١٤ نيسان ١٨٥٩ يقول عن مشاهداته في نابلس: "أتشرّف فانبئكم أنه بينا أنا عائد حديثاً إلى القدس مررت في القضاء المعروف بجبل نابلس، فالتقيت بحملة عسكريّة تتهيأ لمهاجمة العربة (عرّابة) وهي معقل أسرة عبد الهادي. وقوام هذه التجريدة ٤٠٠ من المشاة و٢٠٠ فارس نظامي و ٨٠ من حملة البنادق المضلعة معها مدفعان سهليان من الشبه (البرونز) عيارهما كبير عدا الفلاحين الذين انضموا إليها من حزب طوقان وجرّار. وكان الجيش معسكراً بنظام على هضبة تبعد ثلاثة أميال من جنوبي العربة، وهذه القرية قد طالما كانت منبع الشرور التي نزلت بالناحية المجاورة، وقد سبق لي أن وصفت لكم أسرة عبد الهادي في رسالاتي عن هذه الناحية. فأموالهم هي في البلدة المذكورة ورجالهم الأشدّاء أيضاً بما فيهم محمد حسين قائدهم وهو الذي فر منذ سنوات من سجنه في طرابزون. وقد قال لي الأمير آلاي والبكباشي اللذان يقودان هذه التجريدة إنّ الغاية الرئيسية منها ترمي إلى إجابة مطالبي المتكررة والقبض على مثيري فتن سنة، ١٨٥٦ على أني لم أكن لأشير بمثل هذه الوسائل، كما أني لا أعتقد بتحقق مطالبي بواسطة هذه التجريدة، ولو نجحت ممّا لا أنتظره ومع ذلك فإن لدى الحكومة العسكرية ذرائع عديدة عسكريّة تؤدي إلى معاقبة أسرة عبد الهادي".

وفي تقرير آخر بتاريخ ٢٦ نيسان ١٨٥٩ يقول:" أتشرف فأخبركم أن البعثة العسكرية المذكورة في رسالتي المنفذة في ١٤ الجاري قد هاجمت في ١٧ منه بلدة العربة الكبيرة فلحق بأسرة عبد الهادي العاصية خسائر عظيمة في حين أن خسائر الحكومة كانت قليلة. إن كل زعماء هذه الأسرة قُتلوا أو تفرق شملهم، وجعلت البلدة قيد النهب مدة ساعتين، ودمرت بيوتها من بنائين جيء بهم لهذه الغاية ولم يبقَ سوى بعض البيوت لإيواء الجنود. ولم يسبق للحكومة التركية بعد استعادتها الحكم في سنة ١٨٤٠ أن استعملت هذه الشدة وعليه لا تُعذر الآن إذا أبت إنصافنا.

انظر مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان، من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٩١٠، المجلد الأول، تعريب فيليب وفريد الخازن صاحبي جريدة الأرز، دار نظير عبود. (ص ٣٣٦، ٣٣٨).

(٤١)

رحلة بنجامين دُرّ ١٨٥٤:

ملاحظات رحلة في مصر والأرض المقدّسة وتركيّا واليونان(١)

يقول في وصف الطريق من القدس إلى الناصرة مروراً بنابلس وجبع(٢):

""وقد مررنا بعدّة قرىً يوصف سكّانها بأنّهم سيّئو السمعة بسبب عدوانيتهم ضدّ الرحّالة، وذات مرّة وفي جبع إحدى هذه القرى رُشقْنا بالحجارة من قبل الرجال والأولاد، وقد أصيب أحد رفاقي بعدة رضوض، نتيجة ما سمّاه "الهرب غير المشرّف".

وقام مرافقنا الشهم حسنين بهمز فرسه العربي وسط الحشد وقد أشهر مسدسه وهدّد بإطلاق النار عليهم، بينما قمنا نحن بالتراجع السريع".

(٤٢)

رحلة ويليام بيمونت سنة ١٨٥٤:

يوميات رحلة إلى الشرق في خريف ١٨٥٤(٣)

يقول في وصف صانور في أثناء توجّهه من سبسطية إلى جنين(٤):

"ويشرف على طرفها الشمالي قلعة صانور، وهي تقع على تلة عالية تبرز في وسط السهل، وتحول –وبشكل فعّال- دون محاولات اقتحامها ضدّ إرادة مالكيها. إنّ موقعها كان تحديداً شديد الانحدار ومهيباً، وقد ذكّرتني هذه القلعة بشكل قويّ جداً بواحد من الحصون الجبلية القديمة في الهند".

---

(١) Benjamin Dorr, Notes of Travel in Egypt, The Holy Land, Turkey and Greece, Philadelphia, 1856.

(٢) ص ٢٥١.

(٣) William Beamont: A Diary of a Journey to the East in the Autumn 1854, 2 Vols., Longman, London, 1856

(٤) ٢: ١٣٩.

(٤٣)

رحلة روبرت والتر ستيوارت ١٨٥٤:

الخيمة والخان: رحلة إلى سيناء وفلسطين(*)

يصف رحلته من سبسطية إلى الناصرة مروراً بالفندقومية وجبع وصانور وجنين في ٢٢ آذار قائلاً[١]:

"وفي الساعة الحادية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة مررنا عبر قرية الفندقومية، وهي التسمية العربيّة للكلمة اليونانية بنتاكومياً (Pentacomia). وبعد نصف ساعة منها وصلنا إلى وادٍ جميل يدعى جبع، كما يسمّيه المكاري الذي معنا والذي قابلناه قبل الوصول إليها بقليل عندما التقت طريقنا بالطريق الرئيسي القادم من نابلس. وهذه القرية هي جبع أخرى[٢]، ولكن لا يوجد لها ذكرٌ في الكتاب المقدّس، وقد اقتبس ريلاند (Reland) من يوسيبيوس ذكره لبلدة تدعى (Gaba) تبعد ستة عشر ميلاً عن قيسارية وليست بعيدة عن المرج الكبير، وهي ما يتفّق بشكل مقبول مع موقع هذه القرية".

ويقول بعد ذلك[٣]:

"وبعد اجتيازنا قرية جبع توجهنا نحو الشمال الشرقي في واد جميل أخضر حيث تنمو شقائق النعمان بكميات كبيرة. وعند نهايته العليا على مسافة نحو ميلين وعلى رأس تلّة هناك تطلّ على الوادي حتى تكاد تقترب منه، تقف بلدة صانور وتظهر بشكل جليّ من بعد، وهي ذات مكان محصن تحصيناً قوياً، على الرغم من أنّ تفحّصها عن قرب يكشف بأنّ جدرانها لم تعد بتلك القوة البالغة.

وعلى مسافة نحو نصف ساعة منها في الوادي فوجئنا كثيراً بمشاهدتنا قذيفة مدفع كبيرة ملقاة بين الأعشاب وقد علاها الصدأ، كما مررنا بقذيفة أخرى بالقياسات نفسها وبشظايا قذائف كثيرة. ولمّا رأى أحد النصارى الذي كان يسافر من نابلس بصحبة المكاري دهشتنا من هذه القذائف تطوّع فوراً لتفسير ذلك قائلاً إنّ هذه القذائف موجودة منذ أربع وعشرين سنة في هذا المكان، ولم يحاول أي شخص أن يكلّف نفسه عناء إزالتها.

وفي سنة ١٨٣٠ قام عبد الله باشا حاكم عكا يساعده الأمير بشير أمير لبنان بمحاصرة شيخ صانور الذي أعلن الثورة على الحكم التركي. وبالرغم من أن المدافع كانت قد جُلبت لحصار البلدة بصعوبة بالغة من عكّا، إلاّ أنه (عبد الله باشا) لم يستطع الاستفادة منها كثيراً، حيث احتاج إلى ما لا يقلّ عن تسعة أشهر حسب مصادرنا لإخضاع البلدة. وقد قام الباشا

(*) Robert Walter Stewart, The Tent and The Khan: a Journey to Sinai and Palestine, Edinburgh, William Oliphant and Sons, London, Hamilton, Adams and Company, 1857.

(١) ص ٤١٩.
(٢) توجد جبع ثانية في رام الله.
(٣) ص ٤٢٠.

بالانتقام من أهل صانور عندما قام بقطع أشجار الزيتون العائدة لهم، وبلا مبالاة شرقية خالصة، لم تزرع أشجار أخرى في مكان تلك الأشجار مرّة ثانية".

وبعد أن أورد مناقشة فان دي فيلدي لاحتمال أن تكون صانور هي بيثوليا يتحدث عن مرج الغُرُق قائلاً[(١)]:

"وغادرنا صانور بضع خطوات إلى اليمين دون أن ندخل أسوارها، ثمّ انحدرنا حالاً إلى مرج ممتدّ، وبعبارة أخرى، مستنقع يقال له مرج الغُرُق، وهو اسمٌ على مسمّى.

وبينما انعطفت الدوابّ التي تحمل أمتعتنا إلى اليسار بمحاذاة قاعدة التلال فقد أقنعنا الدليل الذي كان معنا بأن نسلك الممرّ الذي يقطع المرج بشكل قُطري مائل، وقد وجدنا في الحال وبسبب ذلك أن دوابنا المسكينة قد غطست في الماء والوحل حتى حزام السرج في كلّ خطوة. وقد قطعنا ثلاثة أميال على الأقل في هذا التخبط المخيف وأقدامنا مغمورة في الماء، ونحن نتوقع في كل لحظة بأنّ الخيول سوف تنهار سريعاً من الإعياء الشديد، وذلك لأنها كانت تحتاج إلى جهد عظيم لرفع أرجلها من الوحل.

وفي فصل الصيف تجفّ مياه المرج تماماً، إنّ الماء الذي خضناه لم يكن إلاّ مياهاً سطحية تجمعت نتيجة الأمطار الأخيرة، واحتفظت بها الأرض بسبب طبيعة التربة التي فيها عنصر الألمنيوم.

وكانت هناك الكثير من طيور اللقلق تصطاد بين قصب الأعشاب الطويلة وأكوام القشّ على جانبي الطريق. وقد استغرق منّا خوض حمأة القنوط هذه ساعة كاملة إلى أن وصلنا أخيراً إلى نهايتها من جهة الشرق.

وفي الساعة الواحدة والنصف توقفنا لمدة نصف ساعة تحت بعض أشجار الزيتون القديمة الجميلة لتناول الغداء، ولإراحة دوابّنا المرهقة. وكانت التلال التي على يسارنا تنتشر فيها أحطاب الأشجار المقطوعة، وبينما كنّا نعبر من أماكن مليئة بالأزهار البريّة ظهر أمامنا دبّان بنيّان، ثمّ قفزا على التلّة بسرعة بمقدار ما تستطيع أرجلهما الغليظة أن تحملهما. وقد تمّ تعبئة البندقية الوحيدة التي كانت بحوزتنا، ولكنّ السادة بروين (Bruin) تردّدوا قليلاً قبل أن نتنبأ بما قد يعانونه نتيجة إطلاق النار من هذه البندقية.

وبعد أن غادرنا مرج الغُرُق صعدنا ممّراً صخرياً باتجاه الشمال يمكن من قمته مشاهدة مرج ابن عامر وهضبات الجليل...

---

(١) ص ٤٢١- ٤٢٢.

رحلة جيمس فِنّ ١٨٥٥ (*)

طرق ثانوية في فلسطين

في السادس من تشرين الثاني وفي وصف انتقاله من الناصرة إلى صانور يقول جيمس فنّ[١]:

"وفي اليوم التالي، اجتزنا مرج ابن عامر نحو جنين وصانور حيث بتنا هناك، وسلكنا طريقاً جديداً لم يسلكه الأوروبيون من قبل، فبعد جبع ذهبنا إلى سهل شارون مارّين من بين بساتين الزيتون الواسعة لقرية الفندقومية (وتعني باليونانية Penta أي خمس و comai أي قرى) الواقعة بين yaero (خربة)، وعجّة ورامين وعطّارة مع قرى أخرى في حالة جيّدة. ثمّ رأينا قرية كفر راعي بوضوح على مسافة باتجاه الغرب وعدداً كبيراً من القرى بجانبها".

ونظراً لأهمية موقع صانور في نظر جيمس فِنّ، فقد اتخذها نقطة ارتكاز لقياس المسافات بينها وبين القرى والمدن الأخرى التي زارها، فعند وصوله إلى قرية عنّابة غرباً يقول[٢]:

"وكان ذلك على مسافة أربع ساعات من السير السريع من صانور".

وعند وصوله إلى مجدل يابا قريباً من قلقيلية يقول[٣]:

"وهي تبعد ست ساعات ونصف الساعة من صانور".

ثمّ يقول[٤]:" وقد وصلنا إلى مجدل يابا بعد تسع ساعات من خروجنا من صانور، وكانت رحلة حارّة ومتعبة".

يقول في الحديث عن رحلته من سبسطية إلى حيفا في تشرين الأول ١٨٤٨[٥]:

"وفي البداية سلكنا الطريق العام باتجاه الشمال، ثمّ صعدنا التلّة التي فوق برقة... ثمّ تركنا الطريق العام التي تمرّ بصانور وجنين وانعطفنا نحو السيلة".

وعند وصوله إلى عرّابة يقول عن زعيم عرّابة من آل عبد الهادي[٦]:

(*) James Finn, Byways in Palestine, London, 1867، ويقول جيمس فنّ في مقدّمة كتابه إنّ رحلته هذه بدأها مع مجموعة من نحو اثني عشر رجلاً إنجليزياً ومعهم عدد كبير من الخدم والمترجمين والأدلاّء العرب وسائسي البغال في التاسع من أيار سنة ١٨٥٥ (ص ١٥).

(١) ص ١٠٠.
(٢) نفسه ١٠٠.
(٣) نفسه ١٠١.
(٤) نفسه ١٠١.
(٥) ص ١٥٩.
(٦) ص ١٦١- ١٦٢.

"وقد أكّد لي أنه عندما سمع صوت مسدّسي عند الوصول هرع ما بين سبعمائة إلى ثمانمائة رجل إلى أسلحتهم ظانين أنّ اجتياحاً من خصومهم آل طوقان وآل جرّار قد وقع، أو أنّ القوات النظامية للباشا في القدس قد شنت هجوماً على القرية تحت ذريعة الحجر الصحيّ بسبب الكوليرا".

(٤٥)

رحلة أحد قساوسة إنجلترا وإيرلندا سنة ١٨٥٥

يقول في وصف جزء من رحلته بين نابلس ودمشق مروراً بصانور مشيراً إلى دور البدو في الأحداث التي مرّت بها تلك المنطقة آنذاك(١):

"ولقد كنتُ بنفسي شاهداً على التأثير غير السعيد الذي تمارسه هذه الجماعات على الأوضاع الداخلية للبلاد. ففي أثناء عودتي من القدس إلى دمشق وصلت في أحد الأيام في حدود الساعة العاشرة صباحاً إلى أسفل التلّة التي تقوم عليها قرية صانور الحصينة. وما إن شرعنا في رحلتنا من نابلس حتى التقينا بمجموعة مسلّحة من الرجال. كان الجوّ حارّاً جداً في ساعات منتصف ظهيرة ذلك اليوم، جلسنا تحت بعض أشجار التين، شاهدنا في الأفق كتيبة من البدو تتقدم شرقاً نحو صانور، حيث أنّ أهل صانور كانوا يتوقعونها بشيء من الترقب. وقد ظهر البدو وهم يَعْدون بين حقول القمح الذي كان قد بدأ ينضج لتوّه. وقد مرّوا بجانبنا بهدوء، ثم صعدوا إلى القرية، وفي هذه الأثناء أرسلت من يسأل عمّا يجري وماذا يعني صعود هؤلاء البدو إلى صانور، ثمّ علمت في الحال أنّ هؤلاء البدو هم طليعة قبيلة بني صخر، وأنّ القبيلة برمّتها سوف تصل في المساء لمساعدة سكّان صانور الذي يستعدون لشنّ هجوم على أهالي القرى المجاورة.

وكان أوّل إجراءاتي التحرزية أنني أمرت بإسراج الخيول حالاً والانطلاق بعيداً عن المكان، ولم تكن لديّ الرغبة في مشاهدة تلك المعركة أو حتى المساعدة في الاستعدادات لها.

وما إن سرنا نحو ربع ساعة بصعوبة، حتى وصلتنا أخبار اندلاع الحرب، حيث إن قوات القرى المعادية التي يقودها رعاةٌ مسلّحون، قد أخذت تضرم النار في محاصيل أهل القرية التي غادرناها للتوّ.

وفي المساء، وفي أثناء وجودنا في جنين، حيث مررنا ليلاً، كنّا نسمع أصوات إطلاق النار، ثمّ علمنا لاحقاً أنّ عدداً كبيراً من الناس قد قتل أو جرح من جرّاء القتال".

---

(١) The Church of England Magazine, Vol.39, July to December 1855, P.234.

وقد ثبت أن أهل القرى المتصارعة إذا لم يعتمدوا على الدعم الذي يأتيهم من حلفائهم في الصحراء، فإنهم كانوا سيضطرون للرجوع إلى السلطات التركية لتحكم في خلافاتهم، وبالطبع بنتائج أقلّ خطورة.

(٤٦)

رحلة ماري إليزا روجرز سنة ١٨٥٦ (*)

الحياة الداخلية في فلسطين(**)

في أثناء توجّهها وشقيقها إلى عرّابة في شباط ١٨٥٦م، أخذ يحدّثها عن نابلس قائلاً(١):

"في الجبال المحيطة هناك أربع قوى على عداء دائم بعضها مع بعض، وهي أوّلاً آل عبد الهادي ومقرهم في عرّابة، والثانية آل جرّار الذين لهم قلعة في صانور. وهاتان العائلتان جاءتا من مجتمعات فلاّحية، ولكل منهما أعداد كبيرة من الأتباع في كلّ قرية تقريباً من قرى المنطقة. والقوة الثالثة هي قبيلة طوقان التي لها تأثير كبير بين القبائل التي ترتبط معها بالنسب في الصحراء الشرقية. والرابعة آل الرّيان، وهم من أصل بدويّ، ولهم نفوذ قويّ ويتمركزون في غرب نابلس. ومن بين هذه العائلات الأربع المتصارعة يجري اختيار حاكم نابلس عادة، ويُعيّن من قبل باشا القدس.

وإذا ما عُزل الحاكم من منصبه إمّا نتيجة غضب الباشا أو عدم قدرة الحاكم على إرضاء جشع أتباع الباشا وموظّفيه، فإنّ واحداً من أبناء الحزب المنافس يهرع إلى مقرّ الحاكم، ويشتري ودّ موظفي الباشا ومستشاريه بمبالغ طائلة من الأموال والهدايا، وبالتالي فإنهم من خلال وساطاتهم وتأثيرهم يستطيعون الوصول إلى الحكم. وما إن يتقلّد الحاكم الجديد منصبه حتى يأخذ في استخدام جميع الوسائل في سلطته شرعية وغير شرعية لتحصيل جميع الأموال التي دفعها رشاوى، بل زيادة عليها. ولذلك يشرع في فرض الضرائب على الفقراء وغيرهم ممن لا يتمتع بأي حماية، وينهب دون أن يخضع للمساءلة جميع هؤلاء الذين لا يجرؤون ولا يقدرون على مقاومة سلطته، وإليه يؤول تعيين شيوخ جميع القرى في منطقة نفوذه. ويسمح لجميع من كانوا في مناصبهم خلال عهد سابقه بأن يبقوا في مناصبهم إذا قدّموا ما يكفي وما يناسب من الهدايا له عند تقلّده الحكم، وإذا لم يفعلوا ذلك فإنّ وظائفهم

(*) تذكر الكاتبة أنها رافقت شقيقها في ١٤ حزيران ١٨٥٥ الذي كان يعمل قنصلاً لبريطانيا في سوريا لأكثر من ست سنوات، وخرجت معه من لندن بعد أن قضى إجازة في بلده، ووصلا إلى الإسكندرية يوم ٢٨ حزيران ووصلا إلى يافا في الأول من تموز. وذكرت أنه في ٢٤ شباط ١٨٥٦ وصلت رسالة من قنصل بريطانيا في القدس جيمس فن يطلب من شقيقها أن يذهب حالاً من حيفا إلى نابلس ليكتب تقريراً عن الأوضاع هناك حيث تجددت الاشتباكات بين آل عبد الهادي ومنافسيهم على الحكم، وتذكر أنها ذهبت معه إلى عرّابة وصانور ونابلس (ص٢١٣). وقد قامت الكاتبة برحلة ثانية سنة ١٨٥٩ (انظر ص ٤٤) وكذلك ١٨٦٢ (انظر ص ٤٧).

(**) Mary Eliza Rogers, Domestic Life in Palestine, Cincinnati: Jennings and Pye. New York : Eaton and Mains, 1859.

(١) ص ٢٣٤- ٢٣٦.

تؤخذ منهم وتُسلَّمُ إلى هؤلاء الذين يقدّمون أكثر.

وقد استمر هذا الوضع لسنوات عديدة، وفي سنة ١٨٥١ قتل خمسمائة شخص وجُرح كثيرون في صدام بين هذه القوى المتنافسة. وتبعاً لذلك صدر مرسوم بعدم تعيين أي واحد من هذه العائلاتٍ في مناصب مهمّة في جبل نابلس.

لكنّ أخي تابع قائلاً بأنّ هذا المرسوم تمّ تجاهله عندما نجحت عائلة عبد الهادي في أن تحظى بالحكم، حيث عين محمود بك عبد الهادي حاكم نابلس الرئيسي، وعيّن صهره صالح بك حاكماً على حيفا، بينما كان محمد بك يحكم في عرّابة معقل عائلتهم.

وبسبب التمرّد الأخير الذي قام به الناس ضدّ محمود بك فإنّ الحاكم التركي العام كامل باشا حاصر نابلس بقوات كبيرة من الفرسان، ولكن بصعوبة بالغة، لأنه محاطٌ بمستشارين متآمرين ممّن لا يتورّعون عن أخذ الرشاوى وغضّ طرفهم عن أطراف الصراع.

إنّ مهمتي الآن ببساطة هي مراقبة كل شيء بعناية وكتابة تقرير إلى السيّد فنّ عن كلّ ما يجري هناك، وأن أبيّن – ما استطعت- الوضع الحقيقي للأمور دون أن يكون لي أي تدخل أو مشاركة في أيّ منها. وبهذا بإمكانك مساعدتي قليلاً عن طريق مراقبة الأوضاع في القرى بهدوء، لأنّ من المحتمل أن ننفصل عن بعضنا في عرّابة وصانور. إنّ كونكِ مرافقة لي في الرحلة سوف يشجع الناس على استقبالنا في معاقلهم عن طيب نفس وبعيداً عن أي شكّ".

وعند وصولهما إلى عرّابة تقول[١]:

"لقد أعربوا عن دهشتهم لمشاهدتنا نقوم بهذه الرحلة في مثل هذه الأوضاع المضطربة جداً في البلد، لقد أخبرونا أنه في كل يوم تقع مناوشات في المناطق المجاورة، وأن مائة وخمسين شخصاً على الأقلّ قد قتلوا في الأيام القليلة الماضية، وأنّ قطعان المواشي قد نهبت، وأنّ الجمال قد هوجمت ونهبت حمولاتُها، وأنّ معركة قد وقعت في اليوم الماضي بالقرب من عرّابة وأن كثيراً من الأشخاص قد لاقوا حتفهم فيها. وقد أخبرنا أبناء الحاكم وأبناء أخوته عن هذه المعركة وأنهم شاركوا فيها".

وفي الفصل الذي يحمل عنوان " من عرّابة إلى نابلس"[٢] تصف الكاتبة وصولها وشقيقها إلى صانور وتصف مشاهداتها وحواراتها قائلة[٣]:

وقد تخلّى شقيقي عن الدليل الذي أرشدنا إلى عرّابة، وقرّر بأن نذهب –إلى صانور- بدون أيّ دليل، لأنّ ذلك يجعلنا أكثر أماناً، لأنّ وجود أي شخص معنا له أي علاقة بالمناوشات الأخيرة أو ينتمي إلى أي من الأطراف المتصارعة قد يعيق مهمتنا.

كان المطر ينهمر بغزارة عندما بدأنا الرحلة، لكنّ الشمس كانت تغيب حيناً وتشرق حيناً تتبع أقواس قزح البارزة بوضوح بين الغيوم، وقد ذكرتني الهضاب المتموّجة التي اجتزناها بتلال سَسِكْس (Sussex)، بينما ظهرت خلفها صخور جرداء ومنحدرات وعرة. وبعيداً عن ذلك إلى اليمين يمكن مشاهدة البحر الأبيض المتوسط من بين التلال الزرقاء الضاربة إلى اللون الرمادي. وكنّا بين الحين والآخر نمرّ بمنحدرات تشبه تماماً المنحدرات الإنجليزية المزدانة بالعشب والأزهار، وحيثما ينمو الشوك العشبي فإنه يحمي القرنفل والقرنفل الصيني

(١) ص ٢٣٧.
(٢) ص ٢٥٦.
(٣) ص ٢٥٦- ٢٦١.

وزهرة "لا تنسني"[١] (forget –me-not).

استمر هطول المطر بغزارة بينما سرنا على سلسلة جبلية شديدة الانحدار يمكن منها مشاهدة حصن صانور. إنها تقف على قمة تلّة ذات شكل مخروطيّ لا يمكن الوصول إليها. وكانت الطريق نحو الجهة الجنوبية من السلسلة الجبلية بالغة الصعوبة وخطرة على الخيول التي ترجلنا عنها نحن وحتى مرافقونا من العرب، وبقينا نحثّ دوابنا على المسير ونجرّها و هي تمانع. وقد اضطررنا للمسير بحذر شديد وخطوة خطوة وبالانزلاق أحياناً والقفز بالتناوب فوق بعض الحجارة المتناثرة وقطع الصخور الناعمة، وأحياناً في وسط القنوات ذات الماء الضحل، لكنّ المياه المتدفقة كانت تتجمع حول أقدامنا. وقد توقفنا لدقيقة أو دقيقتين في وادٍ ضيّق، ووقفنا تحت سقف كوخ منخفضٍ معزول مبني من أغصان الشجر والحجارة. وبعد ذلك، وبصعوبة، صعدنا إلى التلّة ووصلنا إلى صانور. ولم يكن سكانها يرغبون في أن يكون الاقتراب من بلدتهم أمراً سهلاً في هذا الوقت الذي تشهد فيه البلاد حرباً أهلية.

وجدنا بوابات البلدة مغلقة، ولكن بعد مفاوضة مع الخفير سُمحَ لنا بالدخول. كان الوقت منتصف النهار تماماً، وكنت متعبةً ومصابة بدوار ومبلّلة. ثمّ جرى اصطحابنا إلى قاعة واسعة ذات عقود وجدرانها سوداء بسبب دخان التبغ في الطابق الأرضي من القلعة. وقد نهض نحو خمسين رجلاً يلتفّون جميعاً بعباءاتهم الثقيلة، وغادروا المكان لدى دخولنا إليه. وقد فُرش لنا بساطٌ في مكان مخصّص للجلوس واسع وعميق وعند النافذة. وقد قمت بتفريغ الماء من حافة قبعتي، وخلعت بسرور عباءتي، وأخذت كوباً من القهوة الساخنة.

وفي هذه الأثناء كان مكانٌ آخر يعدّ لنا من أجل راحتنا. وقد اصطحبنا زعيما القلعة إبراهيم جرّار[٢] وأخوه[٣] عبر ساحة القلعة خلال درج حجريّ ومكشوف وشديد الانحدار إلى قاعة مفتوحة. وما إن تجاوزنا عتبة الحجرة ذات العقود في الجزء الأعلى من القلعة حتى قالوا لنا: مرحباً بكم، وخذوا راحتكم. وقد فرشت أرض الحجرة بالسجّاد والوسائد. وكانت نافذة الحجرة تطلّ على منظر سهلٍ صغير خصب يكاد يكون محاطاً بالتلال، ولكنّه ممّا يمكن الوصول إليه بسهولة من جهة الجنوب الغربي عبر وادٍ ضيّق أو ممر. وفي أوقات الحرب فإنّ طريقه المظلمة تكون مراقبةً بعناية من قبل أهل صانور.

وقد أُحْضِرَ لنا طعامٌ من الخبز والبيض المقليّ وجبنة حليب الضأن والزيتون، ووضع على طبق خشبي مستدير يرتفع بضعة إنشات فوق الأرض. ثمّ قام الخدم بصبّ الماء على أيدينا. وبعد أن رُفعَ الطعام ووزّعت القهوة والغلايين دار حوارٌ جادّ بين أبناء جرّار وأخي، بينما كان ثلاثة أو أربعة منهم يجلسون جانباً بصمت و هم يدخنون ويستمعون. وقد انتبذت جانباً للراحة على سجادة ذات وسائد، وأخذت أراقب الجماعة المفعمة بالحيوية والنشاط. ولم أر في حياتي في بلاد الشرق أيّ رجالٍ بهذا الطول وتناسب القوام والوسامة مثل إبراهيم جرّار وشقيقه. فقد أضْفَتْ عليهم عباءاتهم البنية والبيضاء الواسعة والفضفاضة المطويّة على أجسامهم بطريقة جميلة، وكذلك كوفياتهم الحريرية الحمراء والصفراء التي كانت تشرق على رؤوسهم، رزانة ووقاراً واضحين، مع ملامح كلاسيكية متناسقة ومعبّرة جداً.

---

(١) نوع من الزهور البريّة ذو زهر أزرق فاتح يعتبر رمزاً للإخلاص والصداقة، ويقال له أيضاً: أذن الفار.
(٢) هو الشيخ إبراهيم بن الشيخ عبد الله اليوسف الجرّار ويكنى بأبي خليل.
(٣) من إخوة الشيخ إبراهيم: أحمد (شيخ جبع) ومحمد ومفلح.

وقال لي شقيقي باللغة الإنجليزية "إذا وجدت فرصة بكلّ الوسائل الممكنة ارسمي صورة طبق الأصل لمضيفنا إبراهيم، فهو الرجل الأكثر أهميّة في هذه المنطقة سواءً من حيث الشجاعة والجرأة والطاقة، وعائلته منذ أجيال عديدة يضرب بهم المثل في القوّة والنفوذ وجمال الرجولة". "ولكنّه أضاف: ولا تدعيه أو تدعي أحداً من الآخرين يلاحظ أنّك ترسمينه، لأنّه بمقدار ما هو وسيم فإنه شديد الحساسيّة".

كان الرجال جميعاً مستغرقين جداً بالتدخين والحديث أو الإصغاء، بينما كنت أقوم بالكتابة والرسم بالتناوب، ونجحت في رسم صورة له دون أن ألفت انتباه أحد.

ثمّ أخذني إبراهيم جرّار إلى حجرة نسائه، وتقع في مركز القلعة وفي المكان الأكثر أمناً فيها، وتتألف من ثلاث غرف تفتح جميعها على ساحة مربعة. ثمّ قدمني لزوجاته الثلاث وأعطاهن تعليمات باستقبالي ومعاملتي كأخت لهنّ، ثمّ تركني معهنّ، بينما قام باصطحاب أخي في جولة في أنحاء البلدة. وقد حيّتني النساء بينما كنّ يرمقنني بدهشة غير خافية، وقد كنّ أكثر بساطة وصراحة وذات نظرات بريئة أكثر من أيّ امرأة عربيّة شاهدتها في حياتي. وكنّ كذلك شابّات وجميلات بصورة عامّة، وسمينات ومتورّدات الوجنات ذوات بشاشة وإشراق مثل الأطفال السعداء. إنهنّ ينتمين إلى طبقة الفلاّحين، إنّ ملابسهنّ الطويلة الفضفاضة أو المعاطف النسويّة كانت قرمزية ومن الحرير الأبيض المخطّط. وقد أحطن وجوههنّ بقطع من العملة الفضيّة العريضة وصفوف من العملة الذهبية الصغيرة معلّقة على جباههنّ مثل عصابة الرأس، ليربطن بها شعرهنّ الأسود الكثيف، الذي كان يُقصُّ قصيراً من الأمام ويمشّط حتى يصل إلى حواجبهنّ المقوّسة فيخفي جباههنّ تماماً. أمّا عيونهنّ فكانت واسعة وصافية وكانت رموشهنّ مكحّلة، وكانت ذقونهنّ وصدورهنّ ذاتَ وشوم على شكل نجوم. وكنّ هنّ وأطفالهنّ وغرفهنّ البيضاء المفروشة بالحصر تبدو ناضرة ونظيفة وسارّة.

وقد وجدت أن أكثر الفتيات جمالاً وصحّةً وقوّة يتمّ اختيارهنّ ليكنّ زوجاتٍ لأبناء جرّار، من أجل المحافظة على ديمومة الصحة والجمال التي يفخرون بها كثيراً في عائلتهم. لم أسمع أن أحداً من آل جرّار يستطيع القراءة أو الكتابة أو حتى توقيع اسمه. بينما نجد كثيراً من أبناء عائلة عبد الهادي متعلمين جداً، ويقدّرون التعليم، كما أنّ سيّدات عرّابة متحضّرات إلى حدّ ما، ويبدو عليهنّ أنهنّ يختلفن كثيراً عن نساء صانور البسيطات الريفيّات. وقد رسمت صورة لرأس إحدى الزوجات بينما كنت أحاول أن أشركهنّ في حوار، لكنني لم أنجح في ذلك. فعندما كنت أتحدث كنّ ينظرنّ إليّ بتساؤل ويضحكن مع بعضهنّ بخجل، أو يقلن عبارات متداولة تجسّد المجاملة أو الدعاء.

وبينما كنت مستريحةً أدخن النرجيلة التي أعددنها لي، استدعيت فجأة للالتحاق بأخي، فقد علمت أنّ الشابّ الذي كان يراقب المدخل الجنوبي الغربي لصانور قد أرسل خبراً يفيد بأنّه استطاع أن يرى قوة من فرسان الأتراك تعبر من الوادي الضيّق نحو السهل الذي في أسفل البلدة. وقد أخبرنا إبراهيم جرّار بأنه عرف بأنّ هذه القوّة قد أرسلها كامل باشا لتفتيش البلدة والبحث عمّا إذا كان بعض البدو قد اختبأوا فيها، وأخبرنا أنه سيساعد أهل صانور إذا تعرضت للحصار. وأضاف بحزم: "لقد أعطيت (كلمة شرف) بأنه لا يوجد أيّ بدو داخل أسوار البلدة، إننا كلنا فلاّحون. ولن يسمح لأحد أن يمرّ من هذه البوابات حيّاً إذا، حاول أن يدخلها بالقوة المسلّحة، لتفتيش البلدة".

ثمّ تحدّث أخي معه وهدّأ من غضبه، وبعد ذلك أعلن إبراهيم بأنه مستعدّ لاستقبال قائد

القوّة سلميّاً، وبشرف واحترام، إذا جاء بمفرده. ولكنه إذا اقترب مع جنوده من البوابات فإنها سوف تغلق دونه. وقد ظهر من خلال الجلبة والحركة في الشوارع الضيقة في كل اتجاه أنّ هناك استعدادات كانت تتخذ من أجل المقاومة. قال لي أخي: أنا مقتنعٌ تماماً بأنه لا يوجد أي بدو في البلدة، هل لديك الشجاعة أن تنزلي معي إلى السهل لعلّي أتحدث مع ضابط الفرسان وأحول –إن كان ممكناً- دون وقوع صدام غير متكافئ ولا جدوى منه؟

لم أتردد في تلبية طلبه في الحال. ثمّ ركبنا خيولنا وبأقصى سرعة ممكنة وانحدرنا مع التلّة دون أن يكون معنا أحد، بينما كان الناس على الأسوار المتأهبة للمعركة وعلى أسطح المنازل وعلى البوّابة الخاضعة للحراسة يراقبوننا ويوجّهوننا متمنين لنا التوفيق في مهمتنا. وما أن وصلنا إلى منتصف الطريق في السهل تقريباً حتّى التقينا مع الجنود المتقدّمين. ولمّا صرنا على مسافة يمكن أن نتحدث معهم منها توقفنا قبالتهم فجأة، وكانوا على وشك أن ينقسموا فريقين من حولنا، لكنّ أخي رفع يده بثقة وقال بصفته شخصاً لديه صلاحيّة: توقفوا! فتوقفوا في الحال في أماكنهم. ثمّ طلب الكولونيل وقال بأنّه يرغب في الحديث معه، ثمّ قال وهو ما زال يحتفظ بمظهر صاحب السلطة والصلاحية: اسمع أيها الكولونيل، إنّك ذاهب إلى صانور باسم سعادة كامل باشا. إنّ الجواب على الرسالة التي جئت تحملها هو: لا. اذهب أنت بنفسك بهدوء وسلام واسمع هذا الجواب من أهل البلدة. ولكنك إذا سمحت لرجالك بالتقدم خطوة واحدة نحوها، فإنك ستتحمل جميع التبعات.

ولمّا سمع الكولونيل هذا الكلام استعدّ من غير تردّد للطاعة، تاركاً مفرزته الصغيرة في السهل وأصدر أوامره بأن ينتظروا عودته. ثمّ عدنا إلى القلعة وسرنا ببطء وتركنا الجنود الأتراك مندهشين لما حدث، وقد أخذوا يعدون بخيولهم بشكل دائري مؤدّين بعض حركات الفروسية لإمتاعنا. وقد قام رجل أسود – يظهر أنه الخادم الخاصّ للكولونيل- بالنقر على آلة المثلث الموسيقية وقام بحركات خيالية برأسه الذي عليه عمامة.

وقد تألفت المفرزة من سبعين فارساً فقط، وكان من الممكن أن يقتلوا جميعاً إذا ما تورّطوا في صدام مع رجال صانور دون أن يتحقق أي هدف. وبعد تأخّر قصير رجع الكولونيل راضياً تماماً والتحق برجاله. وفي الوقت نفسه نزل خدمنا ومرافقونا ومعهم الأمتعة، ثمّ واصلنا السير باتجاه نابلس التي تبعد نحو خمسة عشر ميلاً جنوب صانور، وقد سبقنا الجنود. وسرنا بعض الوقت في صحبة الكولونيل الذي أخبرنا بأن كامل باشا قد صمّم على تدمير صانور وأنه خصص جائزة مقدارها ثلاثون ألف قرش مقابل رأس إبراهيم جرّار.

وبعد وصول الكاتبة وشقيقها إلى نابلس تقول[1]:

وقد أرسل كامل باشا – الذي كان مضيفنا في الخليل – أحد رجاله لنقل تحياته إلينا، وقد تبعه عدد من الموظفين الأتراك. وقد عرفت هذا الموظف جيداً، لقد كان أحد المسيحيين وقد تم ترفيعه إلى رتبة أفندي في قنصلية القدس. قلت له: أخبرني أيّها السيّد المبجّل، هل صحيح أنّ سعادة كامل باشا قد خصّص جائزة مقدارها ثلاثون ألف قرش مقابل رأس إبراهيم زعيم صانور؟ فأجاب: إنّه كذلك يا صاحبة السعادة. ثمّ قلت: هل يمكن لسيادتكم أن تنقل باسمي تحياتي إلى الباشا وتعلمه بأنّ رأس الزعيم إبراهيم جرّار موجودٌ عندي وفي ملكيتي؟ حدّق الضيوف الذين كانوا حاضرين حتى أخي أصابته المفاجأة. قال الأفندي: هل تذرّين الرماد في

---

(١) ص ٢٦٢- ٢٦٣.

عيوننا؟! و هل تضحك السيّدة على لحية الباشا؟ قلت ثانية: دع سعادته يعلم بأنني أملك الرأس الذي يرغب في الحصول عليه. وقد تحدّثت بلهجة تبدو جادّة بدون أن أعطي مزيداً من التفسير لما قلت. وقد استمتع الناس بوضوح بمقدار ما كانوا حائرين.

وفي صباح اليوم التالي، وبعد استراحة تامّة، نهضت وكنت قد استدعيت إلى الديوان حيث كان الأفندي بانتظاري، وقد أرسله كامل باشا لإبلاغ التحية لي وفوّضه بأن يتسلّم من بين يديّ رأس الزعيم المتمرد. قلت: "ولكن أين كيس القروش يا صاحب الاحترام؟! فأجاب: إنّ القروش ليست معي يا سيدتي. فأجبت: إذن لا يمكنني أن أسلّمك الرأس. ثمّ ذهب ورجع في الحال ومعه خادم الباشا الذي كان يحمل طبقاً كبيراً مستديراً من الكنافة الساخنة، وهي نوع من الحلوى مصنوعة من الشعيرية مخبوزة مع الزبدة والسكر واللوز والجوز والبهارات. وقد أمر الباشا بإحضاره لي. وقد حضر عدد من الناس الذين كانوا متشوقين لمعرفة الأمر وللمشاركة في تناول طبقهم المفضّل.

وضع الأفندي الطبق بلباقة أمامي، وبعد أن غسل الجميع أيديهم شاركوا في أكله. وقد سئلت إن كنت أرغب بإعلامهم أين يوجد الرأس. قلت: في حقيبة سفري في الغرفة المقابلة. ثمّ قال الأفندي: هل يمكن أن ترينا إيّاه أيّها السيّدة المهذّبة؟ وقد حثّتني نظرة من شقيقي بأن ألتزم بوعدي، ولذلك أخرجت الصورة، وقد صاحَ جميع الرجال الموجودين لدى مشاهدتها حالاً: إبراهيم! إنّه إبراهيم جرّار! إنه إبراهيم زعيم صانور! إنّه الخالق الناطق! حتى إنّ أكثر الضيوف الموجودين رزانة وذوي المظاهر الرسميّة بدا أنهم استمرأوا النكتة تماماً، وقد ذهبوا إلى كامل باشا لشرح اللغز، ممّا دعاه إلى استدعائي ومعي الصورة، وطلب مني أن أسمح له بالاحتفاظ بها. قلت: بكل سرور يا صاحب السعادة، وأرجو أن تقبل بأن تعتبر هذه الصورة بدلاً من الرأس الحقيقي بل هي الرأس الوحيد لإبراهيم جرّار، وأن تقرر إجراءاتك بموجب ذلك". وقد وعد صاحب السعادة – وهو يضحك – بأن يفعل ذلك، ولذلك احتفظت أنا بالصورة التي على ما يظهر لم يرغب بأن يتخلّى عنها. وقد تأملها بعناية وحملها بيده مطوّلاً، لكنني لم أتخلّ عن شروطي. ثمّ أعطيته صورة أخرى من الصور التي اختارها من ملفّي.

وفي أثناء وجودهما في نابلس زارهما حاكمها محمود بك عبد الهادي وكان ممّا دار بينها وبينه من حوار(١):

"قال: هل تحبّين عرّابة أم صانور أكثر؟ قلت: وجدت متعة أكثر في عرّابة، وأتمنى أن أرى مرّة أخرى أصدقائي الذي استقبلوني هناك بلطف كبير" فقال: الحمد لله أنّ عرّابة قد حظيت برضاك".

وفي أثناء وجودها في حيفا سنة ١٨٥٧ تقول(٢):

"وفي عصر يوم الأحد السابع عشر من نيسان، عندما كنت أنا وأخي في مكتب نائب القنصل دخل علينا فجأة عبدٌ أسود طويل ومعه ستة أولاد من المسلمين، ثمّ أغلقوا باب الغرفة، وقد بدا على وجوههم الذعر والإعياء والصدمة كما لو كانوا هاربين من خطر عظيم.

وقد أمسك الأولاد بنا وأخذوا يقبّلون أيدينا وأثوابنا بلهفة وهم يصيحون: أنا دخيلك أنا

---

(١) ص ٢٨٢- ٢٨٣.
(٢) ص ٤١٤- ٤١٥.

دخيلك. ثمّ أدركت في الحال أنّ هؤلاء الأولاد كانوا أبناء وأبناء أخ صديقي القديم صالح بك عبد الهادي. وقد بيّن لي العبد الذي كان يتحدث معهم بكلمات سريعة قليلة بأنّ عرّابة قد تعرضت للحصار من القوات التركية بمساعدة آل جرّار وآل طوقان، وأنّ عائلة عبد الهادي لم يعد لديها أمل بالقدرة على الدفاع عن البلدة. وأنّ صالح بك أرسل أبناءه الشباب بعيداً، كي يجد لجوءاً سياسياً في حيفا. وقد تمّ إقناع الأطفال بأنهم سيكونون في أمان إذا استطاعوا الوصول إلى مكتب نائب القنصل الإنجليزي".

رحلة الدكتور ويليام ثومسون قبل عام ١٨٥٧

الأرض والكتاب[١]

يقول في وصف طريقه من الناصرة إلى نابلس مروراً بجنين[٢]:

"إنّ جنين الآن هي البلدة الرئيسية الواقعة بين الناصرة ونابلس، ويسكنها نحو ألفي نسمة، جميعهم تقريباً مسلمون، ولها حاكم وموظفون ومأمورو جمارك، وتتعامل بشكل كبير مع جميع منتجات البلاد ومع البدو في شرقي الأردنّ، لكنّ أهلها متعصّبون وخشنون ومتمرّدون. وهم في معظم الأوقات يقتتلون في ما بينهم أو مع جيرانهم. ويوجد فيها ثلاث عائلات بارزة هي التي تبقي على هذا النزاع المستمر وإراقة الدماء في هذه المنطقة برمّتها وهي: عبد الهادي وبيت طوقان في نابلس وعرّابة، وبيت جرّار في جنين. ويدور الآن قتال حقيقي بين جنين ونابلس، ويؤكّد المسافرون الذين التقينا بهم هذا الصباح بأنّه لن يكون بمقدورنا المرور من البلاد في هذا الاتجاه، وسوف نعرف أكثر عن هذا الموضوع غداً.

ولكن ما الذي يعنيه هذا الاضطراب؟ فلقد مرّت بنا ليلة لم تكن هادئة بتاتاً. لقد خرجت من أجل أن أتحقق من السبب، ويبدو أن الأطراف المختلفة التي مرّت من هنا مساءً والمشاركون بمثل هذا الاضطراب الوحشي كانوا بدواً من الغور ومن جبل عجلون من شرق الأردنّ. وقد جاء بهم بيت جرّار وطوقان لمساعدتهم ضدّ آل عبد الهادي، وقد وقعت بعض المناوشات خلال الليل بالقرب من جبع، بينهم وبين أشياع آل عبد الهادي من عرّابة.

ويقول أهل جنين وهم من حزب الجرّار بأنّ آل عبد الهادي قد هزموا، ولكن الأعمال الدموية ما زالت جارية إلى الآن، وأن القرى الصغيرة قد هجرها أهلها. ولو أنك تنظر إلى الممرّات في أسفل الجبال فإنك سوف ترى نساءً وأطفالاً يفرّون هناك بأثاثهم المتنوّع على الحمير والبغال والجمال.

---

(١) W.M. Thomson, The Land and the Book, 2 Vols., New York, Harper and Brothers Publisher, 1859، ولهذا الكتاب عدّة طبعات، وورد في غلاف هذه الطبعة التي نعتمدها إنها نتيجة خمس وعشرين سنة من النشاط التبشيري في سوريا وفلسطين، بينما ينصّ في غلاف طبعة عام ١٨٨٣ أنها نتيجة خمس وأربعين سنة من النشاط التبشيري في سوريا وفلسطين. وكلا هاتين العبارتين تعني أن ثومسون بدأ رحّلاته في سنة ١٨٣٤، وما دامت كلّ طبعة تتناول خبرات مختلفة من حيث المدّة الزمنية، فما من شكّ أنّ ثمة اختلافاً في ما احتوت عليه الطبعتان، وقد لاحظت أنّ ثمة اختلافاً في وصفه لصانور وحديثه عن آل جرّار وعن الأحداث السياسية التي مرّت في تلك المنطقة بين الطبعتين، ولذلك رأيت أن أورد ما وجدته في هاتين الطبعتين. وقد ذكر ثومسون في غير موضع من كتابه أنه زار منطقة صانور مراراً، وذلك أنّه أمضى شطراً كبيراً من حياته في فلسطين، فقد ولد وليام ثومسون في أوهايو في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٨٠٦ وتخرّج من جامعة ميامي في أوهايو سنة ١٨٢٩، وتابع دراسته في معهد تبشيري، وفي سنة ١٨٣٣ وصل إلى بيروت مع وفد تبشيري هو الوفد الثامن الذي يصل إلى فلسطين من الولايات المتحدة الأمريكية. وفي سنة ١٨٣٤ انتقل مع زوجته إلى القدس، وشهد ثورة أهل فلسطين على إبراهيم باشا المصري، وبعد وفاة زوجته في القدس انتقل إلى بيروت وأنشأ هنالك مدرسة بعد أن تزوّج من مطلّقة القنصل Abbott، وبدأ منذ سنة ١٨٤٠ بأنشطته الاستكشافية في بلاد الشام.

(٢) ٢: ١٨٩- ١٩٧.

ثمّ يتابع حديثه عن أهل المنطقة قائلاً[1]**:**

"إنهم منقسمون حتى بين أنفسهم، فعلى سبيل المثال فإنّ نصف السيلة –تلك القرية الواقعة على طرف السهل- لآل عبد الهادي، والنصف الثاني لبيت الجرّار، وتستطيع أن ترى بريق رصاص البنادق في هذه اللحظة حيث يطلق كلّ منهم النار على الآخر من بيوتهم".

إنّ النساء التي أمامنا ساخطات جداً على آل عبد الهادي، فقد قام رجال هذا الفريق من مدّة ليست طويلة بالهجوم على قرى ناحية الروحة، وقتلوا بعض الناس وأحرقوا منازلهم وسلبوا الأبقار والأغنام، ولكن من أكثر ما يثير سخط هؤلاء النسوة ما تعرّض له هؤلاء البؤساء من سوء المعاملة وقتل نسائهم وأطفالهم، و هذا عملٌ فادحٌ وشنيع أعلنت هؤلاء النسوة بصوت مرتفع بأنه لم يكن معروفاً بينهم من قبل، وحسب علمي فإنّ هذا صحيح، ففي الحروب الأهلية التي خرّبت لبنان في سنة ١٨٤١ وسنة ١٨٤٥ لم تكن النساء تتعرّض لأيّ مضايقة حتى في أثناء المعارك. وقد رأيتهنّ مراراً وفي طرفي القتال يتراكضن و هنّ يحملن الماء لأصدقائهنّ الذين يعانون من شدّة العطش، ولم أعرف أنّ أيّاً منهنّ قد جرحت أو أهينت.

و هذا الاحترام ذاته للمرأة جرت دائماً مراعاته في هذه المنطقة أيضاً طوال الفترة السابقة إلى وقت هذا الاندلاع الأخير للقتال، وما بعده، بسبب الحنق البالغ بين مختلف الأطراف المتصارعة، فلو وقع أحد من أبناء عبد الهادي في أيدي هؤلاء النسوة فإنهنّ سوف يقسمن على أن يشوينه حيّاً. وهذا السخط العام يجعل المرور من هذه الناحية خطِراً خطَراً أكثر من عاديّ، وأن من الصواب والحكمة الإسراع في الخروج من هذا الميدان من ميادين صراعهم الدموي بأسرع ما يمكن. والآن يحثّ حسين سائسي البغال، و ها هو الآن يدعونا للركوب وترك هذا المكان.

ويقول في موضع لاحق[2]**:**

"إنّ السيلة التي يتبادلون فيها إطلاق النار محاطة بالبساتين الرائعة "للزيتون الذي يعيش بسلام!" ولكن لا همسات البساتين ولا الفلاحة البريئة للأرض ولا الطقوس الدينية اللطيفة للرعاة تستطيع أن تخفف من ضراوة هؤلاء البرابرة. وا أسفاه بأنّ بلداً مثل هذه تدمّر على أيدي عربٍ متوحشين، وتغرق بنيران الحروب الأهلية! ولكنها، كانت على هذا النحو على مدى عصورٍ سابقة، وإنني أخشى أن تظلّ كذلك لعصور أخرى قادمة، وفي الواقع فإنّ هذا السهل كانَ دائماً ميدان معارك عظيمة: الكنعانيون والفلسطينيون، اليهود والمصريون، الكلدانيون والفرس، اليونان والرومان، المسلمون والمسيحيون، من كلّ العصور والأمم تقريباً".

ثمّ يقول[3]**:**

"إنني أشعر بأسف شديد لأننا لم نستطع أن نمرّ من هذه التلال إلى السامرة ونابلس. ولكن قد نزور هذه الأماكن في طريق عودتنا من القدس، إذا هدأت هذه الأعمال العدائية بسرعة كما يحدث دائماً، وفي هذه السهل المهجور. لقد سافرت عبر هذا الطريق من جنين

---

(١) ٢: ١٩٠.
(٢) ٢: ١٩١.
(٣) ٢: ١٩٢.

إلى السامرة مرّات عديدة، لكنّها في أغلب الأحيان غير مريحة بسبب هذه النزاعات كالتي نشهدها اليوم".

ثمّ يقول في موضع لاحق[1]:

"ومن قباطية نصعد تلّة صخرية جداً، ثمّ ننحدر عبر سهل منخفض إلى صانور التي تبعد ساعتين عن جنين. في فصل الشتاء يتحول هذا السهل إلى بحيرة يبلغ محيطها عدة أميال، لكنها تجفّ بعد ذلك، وتزرع بالذرة والخضروات في فصل الصيف. وتقع قرية صانور داخل قلعة على تلّة منعزلة على الزاوية الشمالية الغربية من هذا السهل، ولكنها الآن ومنذ زمن طويل، سكانها خشنون ومتعصبون، مستعدون دائماً للتعرض للمسافرين، وإثارة التمرّد ضدّ الحكومة.

وجبع قرية أخرى كبيرة على بعد نحو ساعة من صانور، وتقع بقوة على حافة الجبل، ومن هناك فإنّ الطريق إلى السامرة تتفرع من الطريق المؤدية إلى نابلس، حيث تنعطف إلى اليمين بمحاذاة قاعدة تلّة جبع، والطريق برمتها تمرّ بشكل جميل ولا نهائي عبر تلال وأودية وسهل خصيب يفلح جيداً حتى الآن ومعمور بكثافة.

---

(١) ٢: ١٩٧.

(٤٨)

رحلة وليام ثومسون سنة ١٨٥٧[١]

الأرض والكتاب (طبعة ١٨٨٣)[١]

يقول عن العاشر من أيار[٢]:

"نحن الآن بصدد حزم أمتعتنا للتوجّه إلى جنين، وسائسو البغال يسلكون الطريق العاديّة والأسهل حول الطرف الغربي لجبال عيبال مروراً بجبع وصانور".

وعند وصوله إلى جبع ثمّ صانور يقول[٣]:

"ما اسم هذا المكان الذي يقع على يسارنا؟ إنّه يبدو أكثر ازدهاراً من معظم القرى التي في هذه المنطقة، فبيوته أكبر ومبانيه أكثر إتقاناً. إنه يدعى جبع، ومن المحتمل أن تكون الاسم الحديث لواحد من الأماكن التي عرفت في الكتب المقدسة باسم جبع. إنّ لها موقعاً مشرفاً على حافة الجبل، وهي البلدة الأكثر أهميّة في المنطقة الواقعة بين سبسطية وجنين[٤]. ومن هذه القرية وصلنا إلى الطرق المعتادة التي تؤدي إلى تلك المدن. وهنا أيضاً نجد الطريق المباشرة إلى نابلس تنعطف نحو اليسار.

إنّ البلاد من جبع إلى السامرة أو سبسطية تتألف من تلال وينابيع وأودية خصبة، ولذلك فإنها مأهولة بكثافة وتفلح جيّداً. وتقف القرى شامخة بشكل بارز، وتبدو يانعةً بسبب الينابيع المتدفقة، مؤكّدة أدلّة الكتاب المقدّس وجوزيفوس في ما يتّصل بمنطقة السامرة.

وأمّا القرية التالية التي تبعد نحو نصف ساعة نحو جنين فهي صانور، وقد أعْتَقَدَ بعضهم أنها بيثوليا القديمة المذكورة في كتاب جوديث، وهي تقع على تلّة صخرية مستديرة وشبه معزولة. وهي تشرف على بقعة واسعة من المنطقة، وكان قد سكنها وحصّنها سكّان متعصبون من المسلمين، وكانوا على الدوام في حالة تمرّد ضدّ الحكومة، كما كانوا دائماً على استعداد للتعرّض أو حتى سلب الرحّالة الذين يسافرون بلا حماية[٥].

وعندما مررت بهذه الطريق قبل أربعين سنة، فإنّ صانور كانت مهجورة ومدمّرة(*). وقد استدعى عبد الله باشا والي عكا سنة ١٨٣٠ قوّة كبيرة من جبل لبنان، يقودها الأمير بشير الشهابي لتعاون قواته على حصار هذه القلعة العاصية. وقد تمّ الاستيلاء على القلعة بعد ثلاثة أشهر من الحصار وتمّ حرقها. وقد رويت لي كثير من الروايات عن هذا الحصار

---

(١) William M. Thomson, The Land and the Book, London and New York, 1883.

(٢) ص ١٥١.

(٣) ص ١٦٥- ١٦٦.

(٤) بعد تدمير قلعة صانور على يد عبد الله باشا والأمير بشير الشهابي سنة ١٨٣٠، وجه آل جرّار عنايتهم لبلدة جبع فأصبحت كرسيّاً ومعقلاً جديداً لآل جرّار، ولعلّ هذا هو سرّ تميّزها عن القرى المجاورة.

(٥) عندما يقرأ المرء شهادات الرحّالة الذين مرّوا بصانور فإنه يخرج بانطباع مغاير لما يقوله ثومسون.

(*) إذا كان ثومسون يتحدث عن سنة ١٨٣٠ باعتبارها قبل أربعين سنة، فمعنى ذلك أن أحداث رحلته الأخيرة كانت في حدود ١٨٦٠ أو ما بعدها.

من بعض الأشخاص الذين كانوا مشاركين في هذه الحملة. ثمّ أعيد بناء صانور من قبل سكانها السابقين حزب بيت جرّار، وما زالوا إلى الآن يتمتعون بصفاتهم الأصيلة وشهرتهم.

وهذا السهل الصغير الجميل الذي نشاهده يمتدّ أسفل القلعة باتجاه الشمال الشرقي، هل له اسم محدّد؟ إنّه يقال له مرج الغرُق، و هو اسم مطابقٌ لمسمّاه! إنه جميل كما يظهر لنا الآن، وقد سبق أن رأيته في فصل الشتاء مغطّى بعمق بضعة أقدام بمياهٍ وحلة مائلة إلى الاصفرار، وهو إذن بحيرة دائرية تقريباً قطرها نحو ثلاثة أميال. وفي وقت مبكر من الصيف تأخذ البحيرة بالجفاف، وتزرع تربتها الخصبة والغنية جداً بعد ذلك بالخيار والبطيخ والدُّخُن أو الذرة الصفراء، كما يسميها الناس المحليون، وغيرها من المحاصيل الصيفية.

ثم يتابع قائلاً في وصف جنين وصانور وعرّابة[١]:

"إنها واحدة من أكثر المناطق اضطراباً في فلسطين. والناس هناك في حالة شجار مستمر إمّا في ما بينهم أنفسهم وإمّا مع العربان الذين يجوبون المنطقة والقادمين من وراء نهر الأردن، وإمّا أنّهم يعيشون حالة من التمرّد ضدّ الحكومة.

وهناك ثلاثة أو أكثر من العائلات أو القبائل المتزعمة المتنافسة الذين يجعلون إراقة الدماء مستمرة في هذا الجزء من البلاد، بيت عبد الهادي وعشيرة طوقان في عرّابة ونابلس، وبيت جرّار في صانور وجنين، وعشيرة الريّان ذات الأصول البدوية في غرب نهر الأردن"[٢].

(٤٩)

رحلة هوراتيوس بونار ١٨٥٧

أرض الميعاد: ملاحظات على رحلة ربيعية من بئر السبع إلى صيدا[٣]

يقول في وصف رحلته من نابلس إلى جنين مروراً بصانور[٤]:

"صعدنا الآن المرتفع الواقع إلى الشمال الذي تمرّ طريقنا من خلاله، ويبدو المنظر من قمته فسيحاً ورائعاً، حيث البحر يظهر من مسافة بعيدة، ووادٍ جميل بالقرب منه، والتلال القريبة من الناصرة من جهة الشمال".

وفي نحو الساعة الثالثة وجدنا أنفسنا أمام حصنٍ مبنيٍّ على تلة صغيرة، ليس مرتفعاً جداً، ولكنه منيعٌ بما فيه الكفاية لصدّ أي محاولة للاستيلاء عليه في الأزمنة القديمة. إنّه على أيّة حال لا علاقة له باليهود، بل يعود إلى التاريخ الإسلامي المتأخر. إنّ هذه القلعة

---

(١) ص ١٦٦.

(٢) ترجم سليمان الموسى فقرة من مشاهدات ثومسون في صانور في كتابه: رحلات في الأردنّ وفلسطين، سليمان الموسى، دائرة الثقافة والفنون، عمّان، ط٢، ١٩٨٧، ص ١٥٣.

(٣) Horatius Bonar, The Land of Promise: Notes of a Spring- Journey from Beersheeba to Sidon, London, James Nisbet, 1858.

(٤) ص ٣٨٣-٣٨٥ وكان وصوله إليها في شهر آذار في يوم بارد.

المرتفعة تبدو جيّدة سواء من مسافة بعيدة أو من المناطق القريبة المحيطة بقاعدتها، وتدعى قلعة صانور لوجودها في مرج صانور. و هذا المرج كان جافّاً بما فيه الكفاية عند مرورنا فيه، إلاّ أنّه يقال إنه يتشكل فيه في العادة مستنقع أو بحيرة خلال فصل الشتاء، و هو محاط بجبال بديعة.

وإلى الشمال من هذا المكان، بعد مسافة قليلة تقع عرّابة (دوثان) ويمكن رؤيتها بسهولة، وتقع على حافة تلة صغيرة.

إنّ اكتشاف دوثان (عرّابة) يساعد على تحديد موقع آخر و هو موقع (بيثوليا) المذكور في كتاب جوديث، وذلك لأنّ كلاًّ من دوثان وبيثوليا لا يبعد أحدهما عن الآخر وكلاهما يقع إلى الجنوب من مرج ابن عامر. ونحن نعرف بأنّ موقع بيثوليا كان قريباً من مرج فيه وادٍ وعيون ماء، وهذه العلامات جميعها تنطبق على حصن صانور، ولكن ولأنّ اسم (صانور) يختلف كثيراً عن اسم بيثوليا، فإذنا لا نستطيع أن نحدّد هوية هذين المكانين، ولكن، وفي الوقت نفسه، هناك احتمالية قوية بأنهما شيء واحد (بيثوليا وصانور)، وأن حصن صانور قد يكون حقّاً حصناً قديماً، على الرغم من أنّ الدكتور روبنسون لا يعتقد ذلك".

إنّه مكان يتمتع بقوّة عظيمة ويتحكم بمداخل الوادي.

وفي أثناء انحدارنا مرّة أخرى شاهدنا عدّة قرى، ولاحظنا أن المنطقة التي مررنا بها اليوم تبدو أكثر كثافة سكانية وخصباً بصورة بارزة من تلك التي مررنا بها بالأمس.

وبعد مسيرنا عبر غابة كثيفة من شجر الزيتون، صعدنا ثانية، ثمّ ما لبثنا أن انحدرنا إلى مرج صانور المترامي الأطراف.

(٥٠)

رحلة فيلكس بوفت سنة ١٨٥٨ (*)

مصر وفلسطين وفنيقيا : زيارة إلى أراضٍ مقدّسة ١٨٨٢[١]

يقول في وصف صانور في سفره من نابلس إلى الجليل[٢]:

"وفي أثناء مسيرنا من جبل إلى جبل فإذنا نمرّ بالتتابع بكلّ من برقة والفندقومية وجبع.....ثمّ نجد أنفسنا في واد بجانب بحيرة صغيرة في بقعة منخفضة ليس لمياهها أيّ تصريف، ولكنها تجفّ في الصيف، وهي في فصل الشتاء تكون أوسع ممّا هي عليه الآن، وهذا ما يمكن الحكم عليه من أكوام القصب المتناثرة في البساتين".

(*) ولد فيلكس بوفت سنة ١٨٢٤، وذهب في سنة ١٨٤٣ إلى برلين ليدرس الحقوق، لكنه تحوّل إلى دراسة اللغة العبرية، ثمّ قام برحلته إلى فلسطين.

(١) Felix Bovet: Egypt, Palestine and Phoenicia: A Visit ot Sacred Lands (1882), Hodder and Stoughton, London, 1882.

(٢) ص ٣٣٢.

وبالقرب من هذا المكان توجد صانور يحيط بها سور قصير وتتوّج، مثل جبع، قمة التلّة التي تكاد تكون مستديرة وذات شكل منتظم، حيث تقف مثل برج على حافة سلسلة تلال منخفضة، وقد اعتقد بعض الرحّالة أنها بيثوليا الواردة في كتاب جوّديث، لكنّ آخرين منهم يرون أنّ بيثوليا في جنين و هي المكان الذي سنقضي فيه الليلة، ويرى آخرون أنّها في قباطية التي نحن على وشك الوصول إليها.

(٥١)

رحلة إميلي بيفورت ١٨٥٩

مقابر مصرية ومزارات سوريّة، بما في ذلك بعض الإقامة في لبنان وبالميرا وغرب تركيّا[١]

يقول في وصف رحلته من الناصرة إلى القدس مروراً بصانور[٢]:

"وقد اجتزنا سهلاً صغيراً دائرياً، أو حوضاً، يدعى مرج الغُرُق، حيث تتجمّع فيه المياه طوال فصل الشتاء، ولكنّه الآن مليء ببقايا الزرع، وإلى جانب هذا السهل تقع دوثان حيث جرى بيع المسكين يوسف (عليه السلام) للأعراب (وهو المكان الذي ما زالت القوافل تتخذه طريقاً من مصر إلى دمشق)، وحيث سُمح لخادم إليشا أن يرى بوضوح بأنّه إذا كان الله معنا فلن يكون أحدٌ ضدّنا.

ويلي هذا المكان حصنٌ قديم جميل يدعى صانور يفترض أنّه بيثوليا القديمة، و هو المكان الذي وقعت فيه قصة جوديث حين كان هولوفيرنس مخيّماً بجيشه في الوادي الصغير الممتد إلى عين دوثان، ثمّ تأتي بعد ذلك غابات جبع المهيبة".

(١) Emily A. Beaufort, Egyptian Sepulchres and Syrian Shrines, Including some Stay in the Lebanon, at Palmyra and in Western Turkey, 2 vols., Longman, London, 1862.

(٢) ٧٤/٢.

رحلة كارل ريتر[١]

جغرافية فلسطين وشبه جزيرة سيناء المقارنة[٢]

يقول في وصف الطريق من سبسطية إلى مرج ابن عامر[٣]:

"إنّ الطريق المباشرة المتجهة شمالاً من جرزيم وعيبال عبر صانور إلى الناصرة هي أقلّ شهرة من سواها، ولذلك فإنّ الأوروبيين لا يعبرون المناطق الواقعة غرب سبسطية وتلك التي بينها وبين مرج ابن عامر.

يقول روبنسون الذي يظلّ دليلنا الأكثر موثوقية فيما يتعلّق بهذه المناطق: "هناك طريقان يمكن أن يُسلكا من سبسطية إلى طريق دمشق الرئيسي في جنين: إحداهما جنوبيّة، وهي الأسهل، وتمرّ من بيت إمرين، وربّما تكون هي التي سلكها ويلسون في أيّار ١٨٤٣ والذي يقول عنها إنها التي تسلكها العربات، وهي ما يستحيل وجود مثيل لها في (يهودا والسامرة). وأمّا الطريق الشمالية فهي التي تمرّ من برقة، وهي التي سلكها روبنسون. وهذه القرية التي تمّ الوصول إليها خلال ثلاثة أرباع الساعة من الصعود المتواصل، تقع على أرض مستصلحة شبه مستوية، وهي مثل سائر قرى جبل نابلس محاطة بكروم الزيتون.

وإلى الشمال مباشرة من هذا المنظر الجميل يمكن مشاهدة البحر الأبيض المتوسط عن بعد. ومن الجهة الشمالية يمكن مشاهدة السهول الأكثر جاذبيّة. وهناك وادٍ جميل

عريض يجري من الشرق إلى الغرب ويقسم هذه المنطقة غير المنتظمة إلى قسمين: القسم الشرقي الذي يتألف منه سهل بيضاويٌّ متّسع، الذي تقع صانور على طرفه الشماليّ الغربيّ، على الرغم من أنها لا تُرى.

أمّا القسم الغربي فهو أضيق مساحة وأقلّ انتظاماً في شكله، وينحدر تدريجياً باتجاه البحر الأبيض المتوسط.

وتقع آثار صانور على مرتفع صخريّ محاط بتحصينات دفاعية، وهذه التحصينات هي الآن بحالة خراب. وعندما مرّ الدكتور كلارك سنة ١٨٠١ من هذه المنطقة، كانت القلعة تحمل ملامح حصنٍ نورمانيّ قديم، وكان يسيطر عليها زعيم يتصف بالكرم، الذي استقبله

---

(١) جغرافيّ ألمانيّ ولد في بروسيا سنة ١٧٧٩، وتوفي في برلين سة ١٨٥٩، درس في جامعة هالي (Halle) سنة ١٧٩٦، سافر كثيراً إلى أوروبا، كما سافر إلى إفريقيا وآسيا في مطلع القرن التاسع عشر، ونشر كتبه ابتداءً من سنة ١٨١٧، درّس التاريخ في فرانكفورت ثمّ عمل أستاذاً للجغرافية في جامعة برلين وفي الأكاديمية العسكرية الملكية. وكان عضواً مؤسساً في جمعية برلين الجغرافية سنة ١٨٢٨، وتوفي سنة ١٨٥٩ في برلين.

(٢) Ritter, Carl, The Comparative Geography of Palestine and the Sinaitic Peninsula, New York, 1866.

(٣) ٤/٣٢٧-٣٢٨.

بحفاوة استقبالاً ملكيّاً. وقد أطلق كلارك على المكان اسم سانتوري (Santorri)، ولمّا لم يكن على معرفة بموقع سبسطية فإنّه وصف المكان بأنّه موقع (السامرة) القديمة، على الرغم من أنّ موندريل (Maundrell) الذي يحيل إليه كلارك كان على معرفة بهذه الأخيرة.

وتقع صانور المحصنّة جدّاً على مرتفع صخريّ يساعد على صمودها، فقد حاصرها الجزّار باشا لمدة شهرين، ولكن دون أن يتمكن من الظفر بها.

ولدى الانحدار من هذه الأرض المرتفعة عبر كروم الزيتون البديعة والأودية التي تجري فيها المياه بشكل جيّد، فإنّه لا ينقضي وقت طويل قبل أن يصل المسافر إلى مدينة جنين التي تقع على الحدود الفاصلة بين (السامرة ومرج ابن عامر)".

(٥٣)

رحلة بيير ١٨٦٠

القسطنطينية والقدس وروما[١]

يقول في وصف رحلته من الناصرة إلى نابلس مروراً بصانور وجبع[٢]:

"وصلنا بعد ذلك إلى قلعة صانور الشهيرة مشياً على الأقدام، وقد تحدثنا كثيراً عن هذه القلعة التي يعمل بها حواليْ ألفيْ فلاّح. وبسبب التهرّب من الالتزام للحامية التركية، تمّ في سنة ١٨٣١ م فرض الحصار على القلعة لمدة ستة أشهر وشُنّت عليها حملات هجوميّة وغارات من قوّات مؤلّفة من أربعين ألف رجل يرأسهم عبد الله باشا الجبّار الذي تحدثنا عنه في الكرمل والذي يظنّ نفسه أنه خالد إلى الأبد.

إلاّ أننا لا نرى اليوم الجدران المهدّمة. كما لاحظتّ انطباعاً مختلفاً على وجوه أفراد القافلة، بينما يمرّ الأتراك بهدوء بدون حتى أن ينظروا إلى القلعة. وقام العرب المرافقون لنا بالتفاخر بصوتٍ عالٍ وهم يتحدثون عن براعة الدفاع عن القلعة وكيف استطاع أبطال صانور أن يطيلوا فترة المقاومة من ستة أشهر إلى ثلاث سنوات.

كنت أنصت إلى النقاشات ولا أشارك فيها، وقد هنّأت نفسي داخلياً لأنني التزمت بالتنبيهات عندما علمت أنّ "ملك الأرض" ليس هنا لحمايتنا.

وكما أشرْتُ فيما يخصّ بيثوليا، فإنّ هذا المكان (صانور) هو الذي حدّده بعض الكتّاب ليكون موقع بيثوليا المذكورة في كتاب جوديث.

وبعد المرور بقرية موحشة تقبع على قمة تلّة مثل عشّ الصقور، وصلنا إلى عين جبع، وجلسنا في ظلّ بعض أشجار الزيتون لكي نتناول غداءنا المتواضع. وفي هذه الأثناء مرّت بعض النساء وهنّ يحملن الماء والحطب.

---

(١) Pierre, L'abbe, Constantinople, Jerusalem et Rome, Paris, 1860

(٢) ٣٣٩/١-٣٤٢.

(٥٤)

رحلة درايدن فيلبس سنة ١٨٦٢[*]

الأرض المقدّسة مع نظرة خاطفة على أوروبا ومصر - عامٌ من الرحلة[١]

يقول في وصف رحلته من نابلس إلى جنين[٢]:

ومن أعظم القرى التي مررنا بها قرية جبع، و هي مكان مزد هر، تقع بشكل بديع على منحدر يطلّ على وادٍ أخضر، وتحيط بها أشجار الزيتون والتين اليانعة ونباتات الزعتر العطرةً. وهنا توجد طريق تقاطعي يأتي مباشرة من نابلس. ثمّ يظهر لنا من خلال طريقنا وادٍ ضيق يبعد نصف ساعة عن مكان وجودنا حيث نأتي إلى سهل صانور الدائري. إنه بقطر ثلاثة أو أربعة أميال، و هو على هيئة بحيرة منخفضة سبخة، ويغطّي الماء جزءاً منها. وحيث لا يوجد مخرج لهذا الماء فإنه تتّجمع فيه في فصل الشتاء كمية كبيرة من الماء، إلاّ أنّها تجف في فصل الصيف، وبعد ذلك يُفْلح هذا المرج. ويسمّي الأهالي هذا المكان بمرج الغُرُق.

وباتجاه الزاوية الجنوبية الغربية من هذا المرج تقع قرية صانور، وهي محاطة بحصن، ويسكنها أناسٌ خشنون ومتمرّدون ومشاكسون، و قد و صف بعض الرحالة ثقافة هؤلاء الناس بأنها متدنيّة.

(٥٥)

رحلة هنري بيكر ترسترام[٣] ١٨٦٣ - ١٨٦٤

أرض إسرائيل

يصف طريقه باتجاه القدس مروراً بنابلس في ٢٤ شباط ١٨٦٤ قائلاً[٤]:

(*) ولد سنة ١٨١٦ وتوفي سنة ١٨٩٥، كان رجل دين، ودرس العلوم اللاهوتية سنة ١٨٤٤.

(١) S. Dryden Phelps, Holy Land with Glimpse of Europe and Egypt: A year's Tour, New York, Sheldon and Co., 1863 .

(٢) ص ٣١٩.

(٣) Henry Baker Tristram, The Land of Israel, A Journal of Travels in Palestine, London, 1865، وصدر الكتاب بعنوان آخر هو: Travels and Discoveries in Palestine and Jordan, 2 Vols., Gorgias Press, New Jersay, 2006، وهنري بيكر ترسترام ولد سنة ١٨٢٢ في بريطانيا، وتخرج من جامعة أكسفورد سنة ١٨٤٤ في الكلاسيكيات، وحصل على الماجستير سنة ١٨٤٦ حيث عيّن كاهناً، ثمّ ذهب إلى برمودا وأصبح سكرتيراً لحاكمها وقسيساً للجيش والبحرية. وزار فلسطين ومصر في شتاء ١٨٦١، ثمّ زارها ثانية سنة ١٨٦٣- ١٨٦٤، وزار فلسطين بعد ذلك في السنوات ١٨٨٠- ١٨٨١، ١٨٩٤، ١٨٩٧. وعيّن في سنة ١٨٨٤ القسيس الأكبر لإنجلترا، له عدة مؤلفات، توفي سنة ١٩٠٦.

(٤) ٤١٤.

"أمّا قلعة صانور الواقعة إلى الشمال قليلاً من جبع، فهي مكان مهمّ، بسبب موقعها على رأس تلة صخرية معزولة تشرف على مدخل المرج، ومن هذا الحصن تصدّت بنجاح لهجمات الجزار باشا سيء الذكر، ثمّ تمّ الاستيلاء عليها بعد ذلك وتدميرها، وكانت ما زالت خراباً عندما زارها الدكتور ربنسون، ولكن أعيد بناؤها فيما بعد، إلاّ أن أشجار الزيتون التي اقتلعها الأتراك لم يتم استبدالها، أمّا شيوخها الإقطاعيون، الذين كانت لهم ذات زمن سطوة شديدة على المنطقة، فقد لحقهم الهوان وأصابتهم الفاقة، ولم يعد المسافر يخشى من المرور عبر أوديتهم وحيداً.

ومن صانور ركبنا عبر مرج الغرق، وهو حوض فريد من نوعه وواسع إلى حدّ ما، ولا يوجد أي تصريف لمياهه من التلال المحيطة التي تجتمع مياهها في فصل الشتاء في هذه البحيرة الضحلة الواسعة، وقد شاهدنا هنالك طيور النكّات[١] وطيور الزَّقزاق الطنّانة الرائعة تمشي بخفّة وأناقة على الماء. وقد لوحظت أيضاً دجاجة المستنقعات والصقور وأنواع أخرى من الطيور تمشي فوق سطح البحيرة. وعندما عدت لزيارة هذا المكان في الأول من شهر نيسان وجدتُ الماء مازال موجوداً ووجدت طائر الطُّوَّل وأنواعاً أخرى من فصائل الطيور الخائضة للماء مثل الزقزاق والطائر شوكّي الجناح والطائر المغفّل تتكاثر وتتناسل في ذلك المكان".

(١) وهو طائر مائي طويل الساقين ذو منقار نحيل طويل ملتوٍ عند طرفه إلى أعلى.

(٥٦)

مدوّنات رحلة سنة ١٨٦٤[١]

يقول صاحب الرحلة في وصف طريقه مروراً بجبع وصانور باتجاه جنين[٢]:

"ثمّ توجهنا نحو الغرب والشمال بمحاذاة الطريق التي تمرّ من القرى والأودية الخصبة حيث شاهدنا صانور على مسافة وهي تقف على تلّ صخريّ يقع على حافّة بحيرة.

وقد كانت السلسلة الجبلية التي وقفنا عليها مغّطاة بنباتات قصيرة وشجيرات خضرية شبيهة بالخلنج بالإضافة إلى الكثير من الصعتر البري ذي الرائحة العطرة.

وفي الأماكن الأكثر انخفاضاً وجدنا كثيراً من التين الوافر النماء والزيتون وكذلك الذرة الخضراء.

وبعد اجتيازنا جبع التقينا بمجموعة من فتيات القرية يحملن حزماً من الأغصان الشوكية جمعنها من التلال. وقد كانت تلك الفتيات أكثر بشاشة من نساء سبسطية، ولكن يبقى القليل ممّا يقال في هذا الشأن. أمّا ملابسهنّ فكانت بسيطة و خفيفة، وكل واحدة منهنّ عليها وشمٌ أزرق تحت الفم و كحلٌ حول العينين، وكثير منهنّ لديهنّ وزنٌ كافٍ من قطع الأربعة قروش معلّقة حول رؤوسهنّ.

إنّ هذه العادة في حمل المرأة ثروتها الكاملة معها لا بدّ أنّ لها بعض النتائج غير المريحة، ولكن من ناحية الوضع الأسري الزوجي فإنها قد تحول دون وقوع المشاكل الزوجية وتساعد في توفير بعض المتطلبات.

أمّا الرجال في هذه المنطقة فإنهم يلتزمون بحدودهم بالمحظورات، ولكنهم حينما يمتطون خيولهم ويحملون أسلحتهم فإنهم يظهرون أصحاب تقاليد وأعراف. وقد كنتُ في بعض طريقي راكباً فرسي وحدي بعيداً عن القافلة التي تحمل الأمتعة فالتقيت شخصاً منهم كان في كامل أناقته وأبّهته يسير في الطريق، وكان يمتطي فرساً مبهرجة، ويلبس ثياباً ملوّنة زاهية كثيرة الطيّ، وكان حزامه مزداناً بشكل كبير بمسدّسات وخناجر، وقد حمل بيده رمحاً طويلاً أنيقاً مزّيناً بخصل من الخيوط وريش النعام. وقد تبادلنا التحية بمودّة ومضى في طريقه.

أمّا الشعير في هذه السهول فقد كانت أكثر خصباً من كلّ ما شاهدته من قبل، وكانت تميل إلى الاصفرار.

وبعد صانور، وجدت أعمال حراثة تجري بنشاط وكان الناس يبذرون الحبوب باستخدام أنابيب. وكانت المحاريث أقوى وأفضل تركيباً من تلك التي رأيتها في الجنوب.

وعلى ضفاف البحيرة كان هناك عددٌ كبيرٌ من المواشي والحمير ترعى ومعها قطعان من الغنم السوداء ذوات الآذان الطويلة الناعمة كالحرير.

---

(١) هذه يوميّات رحلة منشورة في مجلة سيدني مورننغ هيرالد في عددها بتاريخ ١٨٦٤/٨/٣. وعنوانها:
Wayfaring Notes, No.20, Sydney Morning Herald, 3 August, 1864.

(٢) ص ٣-٤.

(٥٧)

رحلة لياو ديهون ١٨٦٤ -١٨٦٥

مذكّرات[١]

يقول في وصف رحلته من القدس إلى الناصرة مروراً بصانور[٢]:

"ثمّ وصلنا إلى بيثوليا، المعروفة بصانور، وتقع فوق قمة معزولة، ويوجد بجوارها قلعة صغيرة تشكّل جزءاً منها. ولا شيء يثير الاهتمام بها أكثر من حكاية جوديث".

(١) Pe. Leào Dehon, Memórias (Notes sur l'histoire de ma vie), vol.2, Agosto 1864- Outubro 1865

(٢) ١٢٦/٢.

(٥٨)

رحلة هنري دي جينامون ١٨٦٧

الأرض المقدّسة[١]

يقول في وصف طريقه من نابلس إلى الناصرة مروراً بصانور[٢]:

"في حوالي الساعة الثالثة وصلنا –في شمال السامرة- إلى تلّة تطلّ على وادٍ جميل تقبع عليها قلعةٌ مدمّرة أو آثار قلعة، وهذه القلعة تفرض سيطرتها واحترامها على كلّ ما حولها، ويطلق العرب عليها صانور أو قلعة صانور.

هل من المعقول أنه على جدران هذه القلعة تمّ تعليق رأس هولوفيرنس؟ هذا غير ممكن، ولكن من المحتمل أن تكون هذه الحجارة هي حجارة جدران قلعة قديمة. ففي هذا المكان نعتقد أنه كانت ما يسمى بيثوليا، وهو الاسم الذي يثير في الذاكرة الأعمال الرائعة لامرأة أكّد المؤرّخون أنّها مجد القدس وسعادة إسرائيل.

ولدى مغادرة الحقول المحيطة بصانور وصلنا إلى منطقة جبلية، وبعد المضيّ ومواجهة لعديد من العوائق وخلال ساعتين وصلنا إلى قباطية، وهي قرية كبيرة محاطة بالزيتون".

(٥٩)

رحلة بيرت (قبل سنة ١٨٦٨)

الشرق الأقصى: أو رسائل من مصر وفلسطين وبلدان أخرى في الشرق[٣]

في إحدى رسائله التي كتبها في Varna في العاشر من أيّار، يصف رحلته من نابلس إلى الناصرة، ويقول في جزء منها[٤]:

"وفي اليوم التالي كانت الرحلة من سبسطية إلى جنين باتجاه الشمال الشرقي، وإذا كان أحد القرّاء يرغب في تتبع خطّ سير الرحلة، فإنه يمكنه أن يفعل ذلك مروراً ببرقة وجبع وصانور وقباطية، وبجوار هذه الأخيرة وصلنا في موعد الغداء. ولم يكن في رحلتنا بعد ظهيرة هذا اليوم شيءٌ ذو أهميّة، حتى إننا في بعض الأحيان كنّا نتسلّق الممرّات الوعرة والتلال الشاهقة ببطء وحريّة، حيث كان بإمكاننا أن نشاهد من بعض تلك القمم الهرمون

---

(١) Henri de Guinaumont, La Terre Sainte, Paris, 1867.

(٢) ٥١٣/٢-٥١٤.

(٣) N.C. Burt, The Far East, or Letters from Egypt, Palestine, and Other Lands of the Orient, Cincinnati, R.W. Carroll and Co., 1868.

(٤) ص ٣٠٠- ٣٠١.

الكبير عن يميننا والكرمل عن شمالنا. وفي مرّات أخرى كنا نغذّ السير وسط مروج واسعة عريضة وخصبة تكون تارة غامقة اللون بسبب بساتين الزيتون وتارة مضيئة بسبب مروج القمح الناضج. وفي أثناء سيرنا أشار دليلنا إلى أحد التلال حيث توجد قرية السيلة على مسافة ميلين من الوادي المشهور بالخصومات الدموية سيئة الذكر، وإلى بعض الأماكن التي كان يجري فيها في هذا الوقت القتال مرّة أخرى.

وخلال هذه الرحلة لم نشاهد في سوريا ما شاهدناه بالقرب من تلك القرى من جماعات النساء يحملن خشب المدافئ على رؤوسهن متجهات نحو بيوتهنّ، كما أنني لا أذكر في أي مكان أنني لاحظت ما لاحظته في هذا الصباح من هذا الجمع الكبير من النساء يحملن هذه الأثقال الكبيرة على رؤوسهنّ، وبينهنّ فتيات في منتصف العمر وصبايا شقراوات قد جدّلن شعورهن ينوْن بتلك الأحمال...

(٦٠)

رحلة فيكتور غيرين[١] قبل سنة ١٨٦٨

الوصف الجغرافي والتاريخي والأثري لفلسطين

يقول في وصفه لصانور وقد زارها وزار شيخها[٢]:

"إنّ التلّة التي تقع عليها القرية الحديثة هي دائرية تقريباً في شكلها، وتظهر كما لو أنّها مصاطب متتابعة (Successive terraces)، المنحدرات حادّة جداً، وفيها أحواض ماء عديدة محفورة في الصخر، والتلّة معزولة تماماً من ثلاث جهات، أمّا الجهة الرابعة وبسبب اللسان الصخري الطويل فإنها أكثر انخفاضاً من الربوة التي تقوم عليها القرية، و هي متصلة مع تلال أخرى، ويبدو أنها كانت مصمّمة كي تستخدم كحصن. ولذلك فإنها حمىً مسوّر تحيط بها أبراج كانت في الماضي تعلو قمة البلدة، أمّا الآن فهي أكبر قليلاً من بلدة، إنّ عدداً كبيراً من بيوتها قد أزيلت أو أعيد بناؤها جزئياً، أمّا بيت الشيخ الذي زرته فهي مثل حصن صغير".

---

(١) رحّالة و عالم فرنسي اسمه فيكتور هونور غيرين (Victor Honore Guerin)، عاش بين سنتي ١٨٢١-١٨٩١، ودرس الآثار في كلية الآثار الفرنسية في أثينا، زار فلسطين سبع مرّات بين سنتي ١٨٥٤ و ١٨٨٨، وألّف كتابه الذي ظهر بين سنتي ١٨٦٨و ١٩٠٠، وخصّص جزءاً من هذا الكتاب لمدينة نابلس.

(٢) ورد هذا النصّ من رحلة فيكتور غيرين الفرنسي في كتاب كوندر وكيشنر ص ١٥٨ في حاشية حديثهما عن صانور، وسيأتي الحديث عنه لاحقاً. وعنوان كتاب غيرين هو:

Victor Honore Guerin, Description Geographique, Historique et Archeologique de la Palestine, 1868.

رحلة جوسياس لسلي بورتر ١٨٦٨[١]

دليل المسافرين إلى سوريا وفلسطين

يقول في وصف الطريق من نابلس إلى جنين[٢]:

أمّا جبع فإنها قديمة نوعاً ما، وهي قرية كبيرة، وتقع بصورة رائعة على الجزء الأسفل من سفح تلّة تطلّ على وادٍ خصيب، وهي محاطة من كلّ جوانبها بأشجار الزيتون الرمادية التي تنتشر بينها أيضاً بساتين التين الخضراء. ويقع على جانبها الشرقي وادٍ صغير ضيّق تمرّ من أسفله الطريق القادمة من نابلس. وهناك مظهر للعراقة والقدم تبدو على المكان من خلال البرج الضخم والحجارة الكبيرة القديمة المستعملة في بناء البيوت وجذوع الزيتون الضخمة، ممّا يزيدها روعة وجمالاً.

وتمرّ الطريق لمدة نصف ساعة عبر وادٍ ضيّق ثمّ تدخل إلى سهل جميل بقطر ثلاثة إلى أربعة أميال، وقد غطيّت التلال المنخفضة بأيكةٍ من شجر الزعرور والبلوط المقزم والقطلب تظهر بشكل مفاجئ في المرج. ويتشكل في هذا المرج حوضٌ مائيّ، ولا يوجد مخرج لتصريف المياه التي تتجمع فيه خلال فصل الشتاء، ويتحول مركز المرج إلى بحيرة، ولذلك حتى في فصل الصيف تبقى التربة مشبعة بالرطوبة، ولهذا السبب أطلق عليها اسم يناسب ذلك وهو "مرج الغُرُق".

وعلى قمة تلة مخروطية من الجهة الغربية تقف قلعة صانور، وهي لا تعدو الآن أن تكون كومة من الآثار مع أنها ما زالت مسكونة، وكانت في السابق وما زالت تخصّ عائلة من الشيوخ على غرار شيوخ أبو غوش، وهم، مثل الزعماء الإقطاعيين القدماء في بريطانيا، قد حكموا المناطق المحيطة حكماً مستقلاً. وفي حدود نهاية القرن الماضي قام

الجزار باشا أمير عكا سيء السمعة بمحاولة الاستيلاء على القلعة ومعاقبة شيوخها، ولكنه بعد محاصرتها لمدة شهرين اضطر أن يتخلّى عن مشروعه. وفي سنة ١٨٣٠ تمرد شيخ صانور على عبدالله باشا الذي ضرب حصاراً على القلعة، ثمّ استدعى الأمير بشير لمساعدته على رأس قوة من متسلقي الجبال الأشدّاء، وبعد تطويق القلعة لمدة أربعة أشهر تمّ فتح ثغرات بالأسوار بقذائف المدفعية وتمّ اقتحام القلعة وهدمها.

ومنذ ذلك الوقت فإنّ أبناء العائلة الذين تشتتوا بسبب ذلك قد تجمّعوا من جديد وسكنوا بين آثارها، وقاموا بإعادة إعمار أسوارها القديمة تدريجياً.

---

(١) John Murray (Firm), Josias Leslie Porter, A handbook for travelers in Syria and Palestine, Part 2, London, John Murray, 1868، وهو غير جوسياس بورتر الذي مرّ الحديث عن رحلته سابقاً، أمّا جوسياس لسلي بورتر (١٨٢٣- ١٨٨٩) فهو مبشّر ومعلّم إيرلندي وسكن بعض الوقت في دبلن.

(٢) ٢: ٣٣٤.

(٦٢)

رحلة هنري هارمان[1] سنتيّ ١٨٦٩ -١٨٧٠:

رحلة إلى مصر والأرض المقدّسة ١٨٦٩ -١٨٧٠[1]

يقول في وصف الطريق من نابلس إلى جنين فالناصرة مروراً بجبع[2]:

"ولدى مغادرتنا إلى موقع السامرة تابعنا المسير باتجاه الشمال في بلدٍ مليءٍ بالتلال، وتوقفنا في جبع، وهي قرية صغيرة على تلّة. وقد تناول مرافقونا طعام الإفطار في منزل عائلة مسيحية يبدو أنها من أناس محترمين، وممّا كان لافتاً للنظر أنّ هذه العائلة لم تطلب بخشيشاً، ولا أظنّ حسب علمي أن أحداً من أفرادها قد أُعْطِيَ شيئاً. لم نر في البيت طاولة أو كراسيّ. وقد بسط لنا بعض الفراش على الأرض حيث جلس الرحّالة الذين كانوا معنا للطعام.

وبعد توقفنا في هذا المكان حوالي نصف ساعة تابعنا رحلتنا فوق منطقةٍ ذات تلال، لكنها ليست جرداء بأيّ حال، حتى وصلنا إلى جنين قبيل الساعة الرابعة مساءً".

(٦٣)

رحلة جان أوغستين بوست ١٨٧٠

تذكرات الشرْق: دمشق، القدس، والقاهرة[3]

يقول في وصف طريقه من الناصرة إلى نابلس مروراً بصانور وجبع[4]:

"مررنا مع الوديان والقرى عبر الحقول المحروثة وبساتين الزيتون، وحيث المروج البديعة التي يمتد طولها نحو ٢-٣ كيلو متر، وتحمل اسم مرج الغُرُق، أي المرج المغمور، وذلك لأنه في فصل الشتاء تتدفق المياه فيه غزيرةً.

ولدى وصولنا حجبت الشمس وتراكمت الغيوم وبدأ هطول الأمطار بغزارة، وأخذنا نهرول جيّداً، وابتللنا أكثر من أيّ مكان آخر، حيث لا يوجد أي مأوى، وظلّ المطر يلاحقنا بقوّة، وكنّا بحاجة إلى وقتٍ كافٍ للعودة إلى خيولنا حيث تركنا المطر الغزير خلفنا. ولم يكن أولئك الذين معهم مظلاّت أفضل حالاً ممّن ليس معهم، فالجميع كان بحالة سيئة. كان هاجسنا وخوفنا الوحيد هو استمرار هطول المطر الذي سوف يحوّل طرق المرج المغمور إلى حاجز

---

(١) Henry M. Harman, A Journey to Egypt and The Holy Land in 1869-1870, Philadelphia, J.B. Lippincott & co., 1873.

(٢) ص ١٩١.

(٣) Jean- Augustin Bost, Souvenirs d’Orient: Damas, Jerusalem Le Caire, Paris, 1875.

(٤) ص ١٥٠-١٥١.

يمنعنا من المضيّ في السير. وفي آخر الوادي كانت هناك تلّة حادّة من الحجر الجيري شديدة الانحدار ومعزولة، وكان على رأس التلّة بقايا أبراج قلعة صانور المضطربة والتي حوصرت مرتين من قبل باشوات عكا، وقد تمّ إعادة بنائها وبناء أسوارها سنة ١٨٥٧م، وكانت القلعة في الأصل معقلاً.

لم يؤيّد روبنسون فكرة أن تكون صانور هي بيثوليا، ويعطي أسباباً واضحة لذلك، ولكن السبب الأبرز هو أنه كان من المحتمل أن بيثوليا لم تستمر بعد جوديث، فالعديد من الكُتاب ومنهم كلارك يعتقد أن صانور هي سامراء القديمة، ولكن لم يتم تدعيم هذا الاعتقاد.

إشراق جيّد للشمس سوف يكون كافياً لإزالة بللنا، وبعد نصف ساعة من استمتاعنا بمنظر صانور وانبهارنا بكهوفها، دخلنا قرية جبع، وتوقفنا قرب عين ماء حيث كانت النساء تقوم بغسيل الملابس حيث يوجد النبع والكثير من أشجار التين والزيتون. ولم تأبه النساء بنا ولم يضعن الحجاب عندما اقتربنا .

(٦٤)

رحلة كلاود راينييه كوندر(*) إلى فلسطين ١٨٧٢ (**)

عمل في الخيام في فلسطين

يقول في وصف رحلته من نابلس إلى مرج ابن عامر(١):

"في السادس عشر من آب ١٨٧٢ غادرنا نابلس ونقلنا خيمتنا باتجاه الشمال إلى قرية جبع. وكانت المنطقة التي دخلنا إليها غنيّة والقرى المحيطة بها واسعة ومزدهرة وفيها بعض البيوت الأنيقة المبنيّة من الحجر، وفيها زيتون وذرة طيبة، ويقال لها "مشاريق الجرّار" نسبة إلى عائلة مشهورة كان منها زعماء المنطقة حيث حكموها ذات زمن من مرج ابن عامر إلى نابلس جنوباً.

وكان شيخ القرية التي خيّمنا بها من هذه العائلة، وقد عامَلَنا أبناء هذه العائلة بكثير من اللطف والاحترام، مع أن هذا اللطف ربّما لا يكون كلّه نزيهاً أو بريئاً مائة بالمائة.

وكانت قرية جبع إلى الشرق من مخيّمنا، على سفح إحدى التلال، ومبنية بناءً متقناً من الحجر، وتحيط بها بساتين الزيتون. وإلى الشمال شاهدنا عبر سهل ضيّق إلى نابلس قرى قديمة أخرى تجثم على القمم، وقد ظهر خلفنا فجأة تلالٌ تمتد باتجاه الغرب في خط طويل من

(*) ضابط بريطاني قام برحلات استكشافية مسحية لفلسطين. وقد كلّف بمهمة هذا المسح في صيف ١٨٧٢ بعد عودة الكابتن ستيورات الذي سبقه إلى المسح في شهر كانون الثاني من سنة ١٨٧٢، لكنّ مرضه اضطره إلى العودة إلى وطنه وخلفه كوندر على قيادة فريق المسح. ثمّ عاد كوندر إلى إنجلترا في شهر تشرين الأول ١٨٧٥ بعد أن قام بمسح (٤٧٠٠) ميل مربع.

(**) Claude Reinier Conder, Tent Work in Palestine, London, Alexander P. Watt, 1889.

(١) ص ٥٣- ٥٦.

قمة جبل عيبال.

وإلى الشرق من جبع تقف قرية صانور المحصّنة بقوّة، على تلّة منعزلة تحرس الممرّ إلى سهل صغير يقال له مَرْج الغُرُق الذي ليس له أي تصريف مائي طبيعي، ولذلك يصبح في الشتاء مستنقعاً ويجف فقط في أيار أو حزيران"

وهذه القرية المحصّنة (صانور) جرى تحديد هويتها بأنها بيثوليا المذكورة في كتاب جوديث Book of Judith، المكان الذي كان بالقرب من دوثان (Dothan) لكنّ صانور تفتقر لخصيصة واحدة من خصائص ذلك الموقع، وذلك أنها لا تشرف على مرج ابن عامر، ومن اللافت "أنّ قرية ميسيلية (Mithilia) التي تبعد قليلاً إلى الشمال، لها إطلالة على مرج ابن عامر، و(*)اسمها كذلك قريبٌ من اسم بيثوليا، ويمكن مشاهدة المرج من السلسلة الجبلية القريبة منها.

ويسكن زعيم بيت جرّار في صانور(*)، وابن شقيقه هو شيخ جبع، وأبناء العائلة الشباب أكثر من أن يعدّوا، وقد ابتُلينا بدعوات للزيارة لا نهاية لها منهم جميعاً. وقد دعانا آل جرّار في جبع إلى مأدبة طعام ممّا أتاح لنا أن نقف على مشاهد من حياة الفلاّحين لم تتح لغيرنا من الأوروبيين. وفي الساعة السادسة مساءً أرسلوا لنا إلى المخيم رجلاً كي يرافقنا إلى مكان الدعوة، فمشينا عبر القرية حتى وصلنا إلى أعلى بيت فيها، وهو بيت الشيخ.

السكّان جميعهم لطيفون بشكل رائع، وقد اشتهر عندهم عداؤهم لرجال قرية عرابة التي تبعد بعض الأميال إلى الشمال، وهم يمارسون السلب بشكل مروّع، ولكن في سنة ١٨٦٨ جاءت إليهم الحكومة بعد أعمال شغب، وقتلت ثلاثين إلى أربعين منهم وغرّمت القرية غرامات باهظة وأخذت معظم شبابهم إلى الجنديّة.

كان بيت الشيخ مبيناً بناءً قويّاً وحديثاً، وكانت غرفة الاستقبال في الطابق العلوي ذات منصّة مرفوعة ولها درابزين (سياج) خشبي منخفض، ارتفاعه حوالي ستة إنْشات فوق الدرجة. وكانت الغرفة مفروشة بالسجّاد، والوسائد مصفوفة على الحائط في الطرف الأعلى في الزوايا حيث طلب منّا أن نجلس. وكانت الجدران مغلّفة بالجصّ وكانت بنّيّة جداً ومشقّقة. وقد بني على الطرف السفلي للغرفة رواقٌ للنوم.

ثمّ ظهر لنا الشيخ الآن بثوبه الأبيض وكوفيته الحريرية الصفراء على رأسه وعليها عقال أسود، وقام بخلع خفّه الأحمر عن قدميه المغسولتين جيّداً، ثم تقدّم إلى المنصّة فصافحنا ثمّ وضع يده على صدره ثم على شفتيه ثم على رأسه في إشارة إلى صيغة من صيغ الترحيب "على قلبي وعلى فمي وعلى رأسي".

وكان الترحيب يتكرر بعبارات مثل "كيف صحتك؟ كيف سعادتك؟ كيف عبادتك؟ كيف سيادتك؟"، ثمّ تبعه شخص آخر وكرّر العبارات السابقة وأدّاها بلباقة.

وجلس المُضيف بعيداً بعضَ الشيء بل جلس على ركبتيه حتّى تمّ الإلحاح عليه للجلوس قريباً، فدنا تدريجياً وجلس جانباً على إحدى ركبتيه وقد أخفى رجليه بخفّة، ثم تبعه رجل كبير السنّ ثم ابن المضيف ثم ثالثٌ فرابعٌ جاءوا تباعاً، وكلّما جاء أحد وقفنا وقمنا بتأدية المراسم نفسها بوقار ولباقة يجعلان المرء ينسى للحظة ما أننا نتعامل مع فلاحين بسطاء.

(*) كان من زعماء بيت جرّار في صانور في هذه المدّة قدّورة (عبد القادر) بن مفلح بن عبد الله بن الشيخ يوسف الجرّار، وقاسم داود الجرّار، وكان داود بن اسعيد الداود الجرّار شيخاً لجبع.

ثمّ أحضر ناطور القرية وبعض الخدم طاولة خشبية مستديرة قطرها نحو ياردة واحدة لها أرجل بارتفاع ستّة إنشات، وهي مصنوعة من الخشب القويّ، فوضعت في المنتصف، ثمّ أحضر حوض نحاسي ضخم وإبريق نحاسي له فوهة طويلة مثل دلّة القهوة، وقام ابن الشيخ بتوزيع المناديل، وقمنا بغسل أيدينا اليمنى استعداداً للأكل بها –وذلك لأنّ الأكل باليد اليسرى يعتبر في العادة انتهاكاً صارخاً للأخلاق تماماً كما تظهر قدماً واحدة.

ثمّ أحضرت دستة من الأطباق بشكل متلاحق، حيث كان يتناولها الرجل الشابّ من الخدم ويضعها على الطاولة، وقد اشتملت على العدس والبندورة والكوسا المحفورة المحشوّة بالأرز يقدّم معه الحليب الحامض (اللبن)، وصلصة لذيذة تناسب هذا اللون من الطعام، وقد وُزِّعَتْ بين الأطباق، ولكنّ وسط الطاولة ظلّ فارغاً إلى أن وصلت ثلاثة أطباق خشبية ضخمة من الأرز المكدّس بشكل مخروطي تعلوها قطعٌ من اللحم المسلوق بشكل بارز.

وكان أشهى الأطباق، على أية حال، طبقٌ فيه جديٌ، ظنناه للحظة ما بأنه الغزال الصغير الذي كان معنا وقد أضعناه بعد ذلك، ثمّ راجعنا ظنّنا، والذي وزّع لحمه على الأطباق وظلّ رأسه ورجلاه على المائدة.

ولأننا أوروبيّون فإنّ الاختراع العظيم للملعقة والشوكة المصنوعة من القصدير كان مسموحاً لنا به، ولاشكّ في أنه سينظر إليه من قبل الشيخ على أنه دليل رائع على الحضارة. وبعد ذلك تمّ توزيع أرغفة الخبز الرقيق غير المخمّر والمتين كالجلد، قطر الرغيف منها نحو قدم، وقد نثرت على السجّاد بجانب كلّ ضيف.

وقد طُلب منّا الاقتراب من المائدة، وكان علينا أن نضغط على مضيفنا لبعض الوقت كي يأكل معنا، وفي النهاية جلس معنا وانضمّ إليه اثنان، بينما قام ابنه بتقطيع اللحم إلى قطع صغيرة بيده اليمنى وعمل منها لفافات صغيرة بالخبز وتقديمها لنا لنأكلها. وقد وضعت كبدة الجدي وكلاه في ورق النبات واعتبرت من الأطعمة الشهيّة. كان الطعام كلّه ناضجاً وطيّباً ولكنّه مُدْهنٌ جداً على المذاق عند الأوروبيين، كما أن نقص الملح فيه جعله بلا نكهة.

لم يقدّم الماء على الطاولة، ولكن الخادم كان يحضره عند الطلب في كأس خضراء، وكلّما شرب أحد الضيوف كان جاره الأقرب يدير وجهه إليه مع انحناءة بسيطة ويقول له: هنيئاً، حيث يكون الجواب (حيث يوجد لكلّ صيغة جواب مناسب): الله يهنيك أكثر. يصاحب ذلك لمس الرأس باليد.

وعندما انتهى الطعام استند كلّ منّا إلى مكان جلوسه، وأحضر الحوض ثانية مع الماء والصابون، وهو أمر ضروري بعد استعمال الأصابع في الأكل. ثمّ وزعت القهوة على الجميع، بينما كانت دفعة جديدة من الناس تقبل على المائدة، ثمّ تبعتها دفعة ثانية وثالثة حتى لم يبق من الطعام إلاّ القليل.

وكانت القهوة التي قدّمت صافية وأطيب من القهوة التركيّة الكثيفة التي تقدم عادة للرحّالة. شرب الضيوف القهوة بسرعة مع صوت ارتشاف عالٍ، وكانت الفناجين بحجم الكأس التي توضع فيها البيضة، وكان يُعبّأ نصفه فقط، وذلك لأنّ ملء الفنجان هو تلميح بأنّ المضيف ضاق ذرعاً بالضيف ويرغب أن يغادر حالاً، تماماً مثل معنى تقديم الفنجان الثالث بعد الثاني مباشرة.

وبعد ذلك قدّمت النارجيلة لاثنين منّا، كما قدّم الغليون والسجائر، بينما كان دريك

(Drake) يتحدث واصفاً إنجلترا ولندن وسكّة الحديد، بينما أنا كان علي أن أجلس صامتاً، وهذا طبيعي، لأنني لا أعرف اللغة العربيّة.

وقد افترض الشيخ أننا كنّا نبحث عن صلبان بين الآثار وأننا بعد ذلك سندعي ملكية هذه الأماكن، وهو اعتقاد ربما نشأ بسبب الصلبان على عتبات الكنائس الأثرية منذ أيام الصليبيين والبيزنطيين.

وفي حوالي الساعة السابعة غادرنا المنزل وقد صحبنا الشيخ إلى الباب، ودسسنا قطعة من النقود في يد الخادم، وبعد ذلك أرسلنا هديّة من ملح البارود إلى الشيخ.

وبعد عدّة أيام تكرّر هذا المشهد في صانور، وكان مضيفنا هذه المرّة رجلاً صعب القياد يلبس عباءة سوداء، وكان أكثر مهابة، وكانت المعاطف الأرجوانية والصدريّات الخضر التي كانت يرتديها الشباب جعلتهم يبدون شباناً شديدي التأنق ونبلاء (إسبان أو برتغاليين) ولكنهم محليون.

وهذه القرية كانت شديدة القوة، وأنها صمدت مرّة لعدة أيام أمام هجوم القوات النظامية، ولم تستسلم إلاّ بعد أن قام الباشا بقصفها بالمدفعية.

وقد وصف أحد كبار السنّ دخول قذيفة مدفع إلى غرفة كان يخزّن فيها القطن وكيف أنّ هذه الكومة الناعمة تكوّرت على نفسها.

وقد صرح الشيخ العجوز - الذي كان يوماً حاكماً للمنطقة- بمرارة ضدّ الأتراك قائلاً: إنّهم يسرقونني ويجعلونني فقيراً. ثمّ قال: هل على نسائي أن تحمل الحطب وتجلب الماء؟ وهل على أبنائي أن يحرثوا الأرض؟ إنّ الحكومة كانت تتبع السياسة نفسها مع آل جرّار، وهي السياسة التي أزالت حكم الزيدانيين في الشمال وحكم أبو غوش في الجنوب، وبالتأكيد حطمت الروح الوطنية، بينما تخمد أي تمرّد لجميع القوى، ممّا أدّى إلى استمرار الخلافات المحلية بين القرى المتجاورة.

وكانت أكثر النقاط إثارة للانتباه في تصرّفات أبناء هذه الأسرة الرفيعة المحتد، هي توقير كبار السنّ، حتى وجدنا الرجال من ذوي اللحى البيضاء يوقّرون من يكبرهم بعشر سنوات. وقد لاحظنا في جبع أن خطيب القرية وإمامها جلس في مكان أعلى من مضيفنا زعيم القرية بعد أن تناولنا الطعام هناك.

وفي يوم الجمعة، ٣٠ آب ١٨٧٢ غادرنا جبع وتوجهنا إلى جنين.

(٦٥)

رحلة ديلابلانش سنة ١٨٧٣[١]

الحجّ: رحلة إلى مصر وفلسطين وسوريا والقسطنطينية

يقول في وصف الطريق من نابلس إلى الناصرة مروراً بصانور[٢]:

وما هو إلاّ أن لمحنا على الجهة اليسرى مدينة صانور الصغيرة الواقعة فوق تلة مستديرة، وهي بيثوليا القديمة، موطن جوديث، وهذا المكان يتفق تماماً مع الكتاب المقدس: ومن جهة على بعد مسافة صغيرة توجد جبال السامرة حيث أن سكان هذه الجبال كانوا يحتلون المنطقة.

وبالقرب من بيثوليا سهلٌ رائع حيث كانت تقام القدّاسات الأشورية داخل الخيم.

(٦٦)

رحلة وليام شارلز موغان سنة ١٨٧٣

(ألب) البلاد العربية

رحلات في مصر وسيناء والجزيرة العربية والأرض المقدّسة[٣]

يقول في رحلته من القدس إلى دمشق مروراً بصانور[٤]:

"لقد قادنا تتابع التعرجات عبر التلال إلى سهلٍ منبسطٍ فسيح، كان في ما مضى بحيرة، وهو الآن مغطّى بالمحاصيل الغنية ويسمّى هذا السهل بمرج الغُرُق. وحيث أنه لا يوجد تصريفٌ للماء الذي يتجمع فيه من التلال المحيطة في فصل الشتاء، فإنه تتشكل بحيرة تغطي جزءاً من ذلك الحوض الكبير.

وتقف على إحدى القمم الواقعة على الجانب الغربي من السهل أطلال قلعة قديمة، ما زالت في حالة جيّدة، يقال لها صانور، كانت تعود لشيخ قويّ[٥] كان يمارس حكماً إقطاعياً على المناطق المحيطة حتى سنة ١٨٣٠م، حيث تمّ التغلب عليه وإخراجه منها على يد عبد

---

(١) J.C. Delaplanche, Le Pelerin: Voyage En Egypte En Palestine, En Syrie A Smyrne Et A Constantinople, A lIvarot, 1875.

(٢) ص ١٧٨.

(٣) William Charles Maughan, The Alps of Arabia: Travels in Egypt, Sinai, Arabia and the Holy Land (1873), London, 1873.

(٤) ص ٣٠٠-٣٠١.

(٥) يشير إلى الشيخ عبد الله الجرّار.

الله باشا. وما زالت عائلة هذا الشيخ[1] موجودة، حيث أنّ بعض أبنائها قد عادوا ثانية للإقامة في معقلهم القديم، كما أن القلعة تمّ إصلاحها إلى حدّ ما.

وهذا السهل يمتد لعدّة أميال طولاً وينتهي في طرفه الشمالي بسلسلة جبلية صخرية، حيث عبرنا من فوقها وشاهدنا مرج ابن عامر الكبير".

(٦٧)

رحلة كوندر وكيتشنر قبل عام (بحدود) ١٨٧٦

المسح العامّ لغربيّ فلسطين[2]

في حديثهما عن مشاريق الجرّار[3] (عصيرة الحطب، وعنزة، والفندقومية، وجبع، والجديدة، وجربا، وقباطية، وميثلون، ومركة، ومسلية، وصانور، وسيريس، وطلوزة، وياصيد، والزاوية) يقول المؤلّفان في وصف صانور[4]:

قرية صغيرة محصّنة، في موقع قويّ جدّاً، تحرس الممرّ المؤدّي إلى المرج في شرقيها، وتقع القرية على رأس تلّة منعزلة، ويمكن الوصول إليها فقط عن طريق سلسلة صخرية منخفضة إلى الشمال الغربي من السلسلة الرئيسية. وما تزال أجزاء من السور المحيط بها ماثلة للعيان، ويتخذ المكان شكل حصن قديم، وبيوتها عالية ومبنية بإتقان ولاسيّما قصر الشيخ.

وما زالت كرسيّاً لفرع من عائلة جرّار، وقد كان المكان في ما مضى محصّناً، وقد صمد أمام حصار دام ستة أشهر فرضه عليه الجزار باشا ولكن دون أن يتمكن من أخذه. وفي سنة ١٨٣٠ تمّ أخذ القلعة من قبل عبد الله باشا بعد ثلاثة أو أربعة أشهر من الحصار، وذلك لأنّ شيخ القلعة قد حذا حذو ظاهر العمر في إعلان نفسه مستقلاً.

وقد تمّ تدمير المكان بسبب قصفه سنة ١٨٤٠ حيث قام إبراهيم باشا بتدميره.

وهذا الحصن الذي بناه آل جرّار لم يتمّ إصلاحه، ولكنّ المكان الآن مأهول ويسكنه نحو مائتين إلى ثلاثمائة نسمة.

ويقول عن قرية جبع[5]:

---

(١) يقصد عائلة الجرّار.

(٢) C.R. Conder, H.H. Kitchener, The Survey of Western Palestine, Vol. II, Samaria, Ed. Palmer and Walter Besant, The Committee of the Palestine Exploration Fund, London, 1882، أمّا كيتشنر فهو هوراتيو هربرت كيتشنر (Horatio Herbert Kitchener) ولد سنة ١٨٥٠ في بريطانيا، والتحق بالأكاديمية العسكرية الملكية سنة ١٨٧١، وأعير إلى صندوق استكشاف فلسطين في ١٨٧٤، وكان معه الليفتنانت كوندر، وعين في سنة ١٩١١ قنصلاً عامّاً لبريطانيا في مصر، وتوفي ١٩١٦.

(٣) ص ١٥٥- ١٥٨.

(٤) ص ١٥٧.

(٥) ص ١٥٥- ١٥٦.

"قريةٌ أنيقة على سفح إحدى التلال، بيوتها مبنية من الحجر بإتقان و هي محاطة ببساتين الزيتون البديعة، وفيها عدّة عيون ماء، وقد نصبنا خيمتنا إلى الغرب من القرية على أرض زراعية مفتوحة، قريبة من أحد الآبار التي يوجد عندها شادوف أو دلو لاغتراف الماء. وبالقرب منّا طين فخّاري ومصنعٌ للخزف في القرية.

ويعدّ هذا المكان كرسيّ (أو مقرّ حكم) عائلة جرّار الشهيرة، الذين كانوا ذات يوم حكّام هذه الناحية. ومن الواضح أنها موقع قديم، فهناك في شرقيِ القرية قبرٌ من الصخر المقطوع. ويبدو أنّ هذا المكان هو جبع التي تبعد ستة عشر ميلاً إلى الشرق من قيسارية (جاباثون)، مع أنّ المسافة ليست دقيقة، ولعلها أيضاً جبع المذكورة في كتاب جوديث".

(٦٨)

رحلة هنري كولمان في أيّار ١٨٨٠

ضوءٌ من الشرق[١]

يقول في وصف الطريق من نابلس إلى طبريا في السابع والعشرين والثامن والعشرين من أيّار ١٨٨٠م[٢]:

"وتقع صانور على إحدى التلال، وهي مكان رومانسي إلى اليمين من سانوتا (Sanuta). ويزرع فيها التبغ، وهو أقدم إرسالية أمريكية إلى الأرض المقدّسة، وهو ذو منشأ أمريكي وجرى تقديمه للقارات في وقت مبكر بعد عام ١٤٩٢، حيث عمل على الحطّ من قدر أهالي الأرض المقدّسة المتوترين والمنفعلين وأوصلهم إلى درجة عميقة من الخمول أكثر من أيّة وسائل أخرى".

---

(١) Henry R. Coleman, Light from the East, 1881, 2 parts, Breinigsville, USA, 2010.

(٢) ص ٢٩٠- ٢٩١.

رحلة الكولونيل سير تشارلز ويلسون ١٨٨١[١]

مناظر من فلسطين وسيناء ومصر[٢]

يقول عن الرحلة من نابلس إلى جنين:

وبعد مغادرة سبسطية فإننا نسافر باتجاه الشمال عبر أوديةٍ وتلالٍ شديدة الانحدار مارّين بالقرب من قرىً عديدة التي تمثل صانور، بقلعتها وبيوتها العنقودية المتلاصقة المقامة على قمة صخرية، الأكثر روعة.

---

(١) Colonel Sir Charles W. Wilson, Picturesque Palestine, Sinai and Egypt, 4 Vols., 1881 London

(٢) ٢: ٢١.

رحلة لورنس أوليفانت [*] ١٨٨٢

بعنوان حيفا أو الحياة في فلسطين الحديثة[**]

يقول في رحلته من نابلس إلى جنين مروراً بالفندقومية وجبع وصانور، وذلك في رسالته التي كتبها من حيفا في ٣ تشرين الثاني ١٨٨٢ (١):

"ثمّ هبطنا نحو بساتين قرية الفندقومية حيث يوجد كهف نادر يستحق الزيارة يحتوي على تجويفين يوجد قبلهما كتلة حجرية متصلة بهما تشبه مذبح الكنيسة. ولعلها تكون معبداً قديماً منحوتاً في الصخر.

وقريباً من هذه القرية توجد قرية أخرى تدعى جبع كنت أتوق لزيارتها، وقد تلقيت دعوة لزيارتها من الشيخ(٢) الذي يعيش هناك، وهو من أكثر شيوخ البلاد غنىً وقوة. وقد دعاني أثناء وجودي في حيفا. إنّ هذا الشيخ يمثل عائلة جرّار العظيمة، التي كانت ذات زمن تحكم هذه المنطقة حكماً مستقلاً متحدّية الحكومة التركية، وفارضة الضرائب على السكان، في الوقت الذي كانت فيه على عداءٍ دائم مع عائلات منافسة كانت بدورها تقيم حكماً محليّاً في مناطق أخرى من البلاد.

وقد تمّ القضاء على هذا الوضع خلال الحكم المصري للبلاد على يد إبراهيم باشا. وعندما أعيدت البلاد إلى الحكم التركي نتيجة التدخل البريطاني مضت الحكومة التركية في محاولة منع عودة ذلك الوضع مستخدمة بذلك القوّة في كثير من الأحيان.

ولذلك فإنّ أكثر من شيخ من هؤلاء الشيوخ المحليين يستطيع أن يشير لك إلى ثغرة في جدار بيته سببها قذائف المدفعية التركية.

وبعض هؤلاء الشيوخ متأثرون بدرجات متفاوتة بالحضارة الجديدة، ويجدون أن من الممكن أن ينافسوا المسؤولين بنجاح في نهب الفلاحين، ولذلك فإنهم يقيمون صداقات مع هؤلاء الفلاّحين إمّا لمقاسمتهم وإمّا للحصول على مساعدتهم في جني المحاصيل.

وبجوار هذه القرية هنالك مرجٌ يقال له: مرج الغُرُق، لأنه في معظم أوقات السنة يكون مستنقعاً ولا محاصيل فيه، وعندما يجفّ فإنّ آلاف الهكتارات تصبح صالحة للزراعة. وقبل مدّة ليست بعيدة سألني أحدهم بخصوص إمكانية تصريف هذه المياه، حتى إن بعض

(*) مؤلف كتاب أرض جلعاد وكتب أخرى، وقد ولد في كيبتاون في سنة ١٨٢٩، وعمل في واشنطن وكندا والصين، ثمّ ذهب إلى الهند. ثمّ عاد إلى إنجلترا، وأصبح نائباً في البرلمان، لكنه ترك البرلمان بعد ذلك وكتب رواية هجائية عنوانها: بيكاديللي. في عام ١٨٨٢ أنشأ هو وزوجته جمعية للمهاجرين اليهود في حيفا. وتوفي في بريطانيا سنة ١٨٨٨.

(**) Laurence Oliphant, Haifa or Life in Modern Palestine, William Blackwood and Sons, Edinburgh and London, 1887 والكتاب عبارة عن رسائل كتب بها إلى جريدة نيويورك صن يصف فيها رحلته في فلسطين سنة ١٨٨٢.

(١) ٣٦١- ٣٦٣.

(٢) كان شيخ جبع في هذه المدّة الشيخ محمد الداود الجرّار.

المهندسين ذهب إلى أبعد من ذلك عندما قام بتقدير تكاليف هذه العملية. وعلى الرغم من أنّ المبلغ المقدّر لذلك كان متواضعاً إلاّ أنه يبقى أكثر من أن يغامر به أصحاب رؤوس الأموال. لكن الحقيقة الساطعة في كونهم يمكن أن يستمتعوا بمثل هذه الفكرة كانت دليلاً ناصعاً على التقدم من جهة هؤلاء الرجال الذين يعتمدون على جيوب جيرانهم فقط وهم يفكرون بتصريف المياه.

وعلى الرغم من أنني كنت سأقابل أشخاصاً رائعين من الزعامات الوطنية، إلاّ أنني وجدت بأن توقفي في جبع قد استغرق منّي يوماً، ولذلك قررت أن أمضي في طريقي دون أن أسمح للشيخ أن يشك في قربي من مقرّ ضيافته، فمشيت في ممرّات جانبية بدلاً من سلوك الطريق المستخدمة إلى جنين (واسمها القديم إنجانين Engannin**) أي ربيع البساتين. ومنها وفي رحلة ليوم واحد عبر مرج ابن عامر، وصلت إلى حيفا.**

(٧١)

رحلة بيرداغوير خاثِنْت سنة ١٨٨٦[١]

يوميّات رحلة حاجّ إلى الأرض المقدّسة[٢]

يقول في وصف مروره بصانور قادماً إليها من سبسطية[٣]:

"بيثوليا (صانور) تقع على قمّة تلة دائريةٍ منعزلة وسط أحد السهول المتّصلة بسلسلةٍ من الجبال الصغيرة. وقد كانت البلدة محاطة بأسوار جميلة كان عبد الله باشا قد هدمها، وما زالت بقايا هذه الأسوار تزيّن بعض أبراج القلعة.

وقد كانت صانور تتمتع بموقع إستراتيجي هامّ، وكان من الصعب هزيمتها في ذلك الوقت، حيث إن أسوارها العالية كانت تحول دون تقدّم الجيوش المهاجمة، وتجعل من هذا التقدّم أمراً شاقاً يستغرق وقتاً طويلاً، وهو ما كان يساعد سكانها على الدفاع عن أنفسهم باستخدام الحجارة بكلّ بساطة ضدّ من كان يحاصرهم.

أمّا مرج صانور الأخضر فإنه واسع جدّاً، ولا يوجد فيه أثر لأي شجرة يمكن الاستظلال بها من أشعة الشمس اللاهبة هنا، ومن المعروف أنّ الجميلة جوديث Judith قد ماتت جراء تعرّضها لضربة شمس في هذا السهل".

---

(١) رحّالة إسباني من قطالونيا(١٨٤٥-١٩٠٢)، وهو شاعر قطالوني مشهور، وقد لقّبه مطران قطالونيا بلقب أمير شعراء قطالونيا. وكان في الوقت نفسه قسيساً. وقد نشر العديد من أعماله ومنها رحلته إلى الأراضي المقدّسة.

(٢) Verdaguer Jacint, Dietari d'un Pelegri a Terra Santa, Catalan Edition.

(٣) ترجم هذا النصّ الدكتور مؤيد شرّاب.

(٧٢)

رحلة شارلز دنت بل قبل ١٨٨٧م[١]

ملتقطات من رحلة إلى فلسطين والشرق[٢]

يقول في وصف الطريق من نابلس إلى الناصرة مروراً بصانور[٣]:

"ثمّ ركبنا عبر جبع وقباطية إلى حصن تلّة صانور، و هي بقعة تكتسب أهميتها من موقعها على مرتفع صخريّ، و من صلتها بالبطلة جوديث التي، حسب الرواية الواردة في كتاب أبوكريفال، ذبحت هولوفيرنس عندما كان محاصراً بيثوليا، المدينة التي لا يعرف موقعها إلى الآن.

ومن تلّة صانور شاهدنا جبل الشيخ و هو مغطّى بالثلج المتألّق، والذي يشمخ بعظمة فوق سائر التلال إلى ارتفاع تسعة آلاف قدم.

وهنا أيضاً و في أثناء هبوطنا من التلّة التقينا مع مجموعة من البدو ذوي النظرات الحادّة يحملون البنادق والسيوف والرماح الطويلة معلقة بظهورهم، وبرجالٍ ذوي نظرات رقيقة حسب عادتهم في بلدهم، وقد ألقوا علينا تحية هادئة رقيقة".

(٧٣)

رحلة جون كننغهام جيكي قبل ١٨٨٧

الأرض المقدسة والإنجيل[٤]

يقول في وصف الطريق من برقة إلى جبع ثمّ صانور[٥]:

"ولبعض الوقت كانت التلال التي مررنا بها مغطّاةً بأشجار الزيتون، وكانت سيقان بعضها تدلّ على أنّها قديمة جداً، وربما ترجع إلى قرونٍ سابقة.

---

(١) رحّالة بريطاني.

(٢) Charles Dent Bell, Gleanings from a Tour in Palestine and the East, London, 1887، وقد حمل الكتاب من الداخل عنوان: Three Months' Tour in Palestine

(٣) ص ١٥٧-١٥٨.

(٤) John Cunningham Geikie, The Holy Land and the Bible, 2 vols, London, 1887

(٥) ٢/٢٤٤.

ومضينا صعوداً وهبوطاً في الطريق التي قادتنا إلى جبع، وهي قرية مبنيّة جيّداً بالحجارة على جانب إحدى التلال، وترتفع المنازل فيها صفّاً فوق صفّ، بحيث تبدو أسطح المنازل في الصف السفلي كما لو أنّها طريق معبّدة يراها من هو في الصف العلوي. وتقع هذه القرية وسط عدد كبير لا يحصى من أشجار الزيتون مع تلالٍ تحيط بها من جميع الجهات، ما عدا الجهة الشمالية الشرقية، حيث يوجد وادٍ عريض مغطّى بالنباتات الحقلية.

أمّا قرية صانور فهي القرية التالية في هذه الرحلة، وهي مكانٌ منيع يقع على تلة صخرية شديدة الانحدار، تحرسُ مدخل السهل الكبير المعروف ب"مرج الغُرق"، وهذا المرج يتحول في شهري أيار وحزيران إلى مستنقع كبير بسبب عدم وجود تصريف طبيعي لمياهه، ولذلك ترى الرجال والنساء والأطفال في الحقول الخضراء يقومون بتعشيب الحقول من النباتات غير المفيدة، ثمّ يقومون بنقل العشب إلى منازلهم لاستخدامه علفاً لمواشيهم، بينما تجمع بعض الأعشاب في حزم ويتم حرقُها.

إنّ تلّة صانور شديدة الانحدار من جهة الشرق، ولكن من الجهة الغربية فإنها تنحدر تدريجياً نحو التلال الواقعة في ذلك الاتجاه. ويوجد على رأس تلك التلّة حصن صغير يتوجها، وأسوار حجرية مقامة بمحاذاة المنحدر خارج المنازل، وللقرية مدخل واحد فقط.

ولا توجد إلاّ بوابّة واحدة تشكّل مدخلاً للقلعة. وعلى قمة المرتفع البطيء الذي يمرّ من خلال كروم العنب والزيتون والتين وحقول الحبوب توجد عين ماء تنبع من تحت أحد الأقواس، ويذهب بعض هذا الماء سدىً إلى أسفل التلّة".

وقد رأيت عدداً من النساء مشغولة بتنظيف الكتّان باستخدام مطارق خشبية، بينما كان بعضهنّ الآخر يقوم بجلب الماء، وكان بعضهنّ يمرّ بجانبنا وهنّ يحملن جرار الماء على أكتافهنّ أو رؤوسهنّ. كما شاهدنا قافلة من الجمال وعلى ظهورها أحمال كبيرة على كلا الجانبين وقد كانت تمشي ببطء في أسفل التلّة خلفنا، وقد ملأت الطريق التي كان الماء قد غسلها بخشونة بالغة، على الرغم من أنّه هنا وهناك يوجد رصيف روماني ما زال صالحاً للاستخدام ولهذا السبب كان هناك طريق روماني قديم.

(٧٤)

رحلة دي. إن. ريتشاردسون سنة ١٨٨٨

رحلة حول الأرض[١]

يقول في انتقاله من نابلس إلى جنين مروراً بعرّابة وصانور[٢]:

"إنّ الليلة التي قضيناها في عين جنين، الواقعة على الحدود الخارجية لمرج ابن عامر الكبير، جاءت بعد مرورنا بقلعة صانور المتمردة وآثار بيثار، حيث كنا قد تناولنا طعام الغداء

---

(١) D.N. Richardson, A Girdle Round the Earth, Chicago, A.C. McClurg Company, 1888

(٢) ص ٢٧٤.

تحت أشجار الزيتون، وقمنا بمساعدة أحد الفلاحين بحراثة أرضه. لقد ظنّ الفلاّح الذي كان يحرث أننا كنّا نمزح معه عندما أمسكنا بمقبض المحراث ونحينا الرجل جانباً وأمرناه أن يدفع ثيران الحراثة إلى الأمام. ولكن فضوله غلب عليه لمعرفة ما يجري إلى أن انتهينا من مساعدته في الحرث. لقد كان ثلثا الأرض تقريباً حجارة وأشبه ما تكون بالطريق المرصوفة بالحصى، إلاّ أن التربة تحتها كانت ناعمة وخصبة، واستطعنا عن طريق المحراث الخشبي أن ننجز عملاً جيداً.

لقد كان ذلك المزارع العربي وابنه مذهولين حقاً لكون الخواجة طيّباً جدّاً بحيث يأخذ المحراث بيده ويحرث. ولمّا رأى أننا مزارعون حقيقيون فقد سرّ لذلك كثيراً، وأخذ يحدثنا عن هذه الأرض التي يملكها كم هي خصبة، وكم له من الأولاد، وكم تساوي أرضه. وقد مازحناه حول محراثه، وفشلنا في مساومته حول سعر الثورين-اللذين يبلغ عمرهما سنتين ويبدوان قويين-، وقد طلب أربعين دولاراً ثمناً لهما".

(٧٥)

رحلة إلفنستون غرانت دُفّ ١٨٨٨[١]

ملاحظات من يوميّات ١٨٨٦ -١٨٨٨[٢]

يصف طريقه من جنين إلى نابلس مروراً بصانور[٣]:

"وخلف التلال من جهة الشمال، ولكن ليس على مسافة بعيدة إلاّ أنها ليست على مرأى منّا، توجد قريتا صانور وميثيليا، وقد تمّ تحديد كليهما بشكل قابل للتصديق، على أنها بيثوليا التي وقعت بها القصة الرومانسية الشهيرة لجوديث".

(٧٦)

رحلة غروم سنة ١٨٩١

تجوال الجنوبيّ في ثلاث قارّات[٤]

يقول في وصف رحلته من القدس إلى الناصرة مروراً بجبع وصانور[٥]:

"وبعد أن غادرنا هذه المدينة المهجورة مررنا بمروج خلاّبة، حيث تعشش على كلّ جانب من جانبي الطريق عند أقدام التلال بلداتٌ تبدو جميلة من مسافة بعيدة، حيث أن الظروف هنا في خدمة القرى المسلمة.

وقد مررنا بقرية من هذه القرى يقال لها جبع، حيث خرج الأطفال وساروا وراءنا وهم يصرخون بنا "انصرف" "اذهب عنّا" "أنتم كفّار": سوف تذهبون جميعكم إلى النار" "ربّنا لا يطوّل أعماركم" "أنتم نصارى".. إلى آخره.

وقد التقينا مع قافلة أخرى كبيرة لتجار دمشق متجهين إلى يافا أو مصر.

ثمّ مررنا بصانور على تلّة عالية وعلى حصنها الأخير الذي أخضعه إبراهيم باشا عندما اجتاح هذه البلاد".

---

(١) غرانت دُفّ (١٨٢٩ – ١٩٠٦) سياسيّ اسكتلاندي ومؤلّف وعمل نائب وزير لشؤون الهند ثمّ لشؤون المستعمرات ثمّ حاكماً لمدراس. وكان قد تخرج في اكسفورد. وقد قام برحلات عديدة.

(٢) Mountstuart Elphinstone Grant Duff, Notes from a Diary 1886-1888, London, 1900.

(٣) ص ٥٥.

(٤) P.L. Groome, Rambles of a Southerner in Three Continents, Greensboro, 1891.

(٥) ص ١٧٩- ١٨٠.



(٧٧)

دليل ماكميلان ١٩٠١[١]

المرشد إلى فلسطين ومصر[٢]

يقول في وصف صانور قادماً من سيلة الظهر والفندقومية وجبع[٣]:

"وبعد هذا المكان (الفندقومية) تقع جبع المذكورة في كتاب جوديث (Book of Judith**) بوصفها المكان الذي نصب فيه هولوفيرنس معسكره. وعلى مسافة أبعد من هذا المكان، وبعيداً عن المشاهدة، وعلى مَرْج الغُرُق (الذي سمّي بذلك لأنه يغطّى بالماء كاملاً خلال فصل الشتاء) يقف حصن قلعة صانور القديمة، وهي معقل عائلة من نبلاء سوريا العظام في وقت متقدّم من القرن التاسع عشر، وقد وصفها بعضهم بأنّها بيثوليا، الحصن الرئيسي لبني إسرائيل في تلك المنطقة ومسرح الأحداث الدراماتيكية المشهورة المتصلة بقصة جوديث وهولوفيرنس".**

(٧٨)

رحلة جودريش فرير ١٩٠٣[*]

رحلة عبر سورية

يقول[٤]:

"وغادرنا سبسطية، ونحن نودّ لو كان الوقت يسمح لنا بإطالة المقام فيها، وسرنا في طريق حافلة بالمشاهد الجميلة باتجاه الشمال الشرقي. وبعد أن مررنا بقرية جبع شاهدنا على مقربة قرية صانور، وفيها قلعة كان باشا عكّا الظالم قد هدمها بعد أن قاوم القرويون حصار جنوده، ولابدّ أن شجاعة أولئك القرويين أثارت في نفس ذلك الباشا مشاعر الحقد حتى أقدم على هدم تحصينات القلعة، وكان ذلك عملاً دالاً على الجبن".

---

(١) أسست دار نشر ماكميلان سنة ١٨٤٣ على يد دانييل وألكساندر ماكميلان من اسكوتلاندة. وقد عنيت هذه الدار بنشر أعمال كبار المؤلفين العالميين، وأصبح لها فروع متخصصة.

(٢) Macmillan, and Co , Guide to Palestine and Egypt, New York, Macmillan and Co. Limited, 1901.

(٣) ص ٧٦.

(*) Goodrich- Freer, In a Syrian Saddle, Methuen & Co. London, 1905.

وما ننقله هنا هو من فصل ترجمه سليمان موسى في كتابه في ربوع الأردن من مشاهدات الرحالة (١٨٧٥-١٩٠٥)، منشورات دائرة الثقافة والفنون- عمّان، ١٩٧٤، ص ٢٤٥- ٢٨٠.

(٤) في ربوع الأردن ص ٢٧٠.

(٧٩)

رحلة بْرين[١] سنة ١٩٠٤

يوميّات حياتي في الأرض المقدّسة[٢]

يقول في وصف رحلته من الناصرة إلى نابلس مروراً بصانور وميثيليا[٣]:

"في الثاني والعشرين من أيار استيقظنا في الساعة الخامسة صباحاً، وأخلينا خيامنا، وغادرنا الساعة ٦.٥٢ صباحاً، ثمّ ركبنا باتجاه الجنوب عبر التلال إلى السهل السبخي المعروف بمرج الغرق الذي وصلناه في الساعة ٧.٥٠، وإلى الغرب منّا تقع صانور على رأس تلّة، وهي التي يرى غيرين Guerin أنها بيثوليا. وعلى مسافة أبعد من جهة الجنوب تقع ميثيليا، وهي أيضاً مكان محتمل للمدينة التي كانت بها جوديث.

والمكانان (صانور وبيثيليا) يشرفان على السهل ويسيطران عليه، وكلاهما يمكن أن يكون بيثوليا، إلاّ أنّ موقع بيثوليا ينبغي أن يبقى حدْسيّاً. والآن ركبنا من مرج الغُرق باتجاه سهل السيلة الضيّق الذي يقع باتجاه الجنوب الغربي".

(٨٠)

هنري بيكر ترسترام[٤]

الأماكن المذكورة في الإنجيل: تضاريس الأرض المقدّسة[٥]

يقول عن صانور[٦]:

---

(١) زار المؤلّف الشرق أوّل مرّة سنة ١٨٩٠، وفي سنة ١٩٠٤ زار فلسطين مرّة أخرى، وسكن في المدرسة الإنجيلية في القدس حتى حزيران ١٩٠٥. وتبدأ الرحلة بالخامس عشر من تشرين الأول سنة ١٩٠٤.

(٢) A.E. Breen, A Diary of My Life in the Holy Land, Rochester, New York, 1906.

(٣) ص ٦١٣-٦١٤.

(٤) مرّت ترجمته عند الحديث عن رحلته "أرض إسرائيل".

(٥) H.B. Tristram, Bible Places, The Topography of the Holy Land, London, 1897 .

(٦) ص ٢٤٧.

"وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب الشرقي من عرّابة، توجد صانور، وهي قلعة محصّنة تحصيناً شديداً، إلاّ أنها الآن أصبحت آثاراً، وتقع على تلّة مشرفة. وقد قاوم شيوخ هذه القلعة السلطة التركية طويلاً، وصمدوا خلال هذا القرن أمام حصارين. وبعد أربعة أشهر من الحصار تم الاستيلاء على القلعة سنة ١٨٣٠م.

ويتطابق موقع هذه البلدة مع الوصف الوارد في كتاب جوديث ل "بيثوليا" وبسبب هذه الصفات بالإضافة إلى منعتها الطبيعية فقد تم تحديدها على أنها بيثوليا، ولكن ثمة اعتراضاً وحيداً على اعتبار صانور هي بيثوليا، وذلك أنّ مرج ابن عامر لا تمكن مشاهدته منها. وليس بعيداً عن صانور هناك قرية صغيرة جرى اكتشافها مؤخراً تدعى ميثيليا، أقل بقليل من ثلاثة أميال عن عرّابة (دوثان)، وهي تطلّ على مرج ابن عامر، وربما تكون هي بيثوليا القديمة".

(٨١)

رحلة والتر

جولة والتر في الشرق(١)

يقول المؤلف في وصف رحلة والتر من سبسطية إلى جنين مروراً بصانور(٢):

"لقد تركنا خلفنا كلّ ما وجدناه من سعادة روحية في جبع، ثمّ انطلق ركبُنا باتجاه مرج الغُرُق، وهذا المرج هو حوض يتشكّل من التلال المحيطة، وهو يحتفظ بالماء لمعظم السنة تقريباً، والمناطق المحيطة به جميلةٌ جداً".

---

(١) Daniel C. Eddy, Walter’s Tour in the East, Walter in Samaria, New York, Thomas Crowell & co.

(٢) ص ٦٧.

(٨٢)

مسألتان حول التسلسل الزمني للأحداث التاريخية الشهيرة لأشوربانيبال

تأليف: فيلكس روبيو[١]

يقول في الحديث عن صانور[٢]:

"ذكرت بيثوليا في مواضع مختلفة من كتاب جوديث، حيث ذكر أنها تقع على جبل لا يبعد كثيراً عن دوثان وعلى مقربة من مرج ابن عامر، وتحكم المدخل المؤدي إلى نابلس والقدس.

وبسبب يأسه من السيطرة على المدينة بسبب هذا الجبل فإنّ هولوفيرنس قد سعى للتقليل من حدّة ارتفاعه من خلال تجويع أهله وقطع المياه عنهم، إلاّ أنّه كانت هناك أماكن أخرى شاهقة استطاع الشعب تزويد المنطقة بالمياه منها.

وقد فنّد غيرين أسماء مواقع كثيرة لبيثوليا مثل جبل فريديس جنوب القدس، وصفد، وشمال مرج ابن عامر وبيت إلفا وسفوح جلبوع، إذ لا تسيطر أي منها على أيّ موقع، ولا تعتبر قريبة من دوثان ولا تحتلّ قمّة جبل.

إلاّ أن صانور يمكن أن تكون هي بيثوليا، لأنّ هذه القرية تقع في الحقيقة على جبل صخري ومن الصعب الصعود إليها، كما أنها تقع في محيط تلّ دوثان ومحيط مرج ابن عامر.

وقد كان على هولوفيرنس بعد أن يقطع مرج ابن عامر مروراً إلى نابلس والقدس، كان عليه أن يمرّ على الأقدام عبر القلعة التي تمثل حالياً قرية صانور، لذا فقد اعتقد الجميع أنّها هي المكان الأنسب لبيثوليا المذكورة في كتاب جوديث.

---

(١) Félix Robiou, Deux Questions De Chronologie D'Histoire Eclaircies Par Les Annales D'Assurbanipal, Paris, 1878.

(٢) ص ١٥-١٦.

ملحق صور

-صورة قديمة لصانور

-صور أبراج من القلعة

-صورة نفق أثري في صانور اكتشف حديثاً

-صورة اكتشاف كهوف في صانور

-صورة مرج الغرق (أمطار عام ٢٠١٣)

-صورة مرج الغرق في الصيف



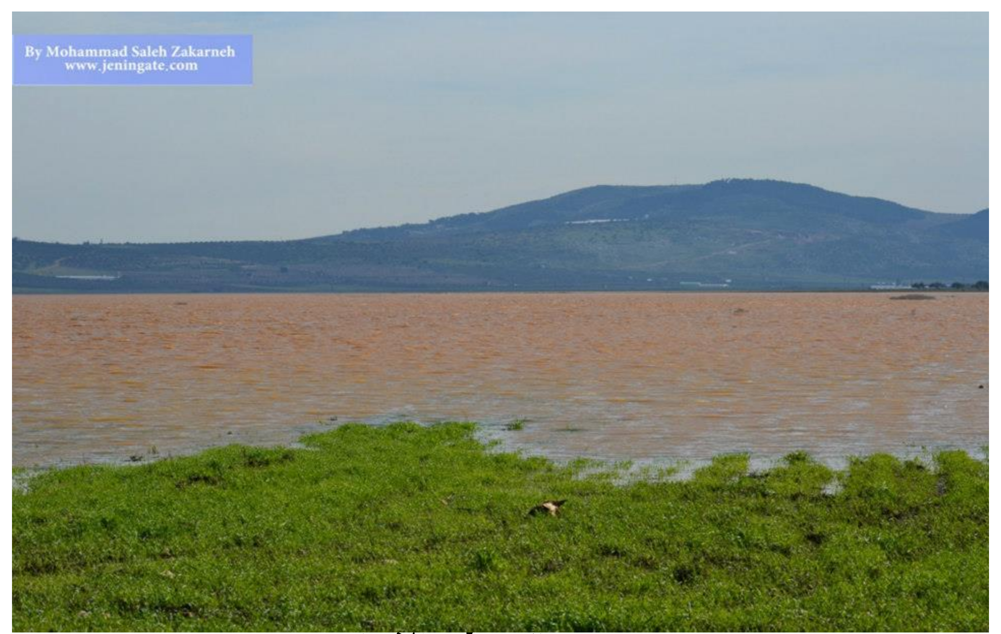
قلعة صانور سنة ١٨٦٧
من ألبوم المصوّر الفرنسي فيلكس بونفيلز (١٨٣١ ـ ١٨٨٥)



أبراج من القلعة



نفق أثري في صانور طوله (٣٠) متراً اكتشف حديثاً



مرج صانور في الشتاء



مرج صانور صيفاً

EDWARD ROBINSON

1794–1863



Edward Robinson



HORATIO HERBERT KITCHENER

1850–1916



Horatio Herbert Kitchener, 1890 (portrait by H. von Herkome)

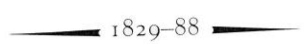
JAMES FINN

1806–72



James Finn

Laurence Oliphant





Laurence Oliphant

Arthur Penhryn Stanley

1815–81



Arthur Penhryn Stanley

James Silk Buckingham

1786–1855



James Silk Buckingham and his wife in oriental dress

Henry Baker Tristram

1822–1906



Henry Baker Tristram

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع بالعربية

١. إبراهيم الدنفي السامري، ظاهر العمر وحكام نابلس (١٧٧١- ١٧٧٣)، تحقيق موسى أبوديّة.
٢. المعلم إبراهيم العورة، تاريخ ولاية سليمان باشا العادل، مطبعة دير المخلص، صيدا، لبنان، ١٩٣٦.
٣. إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، مطبعة النصر التجارية، نابلس، ١٩٦١.
٤. الدكتور أسد رستم، بشير بن السلطان والعزيز (١٨٠٤- ١٨٤١)، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٥٦.
٥. القسّ أسعد منصور، تاريخ الناصرة، دار الهلال، القاهرة، ١٩٢٣.
٦. ألكزاندر شولش، تحوّلات جذرية في فلسطين (١٨٥٦- ١٨٨٢)، ترجمة د. كامل جميل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، عمّان، ط٢، ١٩٩٣.
٧. إلياس ديب مطر، كتاب العقود الدرّية في تاريخ المملكة السوريّة، مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٧٤.
٨. بشارة دوماني، إعادة اكتشاف فلسطين: أهالي جبل نابلس ١٧٠٠- ١٩٠٠، سلسلة المدن الفلسطينية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ١٩٩٨ (ترجمة حسني زينة).
٩. حسن الشهير بابن الصّديق، غرائب البدائع وعجائب الوقائع، قام بدراسته وتحقيقه الدكتور يوسف نعيسة، دار المعرفة، دمشق، ط١، ١٩٨٨.

١٠. جون لويس بيركهارت، رحلات في الديار المقدّسة والنوبة والحجاز، ترجمة فيصل أديب أبو غوش، وزارة الثقافة، عمّان، ٢٠٠٥.
١١. حسني أدهم جرّار، أسرار حملة نابليون على مصر والشام، دار الضياء، عمّان، ١٩٩٠.
١٢. حسني أدهم جرّار، جبل النار... تاريخ وجهاد (١٧٠٠- ١٩٠٠)، دار الضياء، عمّان، ط١، ١٩٩٠.
١٣. الأمير حيدر أحمد شهاب، تاريخ أحمد باشا الجزّار، نشره ووضع مقدّمته: الأب أنطونيوس شبلي والأب أغناطيوس عبده خليفه، مكتبة أنطوان، لبنان.
١٤. الأمير حيدر أحمد الشهابي، لبنان في عهد الأمراء الشهابيّين وهو الجزء الثاني والثالث من كتاب: الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان، عني بضبطه ونشره: الدكتور أسد رستم والدكتور فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت، ١٩٦٩.
١٥. داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم وفتحه الشام ١٨٣٢، المطبعة الرحمانية بمصر.
١٦. رستم باز، مذكّرات رستم باز، حقق نصّها ونشرها: فؤاد أفرام البستاني، منشورات

الجامعة اللبنانية، بيروت، ط٢، ١٩٦٨.
١٧. سليمان أبو عزّ الدين، إبراهيم باشا في سوريا، المطبعة العلمية ليوسف صادر، بيروت، ١٩٢٩.
١٨. سليمان موسى، رحلات في الأردن وفلسطين (المجموعة الثانية)، منشورات دائرة الثقافة والفنون، عمّان، ١٩٨٧.
١٩. سليمان موسى، في ربوع الأردن من مشاهدات الرحّالة (١٨٧٥- ١٩٠٥)، منشورات دائرة الثقافة والفنون، عمّان، ١٩٧٤.
٢٠. صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، أعيان العصر وأعوان النصر، حققه الدكتور علي أبو زيد وآخرون، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، ط١، ١٩٩٨.
٢١. الشيخ طنّوس الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، حققه الدكتور مارون رعد، دار نظير عبّود، لبنان، ١٩٩٥.
٢٢. عادل منّاع، أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني (١٩٠٠- ١٩١٨)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط٣، ١٩٩٧.
٢٣. عادل منّاع، تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني (١٧٠٠-١٩١٨) (قراءة جديدة)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ١٩٩٩.
٢٤. الشيخ عبد الرزاق البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، حققه محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٦٣.
٢٥. عبد الهادي جرّار، تاريخ ما أهمله التاريخ، دار الجليل للنشر، عمّان، ط١، ١٩٨٨.
٢٦. عبلة سعيد المهتدي، سجل محكمة القدس الشرعية، فهرسة تحليلة، قيود الوثائق والحجج الشرعية الصادرة عن محكمة القدس الشرعية، إشراف أ.د. محمد عدنان البخيت، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٩.
٢٧. عزّتلو إسكندر بك أبكاريوس، المناقب الإبراهيمية والمآثر الخديوية، مطبعة حمص، ١٩١٠.
٢٨. عبوّد الصبّاغ، الروض الزاهر في تاريخ ظاهر، تحقيق الدكتور محمد عبد الكريم محافظة والدكتور عصام مصطفى هزايمة، دار الكندي للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط١، ١٩٩٩.

٢٩. عبّود الصبّاغ، الروض الزاهر في تاريخ ضاهر، مخطوط في مكتبة الجامعة الأردنية.
٣٠. عيسى إسكندر معلوف، مجلة الآثار، السنة الرابعة، كانون الثاني، ١٩٢٧، رحلة لبنان.
٣١. فيليب وفريد الخازن (تعريب)، مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٩١٠، ط دار نظير عبود، لبنان.
٣٢. كرنيليوس فنديك الأميركاني، كتاب المرآة الوضيّة في الكرة الأرضيّة، (ألفه سنة ١٨٥٢م)، ط٢، بيروت، ١٨٧٠.
٣٣. محمد بن عبد الوهاب المكناسي، رحلة المكناسي: إحراز المعلّى والرقيب في حجّ بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب ١٧٨٥، حققها وقدم لها محمد بوكبوط، دار السويدي للنشر والتوزيع/ أبو ظبي، والمؤسسة العربية

للدراسات والنشر/ بيروت، ٢٠٠٣.
٣٤. محمد عزّت دروزة، العرب والعروبة في حقبة التقلب التركي من القرن الثالث إلى القرن الرابع عشر الهجري، الجزء الخامس، منشورات المطبعة العصرية، صيدا، لبنان، ط٢، ١٩٨١.
٣٥. مصطفى العبّاسي، تاريخ آل طوقان في جبل نابلس، مطبعة دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر، شفا عمرو، ١٩٩٠.
٣٦. مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين: في الديار النابلسية، ٢ج، مطبوعات رابطة الجامعيين بمحافظة الخليل، ط٢، ١٩٨٥.
٣٧. مصطفى مراد الدباغ، القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٩.

٣٨. ميخائيل الدمشقي، تاريخ حوادث جرت بالشام وسواحل برّ الشام والجبل (١٧٨٢-١٨٤١)، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد عبد الكريم محافظة، ورد للنشر والتوزيع، عمّان، ط١، ٢٠٠٤.
٣٩. ميخائيل الصبّاغ، تاريخ ظاهر العمر، مخطوط بمكتبة الجامعة الأردنية.
٤٠. الدكتور ميخائيل مشاقه، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، حققه الدكتور أسد رستم وصب
٤١. حي أبو شقرا، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، مديرية الآثار، بيروت، لبنان، ١٩٥٥.
٤٢. نعمان أفندي قساطلي، كتاب الروضة الغنّاء في دمشق الفيحاء، بيروت، ١٨٩٧.
٤٣. نوفل بن نعمة الله نوفل الطرابلسي، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبرّ الشام، أوجزه: جرجي ينّي، حققه: ميشال أبي فاضل و الدكتور جان نخّول، ط جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٩٠.
٤٤. نوفل بن نعمة الله بن نوفل الطرابلسي، كشف اللثام (مخطوط مصوّر في مكتبة الجامعة الأردنية).
٤٥. يوسف الدبس، الجزء الرابع من تاريخ سورية، المجلد الثامن، المطبعة العمومية، بيروت، ١٩٠٥.
٤٦. مؤرّخ مجهول، حروب إبراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول، علّق حواشيها الدكتور أسد رستم.

المصادر والمراجع الأجنبية

1. **Anderson,** John, Wanderings in the Land of Israel and Through the Wilderness of Sinai in 1850 and 1851, Published by William Collins, Glasgow and London.
2. ***Bartlett,*** William Henry, Footsteps of Our Lord and His Apostles in Syria, Greece and Italy, London, Arthur Hall, 1851.
3. ***Beamont,*** William, A Diary of a Journey to the East in the Autumn, 1854, 2Vols., Longman, London, 1856.

4. ***Beaufort,*** Emily A., Egyptian Sepulchres and Syrian Shrines, including some stay in the Lebanon, at Palmyra and in Western Turkey, 2 vols., Longman, London, 1862.
5. **Bell,** Charles Dent, Gleanings from a Tour in Palestine and the East, London, Three Months' Tour in Palestine, 1887.
6. ***Blondel***, Edouard, Deux Ans En Syrie et En Palestine (1838- 1839), Paris, 1840.
7. ***Bonar,*** Andrew Alexander, Narrative of a Visit to the Holy Land: and, Mission of Inquiry to the Jews, William Oliphant, Edinburgh.
8. **Bonar,** Horatius, The Land of Promise: Notes of a Spring- Journey from Beersheeba to Sidon, London, James Nisbet, 1858.
9. **Bost,** Jean- Augustin, Souvenirs d'Orient: Damas, Jerusalem Le Caire, Paris, 1875.
10. ***Bovet,*** Felix, Egypt, Palestine and Phoenicia: A Visit to Sacred Lands, London, 1882.
11. **Breen,** A.E. A Diary of My Life in the Holy Land, Rochester, NewYork, 1906.
12. **Browne,** J. Ross; Yusef or; The Journey of the Frangi: A Crusade in the East, NewYork, 1853.
13. ***Browne***, William G., Travels in Africa, Egypt and Syria from the Year 1792 to 1798, Longman, London, 1799.
14. ***Buckingham***, James Silk, Travels in Palestine through the Countries of Bashan and the Gilead East of the River Jordan, 2 Vols. London, Longman, 1822.
15. ***Burt***, N.C., The Far East, or Letters from Egypt, Palestine and Other Lands of the Orient, Cincinnati, R.W. Carroll and Co., 1868.
16. **Busch,** Moritz, Eine Wallfhart nach Jerusalem, Bilder Ohne Hieligenscheine, Leipzig, 1881.
17. ***Caroline***, Queen, Voyages and Travels of Her Majesty Caroline Queen of Great Britain, by One of Her Majesty's Suite, Jones and Co., London, 1821.
18. **Church,** The Church of England Magazine, Vol. 39, July to December 1855.
19. ***Churton***, H.B. Withaker, Thoughts of the Land of the Morning: a Record of the Visits to Palestine, 2nd Edition, London, 1852.
20. ***Clarke***, Edward Daniel, Travels in the Holy Land, Philadelphia, 1817.
21. ***Conder***, Claude Reinier, Tent Work in Palestine, London, Alexander Press, Watt, 1889.
22. **Crosby,** Howard, Lands of the Moslem: a Narrative of Oriental Travel, NewYork, 1851.
23. **Dehon,** Pe. Leào, Memórias (Notes sur l'histoire de ma vie), vol. 2, Agosto 1864 - Outubro 1865.
24. ***Delaplanche***, J.C., Le Pelerin: Voyage En Egypt En Palestine, En Syrie a Smyrne Et a Constantinople, A IIvarot, 1875.
25. **Dorr,** Benjamin, Notes of Travel in Egypt, The Holy Land, Turkey and Greece, Philadephia, 1856.

26. **Eddy,** Daniel C., Walter's Tour in the East, Walter in Samaria, NewYork, Thomas Crowell & Co.
27. ***Freer***, Goodrich-, In a Syrian Sadle, Methuen & Co., London, 1905.
28. ***Finn***, James, Byways in Palestine, London, 1867.
29. ***Finn***, James M.R.A.S, Stirring Times, or Record from Jerusalem Consular Chronicles of 1853 to 1856, 2 Vols., C. Degan Paul & Co., London, 1878.
30. **Gasparin,** Agénor de, Journal D'un Voyage Au Levant, Paris, 1850.
31. **Geikie,** John Cunningham, The Holy Land and the Bible, 2 vols., London, 1887.
32. **Groome,** P.L., Rambles of a Southerner in Three Continents, Greensboro, 1891.
33. **Guinaumont,** Henri de, La Terre Sainte, Paris, 1867.
34. ***Guerin***, Victor Honore, Description Geographique, Historique et Archeologique de la Palestine, 1868.
35. **Harman,** Henry M., a Journey to Egypt and the Holy Land in 1869-1870, Philadelphia, J.B. Lippincott & Co., 1873.
36. ***Harris***, Jessup Henry, Fifty Three Years in Syria, 2 Vols. London and Edinburgh.
37. **Jacint,** Verdaguer, Dietari d'un Pelegri a Terra Santa, Catalan Edition.
38. **Journal of a deputation sent to the East,** by the Committee of the Malta Protestant College, in 1849, by a member of the committee, London, 1855.
39. **Jowett,** William, Christian Researches in Syria and Palestine in 1823, 1824, NewYork, Thomas George, 1836.
40. ***Kelly***, Walter Keating, Syria and the Holy Land: Their Scenery and Their People, London, Chapman and Hall, 1844.
41. ***Kitchener H.H.,*** Conder, C.R, The Survey of Western Palestine, Vol. 2, Ed. Palmer and Walter Besant, The Committee of the Palestine Exploration Fund, London, 1882.
42. **Macmillan,** and Co., Guide to Palestine and Egypt, NewYork, Macmillan and Co. Limited, 1901.
43. **Madox,** John, Excursions in the Holy Land, Egypt, Nubia, Syria & c., 2 vols., London, 1834.
44. **Maughan,** William Charles, The Alps of Arabia: Travels in Egypt, Sinai, Arabia and the Holy Land (1873), London, 1873.
45. ***Michaud***, M, et Pujoulat M., Correspondance d' Orient 1830- 1831, Paris, 1834.
46. ***Mislin***, M., Les Saints Lieux: Pélerinage a Jerusalem, 1851.
47. **Mitford,** Edward L., A Land March from England to Ceylon, Forty Years Ago, London, 1884.
48. **Monk,** Charles James, The Golden Horn and Sketches in Asia Minor, Egypt, Syria, and Hauraan, 2 vols., London, 1851.
49. ***Monro,*** Vere, A Summer Ramble in Syria, 2 Vols. Richard Benthley, London, 1835.
50. ***Murray***, (Firm) John (Firm), Josias Leslie Porter, a Handbook for Travelers in

Syria and Palestine, Part 2, London, John Murray, 1868.

51. ***Olin***, Stephen, Travels in Egypt, Arabia Petraea and Holy Land, 2 Vols. Happer and Brothers Publisher, New York, 1860.
52. ***Oliphant***, Laurence, Haifa or Life in Modern Palestine, William Blackwood and Sons, Edinburgh and London, 1887.
53. ***Osband***, Linda, Famous Travellers to the Holy Land, Prion, London, 1989.
54. ***Phelps***, Dr. Sylvanus Dryden, Holy Land with Glimpse of Europe and Egypt: A year's Tour, New York, Sheldon and Co., 1863.
55. ***Philipp***, Thomas, Acre, The Rise and Fall of a Palestinian City 1730- 1831, Columbia University Press, New York, 2001.
56. **Pierre,** L'abbe, Constantinople, Jerusalem et Rome, Paris, 1860.
57. ***Polk***, William R., The Opening of South Lebanon 1788- 1840, Harvard University Press, 1963.
58. ***Porter***, Josias, The Modern Traveller, a Popular Description of the Various Countries of the Globe: Palestine, London, 1824.
59. **Poujade,** Eugéne, Le Liban et La Syrie 1845-1860, Paris, 1860.
60. **Poujoulat,** M. Baptistin, Trésor Historique et Littéraire, Voyage Constantinople Dans L'Asie Mineure, En Mésopotamie, A Palmyre, en Syrie, en Palestine et en Egypte, Bruxelles, 1841.
61. **Richardson,** D.N., A Girdle Round the Earth, Chicago, A.C. McClurg Company, 1888.
62. ***Richardson***, Robert, Travels along the Mediterranean and Parts Adjacent, in company with the Earl of Belmore, 2 Vols., London, 1822.
63. **Ritter,** Carl, The Comparative Geography of Palestine and the Sinaitic Peninsula, NewYork, 1866.
64. ***Robinson***, Edward, Eli Smith, Biblical Researches in Palestine, Mount Sinai and Arabia Petraea, 3 Vols., a Journal of Travels in the Year 1838, London, 1841.
65. **Robiou,** Félix, Deux Questions De Chronologie D'Histoire Eclaircies Par Les Annales D'Assurbanipal, Paris, 1878.
66. ***Rogers***, Mary Eliza, Domestic Life in Palestine, Cincinnati: Jennings and Pye. New York, Eaton and Mains, 1859.
67. ***Russell***, Michael, Palestine or the Holy Land from the Earliest Period to the Present Time, New York, Harper's Stereotype Editions, 1838.
68. ***De Saulcy***, F. Saulcy, Narrative of a Journey Round the Dead Sea and in the Bible Lands in 1850 and 1851 including an account of the Discovery of the sites of Sodom and Gomorrah, edited by Count Edward de Warren, 2 Vols., London, 1854.
69. ***Schur***, Nathan, Twenty Centuries of Christian Pilgrimage to the Holy Land, 1992.
70. **Schwarz,** Rabbi Joseph, Descriptive Geography and Brief Historical Sketch of Palestine, 1850.
71. ***Spencer***, Jesse Ames, Egypt and the Holy Land, New York, 4th Edition,1857.
72. ***Stanley***, Arthur Penrhyn, Sinai and Palestine in Connection with their History,

Redfield, New York, 1857.

73. ***Stewart***, Robert Walter, The Tent and the Khan: a Journey to Sinai and Palestine, Edinburgh, William Oliphant and Sons, London, Hamilton, Adams and co., 1857.
74. ***Stephens***, George, Incidents of Travel in Egypt, Arabia Petraea and Holy Land, 2 Vols., London, Richard Bentley, 1838.
75. ***Tristram***, Henry Baker, The Land of Israel, a Journal of Travels in Palestine, London, 1865.
76. **Tristram,** H.B., Bible Places, The Topography of the Holy Land, London, 1897.
77. ***Thomson***, William M., The Land and the Book, 2 Vols. New York, Harper and Brothers Publisher, 1859& 1883.
78. ***Turner,*** William, Journal of a Tour in the Levant, 2 Vols., John Murray, London, 1820.
79. ***Wilson***, Colonel Sir Charles W. Wilson, Picturesque Palestine, Sinai and Egypt, 4 Vols., London, 1881.
80. **Wilson,** William Rae, Travels in Egypt and the Holy Land, The Second Edition, London, Longman, 1824.
81. ***De Velde***, C.W.M. Van, Narrative of a Journey through Syria and Palestine in 1851 and 1852, 2 Vols. Ed. William Blackwood and Sons, Edinburgh and London, 1854.
82. ***De Velde***, C.W.M. Van, Memoir. To Accompany the Map of the Holy Land, Justus Perthes, 1858.
83. **Wayfaring Notes**, No. 20, Sydney Morning Herald, 3 August, 1864.

فهرس المحتويات

الموضوع **الصفحة**